روبرت فورنو

عبد الكريم

أمير الريف

ترجمة
الدكتور فؤاد اي

ار دمشق
للطباعة والنشر

يروي هذا الكتاب قصة مثيرة :

تلك هي قصة شعب « الريف » الصغير ، البدائي ، المتشتت ، المتناحر على الطريقة القبيلة ، الرازح تحت العبء المزدوج للتخلف وأوهام القرون الوسطى ، وقد هب في العشرينات من هذا القرن ، بقيادة رجل فحل حقا ، يحارب اسبانيا الطامعة في أراضيه ، وذلك بالسلاح الذي يكسبه منها في ميادين القتال ، فينزل بها هزائم يشهد المؤرخون أن أية دولة استعمارية لم تمن بمثلها قط ، كما يشهدون على انه كان لها أكبر الاثر في تطور الاحداث فيما بعد في اسبانيا بالذات ، حتى تستغيث بفرنسا حليفتها ، وهي كبرى الدول الاستعمارية في ذلــك الحين ، فيقف الشعب الصغير ، الذي وحدته المقاومة ضد الغاصبين الغزاة ، وصهرته في بوتقة فولاذية ، يقف في وجه أساطيل الدولتين الجوية والبحرية والبرية ، يقاوم سنوات قبل أن يغلب على أمره . وحيدا الا من بعض التعاطف من احرار العالم الذين كانوا هم أيضا مغلوبين على أمرهم تقريبا في تلك الايام .

ويعطي هذا الكتاب قدرة رائعة :

فالشعب الفلسطيني الصغير يقف اليوم هو الآخر في وجه عصابة غاصبة ، تمدها ثلاث دول استعمارية كبرى بالمعونة ، والسلاح ، والمال ، والرجال . لكنه لا يقف وحــده . ان الشعوب العربية جميعا الى جانبه ، والبلدان الاشتراكية ، وأحرار العالم الذين لم يعودوا مغلوبين على أمرهم ، بل هم في كل مكان يشنون الهجوم على القلاع الاستعمارية المتهاوية ، في عصر يشهد انحسار الامبريالية ، ويتهيأ لدفعها الى الابد .

ما أشبه اليوم بالبارحة ، وما أبعد الفارق ما بينهما في الوقت نفسه .

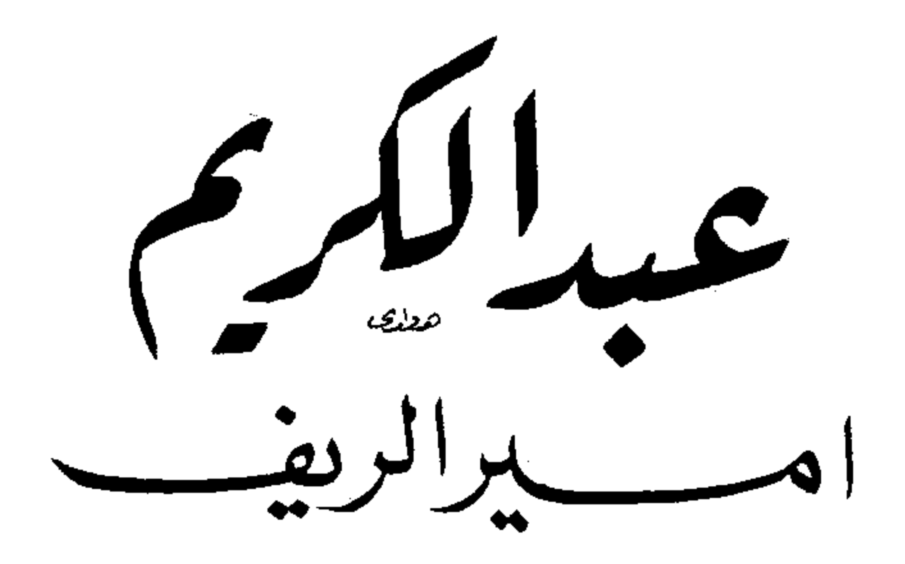
النشر والتوزيع في الاقطار العربية ــ دار دمشق

دمشق ــ شارع بور سعيد هاتف ١١٠٤٨ ــ ١١٠٣٢

السعر

٥٠٠ ق

روبرت فورنو



قصة التحدي العربي للاستعمار الفرنسي والاسباني

ترجمة

الدكتور فؤاد أيوب

دار دمشق
للطباعة والنشر

القيـــادة

« ان الدول الكبرى تشحذ أمواسها ، وسوف يكون دورنا في المرة القادمة » • ويشدد المتكلم ، وهو رجل مربوع القامة بدين الجثـة ، على انذاره بحركات بسيطـة ومعبرة من يديه الصغيرتين الرشيقتين • وطافت نظرته بالحاضرين ، فانتفض زعمـاء القبائل في ضيق تحت وطأة نظرته النافذة • وسرعان ما امتلأ الجو بطنين خافت من الأحاديث المتبادلة • لقد لاذ المتكلم بالصمت ، بينما الزعماء يتشاورون ، كل مع جاره القريب • وشحذ أذنيه كي يلتقط كلمة من هنا ، ويميز همساً من هناك ، في حين راحت عيناه تراقبان الوجوه من حوله • انه يعرف بعض الزعماء معرفة قديمة جداً ، لكن معظمهم غرباء لم يلتق بهم الا خلال السنة المنصرمة • وكان الاتفاق الجماعي على التعاون من أجل المصلحة المشتركة أكثر مما يتوقع ، لكن اجتماع قادة الريف في مؤتمر أمر لم يسبق له مثيل • لقد عاش الريفيون[1] طوال ألف سنة ونيف في عزلة تامة ، وكل قبيلة تعتصم داخل حصونها الجبلية،وكانت كل قبيلة العدو اللدود للقبيلةالمجاورة لها•

وعلى الرغم من أن الريف يمتد على الشـاطىء المتوسطي لافريقيا الشماليـة ، فانه ينأى عن أوروبا قدر ما تنأى جبال التيبيت وأدغال الامازون • أبداً لم يرغب انسان فيه منذ أيام الرومان القدامى ، ولم يطمع أي جـار قوي في وديـانه الحجرية وجبـاله الصخرية • أما الآن ، فان استقلال الريف لفي خطر • لقد أمضى المتكلم سبعة أشهر يجوب البلاد ، يحاور ، ويرافع ، ويحذر • ان الاسبانيين سيغزون الريف في الربيع ،

---

(١) سأستعمل طوال الكتاب كلمة « الريفيين » قاصداً بها أهل الريف بالضبط ، من دون أن يكون لها علاقة بصفة الريف الشائعة (المترجم) •

وثلوج الشتاء وأمطاره لا تترك سوى مهلة ستة أشهر : ان أمام الريفيين ستة وعشرين أسبوعا ثمينا يرجأ تنفيذ الغزو خلالها ، ومن واجبهم أن يقبروا خلافاتهم ويتعلموا كيف يتحدون ضد العدو المشترك ·

ان المؤتمر الكبير لقادة الريف ، هذه المنطقة الجبلية الواقعة في شمالي مراكش ، قد التأم في مكان يدعى القيادة في تشرين الاول (اوكتوبر) عام ١٩٢٠ ، ولم تنصرم عشرة أشهر على هذا التاريخ حتى كان اسم المتكلم الذي عمل على انهاض مواطنيه يتردد على كل شفة ولسان في العالم أجمع ، فهو صورة المقاومة المحلية ضد الحكم الاستعماري، وهو أول أفريقي شمالي ينادي بتطبيق مبدأ تقرير المصير على ضحايا الامبريالية · ان رجل القانون البسيط الذي انقلب جنديا ، وقاضي البلدة الصغيرة الذي مضى الى الحرب يركب حمارا ، قد اجتاح مخيلة ملايين الناس في أوروبا وأميركا · ان صحفيين مشاهير قد أفلتوا من يقظة أعدائه وتغلغلوا متنكرين في الريف كي يقابلوه ، كما أن الصحف نشرت مآثره بعناوين كبيرة في صفحاتها الاولى وهو يسحق بصورة لا تصدق جيوش اسبانيا وفرنسا معاً · وترنحت اسبانيا تحت ضرباته ، ولم تسترجع قط قواها كاملة من سلسلة من الهزائم لم يخرج منها بشيء من المجد سوى رائد يدعى فرانشسكو فرانكو · واضطرت فرنسا أن ترسل بطل فردان ، المارشال بيتان ، الى مراكش · واني لأذكر أن والدي كان يتساءل كل يوم ، وهو يفتح جريدته الصباحية : « ترى ، ما الذي يصنعه عبد الكريم ؟ » ·

* * *

حين قرأت خبر وفاة عبد الكريم عام ١٩٦٣ ، عادت أفكاري القهقرى ، في مثل لمح البصر ، الى العشرينات من هذا القرن · واستحضر ذهني صورة زعيم قبلي رسمته السينما في هوليوود على اعتباره بطلا لرمال الصحراء · يا لها من لوحة مزيفة كاذبة ! هذا ما عرفته حين مضيت أبحث عن عبد الكريم · وأرشدني ولده سعيد عبر مجاهل الريف ، فزرنا مسارح المعارك الكبرى ، وتحدثنا مع الاحياء من المحاربين ، هؤلاء الشيوخ الذين قاتلوا مع عبد الكريم في شبابهم · كانت اللوحة رائعة · ان جماهير جياشة العواطف قد تجمعت حولنا ، كما ذرف شيوخ طاعنون في السن دموع التأثر

والانفعال الشديد . وحين عرضت مكافاة على دليل شاب رفض هديتي قائلا بكبرياء : « تلك هي مشاركتي في تاريخ عبد الكريم » .

وفي القاهرة ، روى لي سعيد واخوته القصة التي لم تسبق روايتها عن الحرب التي خاضها والدهم ضد دول أوروبا العظمى . وأوضح لي محمد ، أخو عبد الكريم ومساعده الرئيسي طوال الحرب ، كيف أن فئة ضئيلة من رجال القبائل المفتقرين الى السلاح قد هزموا جيوش المسيحيين . وعرفت في مراكش ومصر أن عبد الكريم لا يبرح البطل الاسطوري لشمال أفريقيا ، وأنه شخص مبجل في العالم العربي . وان اولئك الذين عرفوا عبد الكريم يتحدثون عنه كما لو كانوا يتحدثون عن النبي ، كما نتحدث نحن البريطانيين عن تشرشل ، وكما يفكر الهنود في غاندي . ولقد أصبحت أنا الآخر مسلوباً بسحر عبد الكريم .

في تشرين الاول (أوكتوبر) عام ١٩٢٠ ، أخفق عبد الكريم في الحصول على التأييد الموحد من قبائل الريف . وعاد القادة الى قراهم ، يتخاصمون ويتشاحنون ، وقد حزم كل واحد منهم أمره على مقاتلة الاسبان في أرضه الخاصة ، وكل رجل منهم معني بما بينه وبين جاره من ثأر دموي أكثر من عنايته بالخطر الذي يهدد استقلال الريف . كان شيء واحد يمكن أن يوحدهم تحت راية عبد الكريم ، ألا وهو نصر عظيم ومدو . وكان عبد الكريم ، في منزله في أجدير ، المطل على خليج الحسيمة ، ينتظر الغزو الاسباني . وكان ذلك الشتاء باردا ورطبا بصورة غير مألوفة .

وقد شحذت الأمواس

في مليلا ، على بعد سبعين ميلا من أجدير ، كان الجنرال فرنانديز سيلفستر ينتظر الربيع بصبر فارغ • لقد أقام الاسبان طوال خمسة قرون في تلك المدينة وفيما حولها، وهي أبعد مواقعهم على الساحل المراكشي من جهة الشرق • وكان سيلفستر يخطط ، بصورة تتعارض مع أوامر رئيسه ، الجنرال دامسكو بيرنجر ، المفوض السامي لمراكش الاسبانية ، للخروج من مليلا واجتياح الريف بضربة خاطفة • ان سيلفستر سيضرب من الشرق ، بينما يتوانى بيرنجر في الغرب ويضيع الوقت سدى • وكان سيلفستر يرى نفسه اذن في صورة كورتيز جديد ، في صورة بيزارو القرن العشرين • ان اسبانيا لفي أمس الحاجة الى انجاز عظيم ، وامبراطورية مراكشية تقوم على عتبتها الخاصة سوف تعوض عن فقدان المستعمرات الاميركية وتكون البلسم الشافي لجراح الكبرياء الاسبانية• وكان سيلفستر يحتفظ بسرية خططه ، ولم يحدث أحدا بها سوى صديقه ، ألفونسو الثالث عشر ، الملك الشاب الطموح والمتهور الذي كان يتوق الى تنفيذ المشروع المراكشي — هذه المغامرة التي ستكلفه العرش قبل أن تخفت أصداؤها الاخيرة وتتلاشى •

ولقد جعلت الامبراطورية المراكشية القديمة تنهار عام ١٨٩٤ ، اذ أن الحكم الضعيف الذي كان يمارسه السلطان الصبي عبد العزيز قد فتح الباب على مصراعيه أمام التدخل الاجنبي • لقد أصبحت مراكش ناضجة من أجل الغزو الاوروبي • كانت فرنسا قد استولت على الجزائر وتونس ، وكانت أنظارها الجشعة تتوجه نحو مراكش ، هذه الغنيمة الاغنى في شمال أفريقيا ، وهي في وقت واحد التاج وحجر الاساس اللذان تتوق اليهما من أجل استكمال امبراطوريتها الافريقية • وكان عامل واحد يعوق الغزو الفرنسي ، ألا وهو الخصومة البريطانية • وجاء تبدل في الميزان المعقد لسياسة الدول

الاوروبية الكبرى فلطف من المخاوف البريطانية تلقاء المشاريع الفرنسية عبر المضايق من جبل طارق • ان خطرا أعظم يلوح في الأفق • ذلك أن ألمانيا ، وهي القوة العسكرية العظمى في القارة ، قد وضعت نصب أعينها تشييد أسطول بحري يضـارع الاسطول البريطاني • وسعت بريطانيا الى حلف مع فرنسا ، فعرضت فرنسا عليها أن تطلق يدها في مصر لقاء حرية العمل لها في مراكش • ووافقت بريطانيا على شرط واحد ، ألا وهـو ألا تحتل فرنسا الساحل الشمالي الذي يقابل جبل طارق • عندئذ أشرك الفرنسيون الاسبان في المؤامرة • ووقعت المساومة الدنيئة عام ١٩٠٤ • ذلك أن فرنسا واسبانيا عمدتا ، في معاهدة سرية تعهدت كلتاهما فيها أن تحترما استقلال الامبراطورية المراكشية ووحدتها وسيادة السلطان ، الى تقسيم مراكش الى منطقتي نفوذ لهما • ولقد تنازلت فرنسا لاسبانيا عن المنطقة الشمالية من البلاد ، وذلك سعيا منها لتهدئـة المخـاوف البريطانية • ويقول ا• د• موريل في هذا الصدد : « ان حكما سريا بالاعدام قد لفظ ضد مراكش • وكان على فرنسا أن تلعب دور الجلاد ، وعلى اسبانيا أن تلعب دور المساعد صاحب المصلحة ، وعلى بريطانيا أن تلعب دور الشاهد المعني • »

وثبتت المعاهدة الدنسة في مؤتمر دولي عقـد في الجـزائر عام ١٩٠٦ ، بحيث أصبحت الغنيمة المشتهاة في متناول فرنسا • وطبق الفرنسيون الخطة المجربة منذ القدم، هـذه الخطـة التي تستولـي الـدول الكبرى بواسـطتها على « الدول الهمجيـة » ، فأرسلوا مستشارين من أجل تقديم المساعدة الى السلطان في تعصير حكومته ، وأقرضوه مبالغ ضخمة من المال شجعوه على تبذيرها في ترهات تافهة • وحين اغتيل رجال أعمالهم ولم تدفع القروض المستحقة ، فقد دخل الفرنسيون البلاد « كي يعيدوا النظام » ويحموا السلطان •

وأقامت فرنسا حماية على مراكش عام ١٩١٢ ، فاحتلت جيوشها البلاد باستثناء طنجة التي اعتبرت منطقة دولية ، والمنطقة الشمالية التـي أطلقت فيها يد الاسـبان لاستثمارها • وكانت الحدود بين المنطقتين الفرنسية والاسبانية قد اتفق عليها عام ١٩٠٤ حين رسم على الخارطة خط وهمي عبر أراض لا يمكن سلوكها وباستهتار مطلق لرغبات السكان • وكان هذا الخط يرسم الحد الجنوبي للمنطقة الاسبانية قريبا من

شلالات نهر ورغلا ، وبذلك يترك لاسبانيا أمر تصريف شؤون الريف وادارة القبائل التي تقيم في أرجائه ٠

* * *

تعني كلمة « ريف » حافة ، أو جرفا ، أو أرضا مزروعة خصبة ، وهي تعني كذلك ظاهر شيء ما ٠ وحين تطبق هذه الكلمة على أرض مراكش ، فهي تعني الساحل البحري الشمالي ، الدفاع الخارجي عن داخل البلاد ٠ تلك كلمة عربية لا نقع على أثر لاستعمالها قبل القرن العاشر ، كما أنها لا تظهر مرة أخرى حتى يعثر عليها في كتاب مكتوب في القرن الرابع عشر بريشة عبد الحق البادیسي ، وهو من مواليد منطقة غماره ٠ وقد عرف هذا الكاتب ، مع مؤلف آخر يدعى داوود القرطبي ، الريف على اعتباره يمتد من المنطقة المحيطة بسبته غربا حتى الحدود الجزائرية شرقا ٠ ويصف ليـون الافريقـي ، وهو اسباني مسلم اصطحبه والده ليعيش في مراكش وقد كتب في القرن السادس عشر ، « الريف » على اعتباره احدى مناطق فاس السبع :

> تبدأ هذه المنطقة غربا قريبا من مضايق جبل طارق ، وتمتد شرقا حتى نهر نخور ، وهي مسافة تبلغ حوالي مائة واربعين ميلا ٠ وانها تحـاذي شمالا البحر الابيض المتوسط ، وتمتد أربعين ميلا جنوبا حتى تلك الجبال التي تنتصب فوق أورغه (نهر ورغلا) وأراضي فاس ٠ وان هذه المنطقة شديدة الوعورة ، ملآنة بالجبال الشديدة البرودة والصحاري القفراء التي تغطيها اشجار فائقة الجمال وباسقة الفروع ٠ ولا ينبت الحب هنا ، لكنهم يملكون أعدادا كبيرة من الكروم ، وأشجار التين والزيتون واللوز ٠ وسكان هذه المنطقة أناس شجعـان ، لكنهم يكثرون من الشراب بحيث نادرا ما يحتفظون بما يكسون به انفسهم ٠ وان لديهم ماشية لكنها قلة ، على الرغم من أن في جبالهم الكثير من الماعز والحمير والقردة٠ومدنهم قليلة ، وقصورهم وقراهم مبنية بصورة بسيطة جدا، من دون أخشاب أو طوابق ، وهي شبيهة كثيرا باسطبلات أوروبا ، ومغطاة بالقش أو لحاء الشجر ٠ وجميع سكان هذه المنطقة يتميزون بحنجرة ناتئة ، وهم قوم قساة جفاة ٠

ويحد الجغرافيون المحدثون امتداد الريف بالقسم الاوسط والشرقي من المنطقة الشمالية من مراكش ، أي تلك المنطقة المشكلة من جبال الريف والارض المجاورة لها

بصورة مباشرة ، المتمادية ١٢٠ ميلا من الغرب الى الشرق وثلاثة وخمسين ميـــلا من الشمال الى الجنوب • ويتاخم الجبال من جهة الشرق السهل الذي يمتد حتى مليلا ، ومن جهة الغرب مناطق غماره وصنهاجه الشمالية التي لا تشكل ، على الرغم من كونها مناطق جبلية ، قسما حقيقيا من سلسلة جبال الريف ، كما لا يسكنها ريفيون حقيقيون• وتتكون سلسلة جبال الريف من ذرى متجهمة ، يرتفع بعضها حتى علو ٧٠٠٠ قدم ، ومن ممرات متوحشة ووديان صخرية • تلك بلاد قاسية ، جرداء ، جافة ، جدباء ، ولم يكن سلوكها ممكنا حتى عبد عبد الكريم الطرقات فيها ، ولا تزال أجزاء كبيرة منها حتى الآن غير محددة على الخارطة • ويتفاوت طقسها بين البرد الشديد في الشتاء والحر اللاهب في الصيف ، كما أن أمطار الشتاء والثلوج الذائبة تحول سواقيها الضحلة الى سيول جارفة عاتية •

ويتألف أهل الريف ، سكان البلاد ، من ثماني عشرة قبيلة أكثر أو أقل تميزا ، تنحدر غالبيتها العظمى من البربر وتنطق بلغة البربر • أما حواشي المنطقة فيقطنها قبائل عربية اصيلة أو مختلطة من الاعراب والبربر • وتتميز هذه القبائل عن الريف ، بيد أنها تشكل قسما منه من وجهة النظر السياسية والجغرافية ، ذلك أن عبارة « الريف » قد أصبحت تشمل ، في زمن حروب عبد الكريم ، منطقة أوسع من المنطقة المقصودة أصـــلا •

ويلتف أصل أهل الريف بحجب الغموض ويتجلبب بلباس الاسطورة • وان الدراسات الاثنوغرافية التي نشرها البروفسور كارلتون كون وأحد تلامذته السابقين دافيد هارت قد قضت على عدد كبير من الخرافات بشأن البربر ، هذه الجماعة اللغوية التي تقطن ساحل أفريقيا الشمالية بأكمله• •وتؤكد مشاهداتي الخاصة أن كثيرين من أهل الريف يظهرون خصائص عرقية مماثلة لتلك الخصائص التي تتميز بها شعوب أوروبا الشمالية الغربية • ويقدر ولتر هاريس ، مراسل التايمس في مراكش عام ١٩٢٦ ، أن ٣٥٧٠٠٠ نسمة من أهالي المنطقة الشمالية من مراكش هم من البربر ، بينما ٣٦٩٠٠٠ آخرون هم من البربر المستعربين •

وحين هاجر أسلاف البربر المحدثين من الشرق الادنى الى الســـاحل الافريقـــي الشمالي قبل حوالي ٦٠٠٠ عام وجدوا في شـــمالي مراكش عرقا بدئيـــا ، قريبـــا من الكرومانيوليين في أوروبا ، وقـــد اختلطوا به حتى درجة ما • ولا نزال نشـــاهد آثاراً

متميزة من هذا العرق البديء بين أهل الريف ، وبالخاصة بين القبائل المقيمة في الجهات الانأى • وهكذا فان ثمة سلالتين حكميتين متميزتين بين أهل الريف ، وذلك على الرغم من انعدام أية فوارق بينة في العادات والتقاليد •

ويجد دافيد هارت أن غالبية أهل الريف قوم أقوياء تتراوح بنيتهم بين القصر والقامة المتوسطة ، وأطرافهم السفلية طويلة بالمقارنة مع جنوعهم • وانهم لاصحاب رؤوس متطاولة ، ووجوه ضيقة ، وأسنان صغيرة ، وأنوف بارزة ، وشعر أسود ، وعيون بنية ، وشعر بدني كثيف جدا • وانهم ليبدون ، مثلهم في ذلك مثل جميع سكان البحر الابيض المتوسط ، ميلا ثابتاً ، مع مزيد من القوة ، الى اللون الاشقر والشعر الكستنائي أو الضارب الى الحمرة ، والى العيون الزرق أو الخضر ، وهو ما يعزوه البروفسور كون الى الانعزال في ملجأ جبلي غائم ورطب من جهة واحدة ، والى الاختلاط بسلالة أقدم من جهة ثانية • ويقترح هارت أن تكون هذه السلالة العتيقة قد استمرت في البقاء من الأزمان السابقة للزراعة ، وهي تظهر شبهاً بالبقايا العظمية التي عثر عليها في أماكن أخرى من أفريقيا الشمالية ، كما تظهر شبها أقل بأناس الكرومانيو في أوروبا العصر الحجري الأعلى • ويستطرد هارت قائلا :

ان ممثلي هذه السلالة المحدثين يشبهون الايرلنديين ، أبدانهم متينة عريضة ، ووجوههم عريضة (لكن رؤوسهم متطاولة) ، وأنوفهم فطساء ، وأسنانهم ضخمة ، وشعرهم أصهب ، وعيونهم خضر أو بنية صافية ، ويغطيهم النمش • وانه ليمكنني أن أجزم شخصيا بأن وجود أناس من هذا النمط الحكمي في الريف الاوسط لاكثر تواترا من أن يكون في الامكان تجاهله ، وأعتقد بثبات أن هؤلاء « الباقين من العصر الحجري » هم راسخو الجذور في مقامهم الجبلي بصورة أمتن من أن تفسر بأي غزو ضمن الازمان التاريخية ، سواء أكان هذا الغزو حقيقيا أم وهميا • أما أن البربر المراكشيين هم أحفاد الغوتيين أو الفانداليين،فتلك خرافة لايبرح اضمحلالها يتطلب لسوء الحظ بعض الوقت ، والاسوأ من ذلك أني صادفت ريفيين خلصوا هم أنفسهم الى الاعتقاد بها •

وسواء أكان هؤلاء الريفيون البدئيون يمتون بأية قرابة عرقية الى السلتيين في

أوروبا الشمالية أم لا ، كما تشاء بعض المزاعم ، فانهم يمكن أن يمثـلوا ، كما يعتقد البروفسور كون ، سلالة شمالية التجأت الى أفريقيا الشمالية في الازمان قبل التاريخية. ويعتقد هارت أن هؤلاء « الشماليين » قد لا يكونون أكثر من متوسطيين « باهتين » فقدوا تصبغهم الأصلي من جراء السكنى المديدة في مناخ أكثر برودة. وانه لمن المؤكد أنه يصدق القول ، كما لاحظت ، بأن هؤلاء الريفيين الحمر الشعور والزرق العيون يمكن أن يعتبروا بصورة مرضية تماماً جماعة من أهالي غربي ايرلندا أو المدن السكاندينافية ، وذلك اذا ما أحسن تدريبهم وارتدوا الملابس المتمدنة . وبالمقابل فان البربر الحقيقيين هم من عرق متوسطي ، وهم يملكون شبها مرموقا بالاقوام الذيـن تصورهم نقوش آشوريا القديمة .

ولقد كان هؤلاء الريفيون المختلطون ، المتوسطيون قسماً و « الشماليون » قسماً ، يحيون في الجبال أيام أقام التجار الفينيقيون قاعدة لهم في رأس أجـدير ، اسم مليـلا القديم ، حوالي عام ١١٠٠ ق.م. ، وأيام ظهر الرومان على الساحل ، هذا الساحل الذي أطلقوا على منطقته الداخلية اسم « موريتانيا » . ولم تتغلغل أية من هاتين الأمتين في المناطق الداخلية . ولقد قدم الفانداليون في القرن الخامس بعد الميلاد، لكن اقامتهم التي لم تمتد سوى قرن واحد لم تترك أثرا في الخليط العرقي هناك . ووصل العرب الى مراكش على موجتين ، الموجة الاولى في القرن السابع والموجة الثانية في القرن الحـادي عشـر ، حـين اسـتكمل الغـزو العـربي لمراكش . واعتنـق أهـل الـريف الـدين الاسلامي واحتفظوا بلهجتهم البربرية المسماة تمازرت أو شلوح . وعلى الرغم من عدم خضوعهم للسلطان سياسيا ، لان السلطان كان يمارس عليهم سيادة اسمية وسلطانا روحياً فحسب ، فان الكثيرين من أهل الريف قد انضموا الى الغزو العربي لأسبانيا التي لم يخرج منها المسلمون بصورة نهائية الا عام ١٤٩٢ .

ان أهل الريف مشروطون بوراثتهم وبيئتهم . ولقد كان الريف في العشرينات من القرن العشرين من أشد مناطق العالم وعورة ، اذ هو مجرد سلسلة من الجبـال المجهولة وغير المستكشفة ، على الرغم من كونها واقعة تحت أبصار المراكب الكبرى التي تعبر البحر الابيض المتوسط . وكان أهل الريف يحيون في مساكنهم النائية ، منعزلين عن العالم الخارجي وغير عارفين به ، حذرين من الغرباء ومقاومين بعنف للقوى الخارجية. ولقد خلقت حياتهم الانعزالية ، على حد تعبير ولتر هاريس، « كراهيتهم الفطرية والعميقة

الجذور لكل سلطة خارجة عن تلك السلطة التي تمارسها منظماتهم المحلية الديموقراطية الخاصة » • ولقد كانت روح المحافظة عند أهل الريف بارزة بشدة ، كما لاحظ كون عام ١٩٢٨ ، بحيث أن المسافرين العائدين كانوا يترددون في رواية الاقاصيص عن تلك الاراضي الغريبة خشية أن يتهموا بالكذب • ويقول كون ان أهل الريف يرتابون في كل فعل أو ابتكار لم يقبل أجدادهم بهما ويرفضونهما • ان هذه التقارير ، المقدمة من قبل مشاهدين يتحلون بالكفاءة ، تؤكد على الثورة الجبارة التي حققها عبد الكريم في الريف في فترة تقل عن خمس سنوات ، وهي ثورة لا تبرح في تقدم منذ ذلك الحين •

ان البروفسور كون ، الذي قضى عدة سنوات في الريف ، قد درس عادات شعبه وتقاليده (**راجع كتابه قبائل الريف**) • وانه ليقدم هذه اللائحة بالقبائل الريفية الحقيقية : كبدانه ، جاليدجا ، بنو سعيد ، بنو بويحيى ، متيلسا ، بنو اوليسيك ، تفرسيت ، بنو توزن ، كسنمايا ، بنو اورياغل ، بنو عمارت ، تارغيست ، يوقويا ، بنو اتافت ، بنو بوفراح ، مستاسا ، ومتيوا • ولم يتبن البربر قط بصورة كاملة عبارة « بني » ، بل كانوا يفضلون عليها عبارة « آية » • وكان بنو أورياغل ، أو آية ورياغر كما يتهجأ دافيد هارت إسمهم ، أكبر هذه القبائل ، وكان عبد الكريم ينتسب اليهم • وينكب دافيد هارت في الوقت الحاضر على دراسة مخصوصة وموسعة « لبني ورياغل » **كما يفضل تسميتهم للسهولة** • (راجع كتابه **دراسة اثنوغرافية لقبيلة آية أورياجيل الريفية** ، ١٩٥٤) •

كان بنو ورياغل يعدون حوالي ٦٥٠٠٠ نسمة عام ١٩٤٥ ، ومن المرجح أن عددهم عام ١٩٢٦ لم يكن يتجاوز ٤٠٠٠٠ نسمة • وكانت أرضهم القبلية تمتد من خليج الحسيمة في الشمال حتى مستجمع مياه نهر نخوت في الجنوب ، كما كانت تمتد اعتباراً من نهر نخور شرقا حتى حدودهم مع القبائل المجاورة غربا ، وهي منطقة تبلغ حوالي ١٠٢٧ كيلو متر مربع • وكان بنو ورياغل وبعض القبائل الأخرى يشكلون كتلة لغوية ريفية مركزية ، كما يقول هارت ، لا يتكلم العربية فيها الا أقلية هزيلة من المتعلمين ، اذ حافظت القبيلة على ملامحها البربرية القديمة في وجه التعريب المتعاظم • ولما كان بنو ورياغل يشكلون القبيلة الأشد بأساً ، فقد كانوا يوجهون سياسة الريف • ولم تكن التربة تنتج الا مستوى معيشياً ضئيلا جداً من أجل السكان الكثيرين الذين كانوا يشغلون المكان بكثافة خمسة وستين شخصاً في الكيلو متر المربع الواحد وفقاً لاحصاء

السكان الذي جرى عام ١٩٤٥ ٠ وكانت زيادة السكان ، التي كانت الضغائن الدموية تحد منها فيما مضى ، تخفف منها حتى عام ١٩٥٥ هجرة سنوية الى الجزائر الغربية ، حيث كان رجال القبائل يشتغلون بالحصاد ، ومنــذ عام ١٩٦٠ الهجرة الى أوروبا ، وبالخاصة ألمانيا ، حيث كان أهل الريف يتكيفون عاجلا مع البيئة الجديدة كعمال مهرة في مصانع السيارات ٠

ان الأراضي القبلية الخاصة ببني ورياغل ، كما هي الحال بالنسبة الى ســائر القبائل الريفية ، هي أراضي جدباء عقيمة، تشرئب في الجنوب في كتلة جبل حمام الوعرة المتجهمة (وارتفاعها ١٩٤٨م) ، هذه الكتلة التي تكتسي ذراها العليا بالثــلوج في كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) ، وتنتهي في الشمال بذلك السهل الطمي المفتوح الذي يحيط بخليج الحسيمة، والذي تنتصب في وسطه أجدير المدينة الرئيسية — هذا اذا كان في الامكان اطلاق هذه التسمية على مجموعة مبعثرة من البيوت الواطئــة السقف المجمعة حول المنزل الكبير الذي ولد فيه عبد الكريم ، ابن قاضي المدينة ٠ ويندر المطر في هذه المنطقة المتوسطة من الريف ، فلا يزيـــد عن ٣١٥ مم في السنة ، مقابل ٦٦٥ مم في تطوان و ٤٦٥ مم في مليلا ، وهو يأتي بصــورة مفاجئة ، مؤديا الى فيضانات عنيفة تحول النهرين العابرين في المنطقة ، وادي نخور ووادي غيث ، الى سيلين جارفين ٠

ويفلح أهل الريف أرضهم ويزرعون مواسم من الخضروات والشعير في الخريف والشتاء ويدرسون حنطتهم في الصيف ٠ وكانت دورة العمل لكل اسبوع في الايــام القديمة تنظم من قبل الفقيه ، رئيس القرية ، الذي يعلنها في الجامع كل يوم جمعة ، ممتنعاً بكل حذر عن الافصاح عن قدر كبير من المعلومات خشية أضعاف مركز الرهبة الذي يتمتع به بين قومه ٠ ولقد عمد أهل الريف في سبيل زيادة مرتبهم الغذائي الى زراعة الاشجار المثمرة والكروم والى تربية الدجاج والماعز ٠ وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد كانت أسر كثيرة تشارف المجاعة حوالي شهري كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) ٠ وكان الماء ، المدخر بكل حرص ، يخص صاحب الأرض التي يعبرها ، لكن العرف ، هذا القانون المتعارف عليه ، كان يحفظ حقوق الماء على أية حال ، وكان الغرض منه هو توزيع حصص عادلة من المياه على جميع الناس ٠ وكان قسم كبير من العمــل الزراعي ينجز بواسطة الجهد التعاوني ٠ فقد كان بعض الملاكين يستخدمون الفقراء

على أساس تقاسم المحصول ، كما كان المزارعون الصغار يتشاركون في استثمار أراضيهم، فيتقاسمون الادوات والحيوانات كما يتقاسمون المحاصيل بصورة متساوية • وكانت بعض الاعمال ، حفر الآبار وتشييد الطواحين المائية واليدوية مثلا ، تسند الى الحرفيين المتجولين ، كما كانت بعض الأشغال مقصورة بفعل العادة على المراتب الوراثية ، وفي عدادها الحدادون ، والمنادون الذين كانوا يعملون زمارين أيضاً في الأعراس • وكان القبانون يعتبرون من المراتب الدنيا لانهم كانوا ، بما يعمدون اليه من تباه واثارة الضوضاء بين الجماهير ، يسيئون الى التواضع ، الأمر الذي كان يعتبر من قبيل الاسفاف • كان أفراد هذه الجماعات يوصمون « بالوقاحة » ، وعلى الرغم من أن المجتمع الريفي كان ذا نزعة مرموقة الى المساواة ، فان هذه الأقليات كانت موضع احتقار على حد تعبير هارت من قبل الغالبية الذين كانوا يعتبرون أنفسهم « أكثر سواء » منهم •

كان الاثم بحق التواضع جريمة عظمى في الحقيقة • ولقد وجدت أن أهل الريف ينفرون من الحديث عن منجزاتهم ، وقد عاقني تحفظهم عن تحصيل عدد كبير من تلك التفاصيل التي يتحدث الغربيون بكل حرية عنها • ولقد اختبر آخرون المصاعب نفسها كما علمت • ومثال ذلك أن الصحفي الأميركي بول سكوت موور طرح على عبد الكريم عام ١٩٢٥ سؤالا بشأن الشخص الذي « وضع خطة النصر في أنوال » ، لكن عبد الكريم لم يجب الا بهذه الكلمات : « لقد كنت حاضراً هناك • »

وتتألف الجماعية الريفية من مجموعات من المنازل المربعة أو المستطيلة ، المسطحة السقوف والشديدة التبعثر ، وكل منزل منها يتألف في الأغلب من غرفة واحدة ، مبنية من الطين أو الحجر ، وله باحة واسعة • وان أجمة متراصة من الصبار تحيط بكل منزل على حدة ، كما تحميه عصابة من الكلاب الجرباء التي تنبح أبداً بصورة مجنونة عند اقتراب الغرباء • وحين يدخل المرء الى المنزل من باب واطىء ، فانه يجد الداخل مبيضاً وبالغ النظافة • ولقد كان كل منزل حتى عام ١٩٢٢ يشكل حصناً قائماً بذاته ، تحميه « قلعة صغيرة انتقامية » ، وهي برج مراقبة يشيد قريباً من الدار بحيث يستطيع صاحبها أن ينتظر فيه العدو ويطلق النار عليه حين يقترب من مسكنه • ولقد ازيلت هذه الابراج بأمر من عبد الكريم •

ولقد أساء الغربيون فهم التنظيم الاجتماعي والسياسي في الريف حتى أوضحه دافيد هارت الذي عاش في الريف سنوات عديدة وكان يتكلم لغة البربر بطلاقة • ولقد أخبرني

هارت أن هذا التنظيم يقوم على أساس ما يسميه الأنترويولوجيون الأنظمة « القطعية » للتنظيم الاجتماعي ، هذا التنظيم الذي يشكل أهل الريف « أمثلة مثالية بصورة مطلقة » عنه • وكان فعل هذا التنظيم يسري وفقاً للذرية المباشرة ، أسراً وعشائر ، ويحركه مبدأ « المعارضة » القطعية الذي كان يخلق توازناً في القوى ، وهو ما يوضحه بول بوهانان في كتابه **الانتروبولوجيا الاجتماعية :**

> ذلك اسقاط للفكرة القائلة ان أخي وأنا متضادان في حال انعدام أي شخص أبعد قرابة منا في حالة تضاد مع كلينا • واني أنضم الى أخي ضد اخوتي من أبي ، كما أن أخوتي من أبي ينضمون الي والى أخوتي الحقيقيين ضد جماعة أبناء أعمامي • وانهم لينضمون الينا كذلك ضد أبناء أخوة جدي لأبي •

ان السلطة السياسية في مثل هذه البنى موجودة على جميع المستويات ، ذلك أن كل رجل في الريف يشكل فرداً مستقلا لم يكن يعترف بأية زعامة حتى عصر عبد الكريم • وكان الرجال الأشداء يسعون الى « التوازن فيما بينهم » ، وكان هناك سلسلة من الاغتيالات واملاء الشواغر تساعدنا كما يلاحظ هارت على فهم المصاعب التي لم يكن لعبد الكريم بد من مواجهتها •

ويبدأ تنظيم الريف الاجتماعي بالجماعة العائلية التي هي أوسع بما لا يقاس من قرينتها الغربية ، لان « الضلع » أو « الفرع » كما يسمى يتضمن الاب وزوجته أو زوجاته وذريته واخوته وزوجاتهم وذريتهم • ان العائلة جماعة من أبناء الأعمام • ويأتي فوق العائلة الذرية الأبوية بالاضافة الى الناس الذين سمح لهم بالانضمام الى الجماعية لانهم طردوا من قراهم الخاصة بدافع اليأس أو على اعتبارهم مجرمين • وكان مثل هؤلاء الرجال الذين لا أرض لهم يقبلون في أحضان الجماعية ليسهموا في عملها ونشاطاتها، وكان يرخص لهم بالزواج فيها، لكنه ما كان يسمح لهم بالاسهام في ادارتها ، أو في الصيرورة أعضاء في الأسر أو العشائر ، قبل أن تمر بضعة أجيال عليهم • وكان فريق من الذراري يشكل جماعة أخرى ، وخمس جماعات من هذا الطراز عشيرة هي وحدة جغرافية بالأحرى منها وحدة تتألف من الاواصر الدموية • وكانت كل قبيلة تتألف من عدد من العشائر ، وكانت الادارة تتحقق بنظام من المجالس التمثيلية المتراتبة في كل مرحلة من تراتب الحكم ، من الذرية الى العشيرة ، أو « الخماسية » كما

كانت تسمى ، وصعوداً حتى المجلس القبلي . وكان الرجال يصبحون أعضـــاء في المجالس بفعل عدد الذراري المسلحة التي يأمرونها ، ويحتفظون بمنصبهم هذا حتى وفاتهم ، هذه الوفاة التي كانت تقع في الأغلب بواسطة العنف .

وكانت المجالس تنعقد عادة تحت شجرة وارفة في السوق ، لكن المجلس يمكن أن يعقد في أي مـكان ، اذ يلتئم أعضـاؤه ويجلسـون على الأرض في دائـــرة . ويصف البروفسور كون اجتماع أحد المجالس كما يلي :

يتوقف مكان الاجتماع على الموافقة المتبادلة ، وتشغل كل خماسية قسما من الدائرة . ويتحدث وسيط الى الاعضاء حتى يتم الاتفاق على موقف مشترك بخصوص موضوع الاجتماع . واما يحصل الوسيط على التعليمات من جمهرة أنصاره، فانه يقترب من مركز الدائرة ، بينما يعمد أعضـــاء المجلس الذين بقوا في الحلقة الخارجية الى الامساك ببنادقهم معبرين بذلك عن استعدادهم للدفاع عن المتحدث باسمهم اذا ما دخل في مشادة عنيفة . ويناقشون القضية المطروحة على بساط البحث وهم يتحدثون جميعا في وقت واحد أو كما يحلو لهم ، ما دام ليس هناك وسيط رئيسي ، واذا ما طالب أحد الاعضاء عضوا آخر بالهدوء ، فان ذلك يشكل ذريعة وافية من أجل القتل . ويتفق وسطاء الخماسية عادة فيما بينهم ، وسرعان ما تتطـور المناقشة الى البحث في عدد الخماسـيات التي تؤيد هـذا الـرأي وعـدد الخماسيات التي تؤيد الرأي الآخر . ويستطيع وسيط احدى الخماسيات أن يقود وسيط خماسية أخرى جانبا ويهمس في أذنه خارج الحلقة ، ساعيا الى رشوته بالانحياز الى طريقته في التفكير . واذا ما خضع الوسيط الآخر لهذا الامر ، فانه يعود الى مركز الحلقـــة ويجرب أن يبدل موقف الممثلين الآخرين لخماسيته . ويستمر التفاوض حتى يتم الوصول الى قرار اجماعي أو حتى يبدأ أعضاء المجلس في القتال وينفض الاجتماع في معركة . ويشكل الخصوم في هذه الحال محالفات حربية ، ويستمر القتال حتى ينهزم أحـد الطرفين ويضطر الى دفع تعويض الى الطرف الآخر . وحتى اذا انفض المجلس بصورة سلمية ، فانه يتطلب أسبوعا على الاقل قبل أن ينتهي أعضاؤه الى اتفاق .

كانت هذه المجالس تعالج قضايا القتل والسرقة والزنا • وكان القتلة يعاقبون باحراق منازلهم وقطع أشجارهم ، ويطالبون بأن يدفعوا فدية نقدية لأقرباء القتيل ، لكن هارت وجد أن قبول الفدية من جانب العائلة المفجوعة يشكل ظاهرة نادرة لانها كانت تفضل أن توسع القتل الى ثأر كثيراً ما يتحول الى حرب قبل أن تتمكن المجالس العليا من وضع حد له • ولقد كان الريف برمته مشرباً ، قبل حكم عبد الكريم ، بالضغائن الدموية لأن الاغتيالات الجديدة كانت توفر الفرصة من أجل الثأر للاحقاد القديمة • وكانت مؤسسة ريفية عامة الغرض منها التخفيف من الضغائن تعمل في الأغلب على مضاعفتها • ذلك هو العار ، أو كما يصفه كون فعل التضحية الاحتفالية بغرض اجبار شخص آخر على اتيان أمر ما بصورة مضادة لارادته •

وفي الريف ، كما يقول هارت ، حتى مجيء عبد الكريم ، « كانت حالة الحرب قائمة بصورة متصلة بحيث يمكن القول بكل صدق انه اذا كان من عادة الأوروبيين والأميركيين أن يعلنوا الحرب ، فانه كان من عادة أهل الريف أيضاً أن يعلنوا السلم »• كانت الضغائن تتخذ نسبة عالية بحيث أن قرية واحدة ، على سبيل المثال ، لم تعرف السلام مطلقاً حتى الاحتلال الاسباني ، وكانت معظم الجماعيات لا تعيش في سلام الا في الصيف وحده ، حين تكون مضطرة الى جمع محاصيلها • ويورد هارت مثال احدى الجماعيات ، وقد تحقق هو نفسه من قصتها بأحاديثه مع اثنين من المشتركين :

بدأ اطلاق النار بعد مقتل كلب كان يخص ضيف زعيم عبرسان ، اذ رفض أية القاسم أن يدفع الفدية النقدية (٥٠ دورو) المطلوبة • وقتل اثنا عشر رجلا في المعركة في اليوم الاول ؛ وانضم لكل طرف حلفاؤه وسرعان ما انتشرت الضغينة الى سائر الجماعات المتلاحمة في ابن حازم وأية عمار والحميد • وفي السنوات التالية قتل ٤٠ رجلا من طرف واحد و ٦٢ رجلا من الطرف الآخر ، وذلك في المعارك المتلاحمة وحدها • ولا يشمل هذا الرقم الاعداد الاكبر لاولئك الذين لاقوا حتفهم في الكمائن أو تسمما بالزرنيخ الذي يبيعه التجار في الحسيمة • وقررت الجماعة المغلوبة أخيرا أن تغادر البلاد ، ولم تخلف وراءها الا الشيوخ والنساء والاطفال الذين التجأوا الى جبل زارهون المقدس (حيث مدفن مولاي ادريس أول سلطان لمراكش) ، بعدما باعوا كل ملكيتهم كيما يحاولون استئجار رجل ينتقم لموتاهم • ودرست

خطة الثأر بكل عناية ، ووضع العديل الشروط التالية : ١٠٠٠٠ ريال (وهو التسمية الحديثة للدورو) اذا قتلت الرصاصة عدواً ؛ ٥٠٠٠ ريال اذا جرحته ؛ و ٢٥٠٠ ريال اذا أخطأت هدفها • وعلى أية حال ، فقد كان الرجل المأجور يوجد عادة في الغداة مطروحا ورصاصة في رأسه مصدرها على الاغلب براعة صبي صغير كان يختبيء خلف أجمة كثيفة •

وكي أقدم مزيدا من البينات عن الحدود التي اعتاد قوم أية ورياغل الذهاب اليها كي يقضوا على اعدائهم ، فقد أخبرني أحد الرواة أن امرءاً أهان أباه ذات مرة • ولم يطق الاب الاهانة ، وهو أمغار أو كبير ذائع الصيت في قريته الخاصة (آية موسى والعمار من آية علي) ، فوعـــد الاخماس(١) بجلابية جديدة ومبلغ كبير من المال اذا قضى على الشخص الذي أهانه • وخرج الاخماس لينجز المهمة الموكولة اليه من قبل سيده ، لكن يبدو أنه غير فكره في موضع ما من سفره ، اذ قرر أنه ليس ثمة خصام بينه شخصياً وبين الطرف الآخر ، بحيث لم يكن هناك سبب يدعوه الى قتله • لكنه حين عاد الى داره أعلن أنه قتل الرجل ورجع دون أن تكتشف هويته ، طامعا في الحصول على مكافأة دسمة • وسرعـان ما عرف الأمغـار الحقيقة فسجن الاخماس طوال ثلاثة أيام دون طعام أو شراب ، ومن بعد أرسله الى العمل بعدما قطع أذنيه •

ويقول هارت ان الضغائن كانت منتشرة بحيث أن القتال من بيت الى بيت كان في جدول الاعمال دائما • واذا ما استمرت عملية الاخذ بالثأر طويلا ، فان أعضـاء الذراري والعشائر الأخرى كانوا يأخذون في نهاية الأمر بالتجمع حول هذا الطرف أو ذاك من المتقاتلين ، وعادة مع ذلك الطرف الذي له صلة رحمية أقرب اليهم ، أو الطرف الذي يرتبطون به بروابط حربية • ويستطرد هارت قائلا :

اذا ما وجد أعضاء أحد الالياف(٢) أو الافخاذ أنفسهم بصورة تدريجية في الطرف الخاسر ، فان ممثليهم يقودون عادة ثورا الى جامع قرية حيادية يرغبون في عونها ، ويذبحه الفقيه على الاسـكفة بحيث ينبجس دمـه على

---

(١) الفلاح الذي يشتغل في أرضه لقاء خمس المحصول (المترجم) •
(٢) جمع ليف ، وهو نمط التحالف في الريف •

العتبة • أما أن ثورا كان يضحى به كلما كان ذلك ممكنا ، فتلك واقعة ذات مغزى بحد ذاتها ، لان بني ورياغل كانوا فقراء جدا ، ونباتيين حتى درجة بعيدة تحت ضغط الظروف؛ وكان الثور أغلى حيوان صالح للاكل يستطيعون شراءه • وكانت عملية التضحية تقوم بدور التهديد بالعار ، ويضطر أعضاء الفريق الثاني للتحالف مع الفريق الاول ، سواء أكانوا راغبين في هـــذا التحالف أم لا • وكان هذا النمط من التحالف يسمى ليفاً ، وبقدر ما كانت الضغينة تنمو كان الليف ينمو هو الآخر • واذا بقيت الضغينة محصورة ، فان التحالف يتجدد عادة عند الانتهاء منه ، لكنها اذا انتشرت كفاية بحيث تشمل « خماسيات » كاملة ، فــان الانحياز الليفــي التقليــدي للفخذين المتعارضين أية يوسف وأية علي يعود الى ممارسة فعله من جــديد • ان الاستخدام الحاذق لهذا النظام من التحالفات الذي طبقه عبد الكريم خلال القسم الاول من حربه قد كان أحد الاسباب الرئيسية في النجاح الذي حققه في توحيد الريف •

وكانت الضغائن محصورة حتى درجة واسعة ضمن كل قبيلة ، هذه القبيلة التي تهجع وحدتها في الأوقات الطبيعية ولا تبرز الا حين يلوح خطر القوى الخارجية ، حين يمكن تنظيم القبيلة بأكملها اذن من أجل صد الغزاة • مثال ذلك أن محاربي بني ورياغل قد تكتلوا ليعملوا متضامنين عام ١٩٠٩ من أجل مقاومة روغي ، بو حماره ، المطالب بالعرش المراكشي ، الذي غزا الريف • ولقد هزموه في ساحة القتال وأوقفوا زحفه • لم تتقاتل قتالا واسعا فيما يبدو في الازمان الحديثة • كانت كل قبيلة تعيش في منطقتها الخاصة ، منفصلة عن جيرانها ومنطوية على الريبة فيهم ، وكان الحكم داخل كل قبيلة مائعاً جدا ، اذ كانت كل جماعة تعنى بشؤونها الخاصة ، اللهم الا حين تستدعي الضرورة تشكيل تحالفات محلية وقائية مقصورة عليهــا • كان ذلك نظــاما من الديموقراطية البدائية ، يجاور الفوضى ، وقد قلبه عبد الكريم بصورة ثورية بقوة الاقناع وحدها •

وكان مركز النساء في الريف أدنى كثيراً من الرجال ، على الرغم من سفورهن • ويقول هارت ان تباعد البيوت ، وســياج الصبار النامي حوالي كل بيت ، قــد كانا مقصودين في الأصل من أجل الحفاظ على نساء المنزل في عزلة وتحت سيطرة الرجل • كان العزل الجنسي شديد الحــدة ، بحيث لم تكن النساء يختلطن بالرجــال في أيــة

مناسبة على الاطلاق • وعلى الرغم من أن نقد العروس كان مطلوباً ، فقد كان الشريكان ينتقيان وكان الزواج يتم حين يبلغ الصبي السادسة عشرة والفتاة الرابعة عشرة• ومهما يكن من شيء ، فقد كان مقياس وحيد للأخلاق هو السائد • ان الزوج ، من دون الزوجة، اذا ما ضبط قرينته في حالة زنا فعلي ، يملك الحق في قتل عشيقها ، فيقطع أعضاءه التناسلية ويحشو بها فم الجثة • وانه ليعفى اذن من دفع الفدية • وكانت حالة الزوجة الضالة أفضل قليلا ، فالزوج يملك الحق في قتلها أو تشويهها • ويورد كون حالة عمد الزوج الثائر فيها الى دفع جمرات لاهبة في مهبل زوجته واطلاق سراحها • لكن الطلاق كان يعتبر في بعض الأحيان عقاباً كافياً ، وما كان يسمح للزوجة المطلقة بالزواج مجدداً•

ويورد هارت حالة وقعت أثناء الاحتلال الاسباني بين ١٩٢٦ و ١٩٥٦ ، حيث قتل أحد أفراد قبيلة بني ورياغل عشيق زوجته بفأس • ولقد اعتبر أن هذا العمل أمر طبيعي من جانبه ، ولم يحكم عليه الا بالسجن لمدة ستة أشهر كعقوبة رمزية • ويقول هارت ان جرائم القتل بسبب الزنا لاتبرح تحدث اليوم ، لكن أقل من ذي قبل ، وذلك بدافع الخوف من السلطات ••

ولعل الضغائن الدموية قد أسهمت في الأزمان القديمة جداً في ايجاد الأسواق النسائية التي يمنع عنها جميع الذكور من فوق العاشرة ، وهي الاسواق المقتصرة حاليا على بني ورياغل • ولعل هذه الاسواق قد انشئت من أجل توفير الامكانيات لاستمرار التجارة والمقايضة حين يكون الرجال منصرفين الى الأخذ بالثأر فهم عاجزون عملياً عن حضور الأسواق العادية التي تقام كل أسبوع في أماكن متعددة ، وكل سوق منها تسمى باسم اليوم الذي تفتح فيه • ولقد كانت هذه الأسواق تقام في أماكن يستطيع القبليون أن يجتمعوا فيها ويتاجروا ويعودوا الى بيوتهم في يوم واحد ، وهي تكون في هذه الاماكن ، نظريا ، في حمى من الضغائن •

وكان يوم السوق يعتبر يوم سلام ، وكان انتهاك السلام يعتبر جريمة نكراء • ولقد كتب هارت الي يقول :

> بخصوص جريمة اقترفت في السوق ، اذا تركنا جانبا كل ما يتعلق بالفدية ، فانه اذا اطلق زيد النار على عمرو في السوق ترتب عليه أن يدفع جزية ٢٠٠٠ دورو ، وهي تسمى **الحق** ، لاعضاء مجالس العشائر التي يخصها السوق ، وهم يتقاسمون هذه الجزية بصورة متساوية فيما بينهم •

واذا أطلق زيد النار على عمرو في أحد الدروب المؤدية الى السوق ، فان الجزية تكون ١٠٠٠ دورو • وان العجز عن الدفع يستدعي انتقاما فوريا من جانب أعضاء المجالس الذين يمشون جماعة واحدة الى منزل القاتل ، ويحرقونه ، ويقتطعون كرومه ، ويصادرون قوته • ويكون القاتل في هذه الاثناء قد أصبح في المنفى عند عشيرة أو قبيلة أخرى ، وذلك تفاديا للانتقام من جانب أقارب ضحيته •

ويعتقد هارت أن السبب المنطقي الذي استدعى قيام اسواق النساء ليس الضغينة الدموية ، بل بالاحرى الانفصال الشديد القائم بين الجنسين وهي صفة بدائية للنظام الاجتماعي الاسلامي ازدادت حدة بصورة مخصوصة في الريف • لقد كانت الاسواق النسائية ملحقة بالأسواق الرجالية التي لم تكن النساء يقبلن فيها مطلقاً قبل عام ١٩٢٦• ومهما يكن من شيء ، كما يقول هارت ، فان « النساء الوحيدات اللاتي يشاهدهن المرء في أسواق الرجال اليوم هن فقيرات أو طاعنات في السن ، بل انه لم يكن يعتبر من المستحسن بالنسبة الى امرأة شابة ، متزوجة أو عزباء ، من « عائلة جيدة » أن تقصد حتى أسواق النساء • وتكون الصيصان والبيض ملكية المرأة وحدها ، لكن هارت يشير الى أن أسواق النساء « كانت أيضاً على الدوام مسرحاً للصفقات التجارية السرية : بيع مناقيع الحب ، والسموم ، الخ •• وكان الرجال ، الذين كانوا يعرفون الشيء القليل جداً عما يجري هناك ، يبدون دائما من الريبة قدر ما تخفي النساء من السر » •

وكانت الأسواق تخدم ، ولما تبرح ، من أجل مبادلة المنتجات المحلية، من حيوانات، وحبوب ، وخضار ، وثمار ، وبيض ، وزبدة ، وطيور داجنة ، ولحوم ، وألبان ، وجلود مدبوغة ، وأصواف ، وملح ، ومن أجل بيع الأدوات ، والبسط المصنوعة في البيت ، والحصر ، والاواني الفخارية ، وتلك الصنادل المجدولة من نبات الحلفاء التي اشتهر الريف الأوسط بها • وكان الباعة الجوالون يجلبون منتجات مستوردة من الخارج ، كالسكر والشاي والصابون والتوابل والحنة والكبريت والشموع والمسامير والخيوط والآنية الزجاجية وأثواب من الاقمشة البراقة الالوان •

وكانت كل سوق ، كما رأيت بأم عيني ، خلية من النشاط • وفي أحدى الاسواق التي زرتها في الأرض القبلية الخاصة بتمسمان ، وهي السوق الكبرى في الريف

الاوسط ، كان ٥٠٠٠ نسمة قد تجمعوا من منطقة كان يتراءى للوهلة الاولى أنها فقيرة جداً بالسكان بحيث يكون من بواعث الدهشة أن يخرج منها ٥٠٠ نسمة ، بينما هي تملك احدى الكثافات العليا للسكان في مراكش الريفية ، اذ كانت تعد ١٥٧ نسمة في الكيلو متر المربع الواحد عام ١٩٦٠ • كان أهل الريف يتلاقون من مسافة أميال عديدة، يسلكون دوربا تكاد لا تبين للعين ، تتلوى مع المنحدرات الجبلية وعبر الوديان ، وكل رجل يركب حماراً صغيراً ، والكثيرون يحتمون من الشمس المحرقة تحت مظلات مهلهلة قد أكل الدهر عليها وشرب •

وراقبت داخل حدود الباحة المسورة في الهواء الطلق حدادين يهوون بمطارقهم على السندانات ، وجزارين يذبحون الماشية ، ويقطعون اللحم ويعلقونه ، ونساء ينسجن على الأنوال الجلابيات التي تشكل الثياب الصوفية القاسية النموذجية لأهل الريف ، وحيزبونات يبعن حجب الحب والتعاويذ ، وجماعات من الرجال يجلسون القرفصاء حول فسحة من الأرض يحتسون أكواباً من الشاي الحار المحلي ، يلوحون بأيديهم ويتناقشون ، وقاضياً يقضي في حالة ارث متنازع عليه ، ووسيطاً يكتب رسالة لزبون أمي ، وراوياً يحكي خرافات قديمة ، وجماعات لاتحصى من الرجال والنساء يصطخبون في حركة متنوعة لا تهدأ • وكانت هذه الأسواق في الأزمان القديمة توفر لأهل الريف فرصاً من أجل الحديث الاجتماعي والنقاش السياسي ، مترافقة بأصابع تنقر على زناد البنادق ، وهي أشياء قد عفا الزمن عليها في الوقت الحاضر • ومهما يكن من شيء ، فان جرائم القتل المقترفة فوق أرض اجتماع مشترك كانت تعتبر جرائم كريهة بصورة مخصوصة ، اذ هي تعكر صفو السلام القبلي ، وكانت تعاقب بأحكام قاسية ، مثلها في ذلك مثل الجرائم المقترفة في أيام الأعياد الاسلامية أو خلال شهر رمضان •

وفي أيام عبد الكريم كانت الجلابية ، وهي المعطف الصوفي ذو الاكمام والقلنسوة الذي يرتديه الرجال ، تصنع من صوف مغزول في المنزل ، بني اللون، بحيث يسبغ عليها تلوناً واقياً ، ولم تكن تبلغ سوى الركبتين • أما اليوم فقد أصبحت أطول من ذلك ، وهي تكاد تبلغ العقبين • ولقد استعيض عن العمامة الصوفية القديمة بعمامة قطنية بيضاء بين الشيوخ والطربوش بين الموظفين الرسميين والشباب الذين كان لبس الطربوش بالنسبة اليهم علامة المنزلة الرفيعة ودلالة على التكلف الحديث الذي يتغلغل في الريف • ولقد أصبح البنطال أكثر سعة في الوقت الحاضر ، كما أن الصندل المجدول

من الحلباء قد كان القطعة المميزة الوحيدة من الزي الريفي التي قاومت تقـدم الزمن طويلا ؛ ولقد اختفت حتى هذه الصنادل حالياً • ولم تتبدل ثياب النساء الا قليلا منذ عام ١٩٢٦ • فهن يلبسن عصابة حريرية حول الرأس ، معقودة من الخلف ، ووشاحاً يترامى على الكتفين ، فوق الثوب القطني أو الصوفي الذي لايخفي الا بصورة جزئيـة السروال الازرق الذي يصل حتى القـدمين العاريتين على العمـوم ، الامر الـذي لـم يعد القاعدة العمومية في الوقت الحاضر • وكان حزام صوفي ثقيل يكمل هذا الزي عادة•

أما الصبية الريفيون ، الذين كان علمهم يقتصر على حفظ القرآن عن ظهر قلب . فانهم يحصلون على ثقافة أوسع حالياً ، وذلك بفضل التغييرات الثورية التي أدخلها عبد الكريم • وفي الأيام القديمة كانت كل جماعية تعين معلماً هو الفقيه تدفع له كل أسرة أجره سنوياً ، وكانت كل عشيرة تساهم في سوق تعين قاضياً يساعده كاتبان بالعدل • وكانوا يحكمون في القضايا المدنية فقط ، المتعلقة بمشاكل الأرض والمياه ، والزواج والطلاق • وكانوا يتناولون أجرهم من العشائر ، وكل عشيرة تقدم مساهمة سنوية تتألف من بقرة ، وست عنزات ، وبعض المنتجات الزراعية التي كان ينتظر من القاضي أن يوفر بها الضيافة لزبائنه •

اما من وجهة نظر الدين ، فقد كان أهل الريف مسلمين متزمتين ، يصلون بتقوى في الاوقات المحددة مع الآذان • كان الريفيون يعتبرون أنفسهم مسلمين صالحين جدا ، وهم كذلك على وجه الدقة في تطبيق مظاهر الدين الخارجية كما يؤكد هارت الـذي يشكك في قيمة الأحكام التي وضعها ولتر هاريس ، هذه الأحكام التي هي « نموذجية للباحثين قبل نصف قرن من الزمان » على حد تعبيره • ولقد وجدت أن الريفيين الأفضل ثقافة ، عام ١٩٦٤ ، لم يتأثروا الا قليلا بمذهب الشك المعاصر ، كما أن عبد الكريم كان مؤمناً ، لكنه لم يكن مسلماً متعصباً في حال من الأحوال •

ان المسافر المعاصر في الريف (ولعل ارتباطي بعبد الكريم قد جعلني شخصاً ذا حظوة) يعامل بذلك اللطف الذي لم يعد له وجود في أوروبا • ان الاجنبي يعامل على اعتباره ضيفاً يجب أن يكون موضع الحفاوة والحماية • وان ضابط شرطة عالي الرتبة تحدثت معه باللغة الانكليزية قد أكد لي أنه لن تساوره أية مخاوف اذا ما عبرت الريف لوحدي طولا وعرضاً ، في النهار أو في الليل ، ولشد ما كانت دهشته عظيمة حين عرف أنه لن تكون لي مثل هذه الثقة في بلدي الخاص • ان البريطانيين أصحاب شعبية في

الريف ، كما هو الأمر بالنسبة اليهم في أماكن عديدة من أفريقيا الشمالية كما تبين لي • وما أكثر ما قيل لي : « لقد أعطيتم مستعمراتكم حريتها دون أن تجبروا على ذلك اجباراً » •

ولقد كان أهل الريف ، أيام عبد الكريم ، أناساً قساة ، بدائيين ، يرتابون في الغرباء ، ويعارضون التغيير ، ويتمسكون باستقلالهم بحزم كبير ؛ ولقد كانوا أصحاب وقار وجد ، يعتمدون على الذات ، ومن صفاتهم العنف والشجاعة والشرف • ويجدهم هارت ميالين الى النزعة الفردية ، ولوعين بالخصام والمشاكسة ، « ديموقراطيين حتى درجة الفوضوية على وجه التقريب » • ولقد كانوا ولا يزالون نزوعين الى العنف ، وقد أنشىء كل رجل منهم ، منذ نعومة أظفاره ، على الاعتقاد بأن وصمة عار على شرف الأسرة لايمكن أن تغسل الا بالدم ، ويقول هارت ان القيم اللاصقة بالضغينة الدموية قد انتقلت اليوم حتى درجة بعيدة الى قيم هجرة العمل ، وأن الشباب يطمح حالياً الى الذهاب الى اوروبا الغربية للحصول على العمل ، وذلك اثباتاً لكفاءته • ولقد كان امتلاك بندقية حديثة هو مطمح كل صبي عام ١٩٢٠ ، اذ كان ذلك رمزاً للرجولة ، مثل امتلاك السيارة بالنسبة الى انسان الغرب • ان الفتى الريفي البالغ السادسة عشرة من العمر ينطلق ، حالما يقتصد ما يكفي من المال ، الى مدينة اسبانية يستطيع فيها أن يبتاع بكل سهولة بندقية مسروقة من المستودعات العسكرية ، ويشتري مقدارا قليلا من الذخيرة — مقداراً ضئيلا جداً بحيث تجبره ضآلته أن يتعلم سراعاً كيف يصبح رامياً ماهراً • ان ذلك هو حظه الوحيد في البقاء في عالم تسوده الضغينة الدموية ، هذه المؤسسة التي كانت تقصر « حريات الريفيين الخمس » على الحق في الخصام ، وفي الحقد ، وفي الخوف، وفي القتل ، وفي الموت • وكان أهل الريف يكرهون في الدرجة الأولى الاسبانيين ، هذا الجنس الذي كانوا يشركونه مع التعصب الديني الأعمى ، والاضطهاد ، والوحشية •



كانت المطامع الاسبانية في مراكش قديمة وجشعة • فقد احتل الاسبانيون مليلا عام ١٤٩٦ واستولوا على جزيرة باديس ، على ساحل الريف الأوسط ، عام ١٥٠٨ ، كما انتزعوا سبتة من البرتغاليين وشيدوا قلعة في الجزيرة تشرف على خليج الحسيمة• لقد وضعوا أقدامهم على عتبة الباب ، لكنهم لم ينجحوا قط في توسيع موطىء أقدامهم الضيق : لقد شغل الاسبانيون كثيرا طوال اربعمائة سنة عبـــر الاطلسي وفي المحيط الهادىء في كسب مستعمرات كبيرة ، كما انهمكوا في القرن التاسع عشر في الدفاع عن امبراطوريتهم المترنحة بينما هي تفلت من قبضتهم • ولقد فقدت الممتلكات الاسبانية الاخيرة عبر المحيط عام ١٨٩٩ •

وبادىء الأمر ، عام ١٩٠٤ ، حين اقترح الفرنسيون عليهـم أن يسـتولوا عـلى المنطقة الشمالية من مراكش ، قابل الاسبانيون هذا الاقتراح بالفتور ؛ ذلك أنهم كانوا راغبين ، بعد الهزيمة المذلة التي منوا بها عام ١٨٩٩ على يد الأميركيين ، عن الاقـدام على مغامرة استعمارية جديدة • ان الحرب الاسبانية الاميركية المشؤومة قـد كشفت النقاب عن فساد وعجز مروعين : خرطوش معبأ بنشارة الخشب ، وأسلحة فاسدة ، ومستودعات فارغة • وكان رد الفعل حيال هذه التظاهرات للعجز الوطني هو تلك اللامبالاة الاسبانية النموذجية ، ولم يصنع شيء من أجل معالجة الفضائح التي أدت اليها•

وأقدمت مؤسستان قويتان على العمل من أجل التغلب على هذه المقاومة الوطنية المؤسية ضد تجدد الامبريالية الاسبانية • فقد رحب الجيش بالفرصـة المتـوفرة في مراكش ، اذ هي تقدم له وسيلة من أجل افتداء نفوذه الضائع وبديلا عن الاقامة الموحشة في مدن الحاميات الاسبانية • أضف الى ذلك ان حملة في بلاد أجنبيـة توفـر فرصـاً لاتضاهى من أجل تجميع الثروة والحصول على الترفيع والمجد • ولقد أيدت الكنيسة

أيضاً توسع المصالح الاسبانية في أفريقيا حيث استحثت الملكة ايزابيلا الكاثولية الكهنة على حمل الايمان الحقيقي والتبشير به ·

وتضافر العسكريون والكهنة والقوميون المتحمسون على توجيه الرأي العام في منحى قبول العرض الفرنسي بخصوص تقاسم الغنائم في مراكش · والقيت تلميحات خفية عن مشاريع رابحة في آذان رجال الأعمال ومتعهدي الجيش ، فقد نشرت الاشاعات القائلة ان جبال الريف غنية بالفلزات ، وقيل للشعب ان أيام التوسع الاسباني العظمى لم تنته بعد · ان في مقدور اسبانيا أن تنهض من جديد · أما المستعمرات الواقعة ما وراء الاطلسي وفي المحيط الهادي فانما فقدت لانها كانت نائية جدا بحيث لا يمكن الدفاع عنها ، بينما تقع مراكش على عتبة اسبانيا ، تحت أنظار سواحلها على وجه التقريب ، ولا تكاد تبعد أكثر من سفر يوم واحد في البحر · وهنالك يكمن خطر العطالة كما راح العسكريون يزعمون ، اذ أن احتلال الساحل المراكشي من قبل دولة أجنبية يمكن أن يهدد أمن اسبانيا وسلامتها ·

وكان الواقعيون والثوريون الوحيدين الذين رفعوا أصواتهم يعارضون مغامرة قدروا بأنها يمكن أن تصبح مصدر ضعف لاسبانيا · لقد تنبأوا بأن مراكش ستصبح مقبرة عسكرية كبيرة · وظلت الجماهير الاسبانية لامبالية · وهكذا قبل العرض الفرنسي ، وانقضت سبع سنوات كاملة قبل أن تصبح مراكش ناضجة من أجل الغزو·

وكان أهل الريف قد قدموا للاسبانيين عام ١٨٩٣ مذاقاً عن المصاعب التي يمكن أن يصادفوها · فقد قرر حاكم مليلا أن يشيد قلعة على بعد ألف ياردة من حدود المدينة الخارجية ، واختار لذلك موقعاً قريباً من مدفن أحد الأولياء الريفيين ، مظهراً بذلك تلك اللامبالاة الاسبانية النموذجية بمشاعر المولدين · وعلى الرغم من أن رجال القبائل المحليين احتجوا على هذا التدنيس للحرم ، فقد أصر الحاكم على مشروعه · وهاجم أهل الريف القلعة التي لم تكتمل بعد ، فاضطر الحاكم الى اخلاء الحامية التي تدافع عنها ، وفقد عشرين رجلا خلال الانسحاب عبر السهل الحجري · وأحرق الريفيون القلعة · وكان رد الفعل في اسبانيا انتهازياً بصورة متوحشة ، ذلك أن الكبرياء الوطنية لم تكن قد استكانت بعد من جراء الهزيمة في كوبا · وأرسل الجنرال مارتينيز كامبوس على رأس جيش مؤلف من ٢٠٠٠ رجل كي ينقذ السمعة الاسبانية · وخرج من مليلا ، وطهر الارض من الرماة الريفيين ، وأعاد بناء القلعة · واستقبلت انباء النصر العظيم في

اسبانيا بصخب هائل ، ونودي بكامبوس بطلا قوميا • وكان سقوطه يضارع صعوده في السرعة • فقد عمد ضابط مخابرات يدعى ريبرا ، كي يعاقب جاسوساً مولداً لم يقم بواجبه ، الى قطع أذنيه معاً • وحين بلغ كامبوس خبر هذا العمل الوحشي ، دعا مجلساً حربيا حكم على الضابط بالموت • ووافق كامبوس على الحكم ، فأعدم ريبرا رميا بالرصاص • عندئذ جن جنون اسبانيا غضبا واستنكارا ، اذ لم يستطع الاسبانيون ان يفهموا السبب في أن يكون الموت جزاء لمثل تلك العقوبة المبتذلة • ولم يستعد كامبوس قسماً من شهرته الا حين حصل على تعويض هائل من السلطان لقاء ما اقترفته رعيته في الريف من مساوىء ، وعلى حق النقض الاسباني لتعيين القضاة في القبائل الريفية • وتميزت الحملة القصيرة بحادث آخر كتمت قصته حتى كشف النقاب عنها عام ١٩٣١ من قبل اشتراكي يدعى سيجس أباريكو أعدم عام ١٩٣٦ رمياً بالرصاص بالضبط لأنه رواها • ان ملازما اسبانيا شابا قد جن غضبا حين علم أن العدو يقاتل ببنادق اسبانية باعها الجنرال مارغالو ، قائد مليلا ، الى رجال القبائل ، بحيث تناول مسدسه وأردى رئيسه قتيلا على الفور • وكان الملازم يدعى ميغيل بريمو دي ريفيرا •

وجاء حادث مضحك فرجح بالحساسية الاسبانية المتقلبة في مصلحة المراكشيين المكروهين • ذلك ان السلطان الشاب عبد العزيز ارسل بعثة الى مدريد لتعلن عن تسنمه السلطة ، وحل اليوم الذي سيقدم فيه السفير أوراق اعتماده الى صاحبة الجلالة الكاثولية جدا • وقد شرفت الملكة الوصية السفير المراكشي بكل أبهة بروتوكول الدولة • ان عربة الدولة الفخمة ، الموشاة بالذهب والمطلية باللك ، وهي من بقايا عصر لويس الرابع عشر في فرنسا ، تنتظر عند باب فندقه ، وستة جياد مزينة بالريش تقف على استعداد لنقله الى القصر الملكي ، يمتطي كلا منها حوذي يرتدي ثيابا زاهية • وكان عدد من المشاة المكسوين ببزات من طراز القرن الثامن عشر ، تكملها الشعور المستعارة والقبعات الملتوية ، يقفون على جانبي المركبة • وحين خطا السفير في الشارع قدمت له ثلة من حرس الشرف التحية بالسلاح • بيد أن أحد المارة ، وكانت رتبته عقيداً في الجيش ، اندفع عبر الطوق وطرح السفير أرضاً • ولقد صدم هذا الاخلال الذي لا مبرر له بآداب اللباقة الشعب الاسباني ، وأعيد السفير الى بلاده في سفينة حربية هيئت على عجل وأنزلت الى البحر في حالة غير صالحة ، بحيث اختفت ولم تترك أثراً وراءها •

وسرعان ما وقع الاسبانيون في المتاعب في القسم الغربي من منطقتهم حيث أصبح زعيم عصابة من اللصوص يدعى ريسولي شوكة في خاصرتهم • ويتطلب ريسولي أكثر

من اشارة قصيرة لأنه كان على قيد الحياة بعد في زمن عبد الكريم ، وقد اصطدم الرجلان في آخر الأمر · وفي عام ١٩٠٤ ، كان ريسولي ، وهو عربي قح ، قد ألقى الرعب في منطقة الجبالا جنوبي طنجة طوال سنوات · وقد رويت قصته من قبل روزيتا فوربيس التي زارته عام ١٩٢٠ ، وكذلك من قبل ولتر هاريس الذي سنحت له فرصة لا تضاهى من أجل جمع المعلومات الأساسية عنه ·

ويقول هاريس ان ريسولي كان من الاشراف ، من ذرية الرسول ، وأن سلالته قديمة وذات قدسية مخصوصة · وكان قبر جده ، مولاي عبد السلام بن ماشيش ، في الأرض القبلية التابعة لبني دروب ، هو المكان الأقدس في مراكش شمالي فاس ، وكان الحجاج يقصدونه باستمرار وبكل ورع · ولقد درس ريسولي في شبابه اللاهوت والقانون في تطوان ، لكن طبيعته التواقة الى المغامرة والمتحلية بالجرأة والشجاعة كانت تحن الى مهنة أشد اثارة · ولقد جمع عصبة من الشباب ، واستسلم لحياة المغامرة والتبذير التي كان يوفر لها المصروف من سرقة الماشية ، وهي حرفة معترف بها تتحكم فيها مجموعة مخصوصة من قوانين اللياقة · ذلك أن الماشية المسروقة ليلا تعرض على صاحبها في الغداة لاستردادها لقاء مبلغ هو دون قيمتها كثيراً في السوق · وكان من الأفضل للرجل المسروق أنْ يدفع من أن يفقد ماشيته ، وكانت الصفقة تتم بواسطة صديق مشترك بين الطرفين يتناول عمولة منهما جميعاً ·

وأدت أعمال النهب التي كان ريسولي يمارسها الى رفع الشكاوى ضده الى الحكومة المراكشية ؛ وحين ألقي القبض عليه بفضل الوشاية زج في سجن موقدور ، لكنه أفلح في الهرب منه · وحين ألقي القبض عليه من جديد قيد بالسلاسل الى جدار زنزانته التي ظل أسيرا فيها سنوات طوالا حتى أطلق سراحه السلطان الجديد عبد العزيز بعد ارتقائه سدة السلطة عام ١٨٩٤ · ورجع ريسولي الى حصنه الجبلي ، تفعم المعاملة التي لقيها قلبه مرارة ، وحزم أمره على الانتقام من الرجال الذين تسببوا في آلامه التي كانت ندباتها ، الباقية على معصميه وعقبيه ، تشكل ذكرى دائمة لا تمحى ، وبذلك أصبح غدارا قاسيا · ويستشهد هاريس على أخلاق ريسولي المتقلبة بقصتين · ان شريفا تزوج من شقيقة ريسولي أعلن عن عزمه على اتخاذ زوجة ثانية ، فاستنجدت الزوجة الاولى بأخيها · واقتحم ريسولي ورجاله ، ليلة العرس ، بيت الشريف وذبحوا العروس الجديدة بينما كانت تجلس على الأسكي في لباس العرس تنتظر دخول زوجها · وفي

مناسبة أخرى اشترى ريسولي زعيماً منافساً له كان قد اختطفه زعيم آخر واحتفظ به لقاء فدية ، وقطع رأسه على عتبة داره الخاصة ٠

واستدعت أعمال ريسولي جيشاً من فاس لاعتقال هذا المفسد للملكية القبلية واحراق معقله الجبلي في زينت ٠ ورافق ولتر هاريس هذه الحملة التأديبية بصفته الرسمية كمراسل لجريدة التايمس ، فنصب له ألفان من رجال القبائل في الجبالا كميناً وأخذوه أسيراً الى زينت حيث بقي في الأسر لمدة ثلاثة أسابيع ٠ ولقد طلب ريسولي من السلطان لقاء عودته سالما اطلاق سراح بعض الاسرى من الجبالا وانسحاب الحملة التأديبية، فكان له ما أراد ٠

وفي السنة التالية ، ١٩٠٧ ، قام ريسولي بعملية اختطاف أكثر جرأة ، اذ اختطف رجلين مشهورين من رجال الاعمال الاميركيين ، ايون بيرديكاريس وصهره فارلي ، المقيمين في طنجة ، وكانا قد غادرا المدينة في رحلة للصيد ٠ ولقد احتفظ رسولي بهما أسيرين في زينت ، مطالبا بفدية تبلغ ١٤٠٠٠ جنيه استرليني ، وتعيينه شخصيا باشا على قبائل جبالا ٠ وحين تردد السلطان في الرضوخ لهذه المطالب ، تدخل رئيس الولايات المتحدة تيودور روزفلت مطالبا « ببيرديكاريس حيا أو بريسولي ميتا » ٠ واضطر عبد العزيز الى قبول شروط ريسولي ٠ وبعدما دفعت الفدية وأطلق سراح الأسيرين ، أرسل عبد العزيز جيشاً لمعاقبة اللص ٠ لكن ريسولي هرب الى الجبال حيث زاره مستشار السلطان البريطاني المولد السير هاري ماك لين الذي دخل مع الشريف الصاخب في جدال عنيف ٠ وحين نهض ماك لين ليغادر المكان ، وجد نفسه أسيراً ٠ ولقد احتفظ به ريسولي أسيرا طوال سبعة أشهر حتى افتدى بمبلغ ٢٠٠٠٠ جنيه استرليني ٠

واندلعت الحرب الأهلية في مراكش عام ١٩٠٨ ، وسرعان ما انتفع ريسولي منها أيما انتفاع ٠ ولقد اضطر عبد العزيز الى التنازل عن العرش لصالح أخيه ، مولاي حفيد، الذي دعمه ريسولي ٠ وهكذا عين باشا على قبائل الجبالا ، فرد بلطف مبلغ العشرين الف جنيه استرليني الذي ابتزه من سلف السلطان الجديد ٠

وسجل عام ١٩٠٨ البداية الحقيقية لاحتلال مراكش من قبل الفرنسيين الذين تذرعوا بالاضطرابات التي رافقت تنازل أحد السلاطين وتسنم سلطان آخر سدة الحكم مكانه ، ومقتل بعض الفرنسيين في هذه الأثناء ، فأنزلوا جيشاً في الدار البيضاء ، وطالبوا الاسبانيين بتنفيذ بنود المعاهدة « باعادة النظام » في الشمال ، وهو ما وفر الذريعة له

رجل يدعى بو حمره كان قد استقر في تازه ، الى الجنوب من الريف ، على اعتباره روغي ، أو المطالب بالعرش المراكشي • ولقد زعم كاذباً أنه أخو السلطان السابق ، معتمداً في تشخيصه على معرفته بأن عم عبد العزيز قد اختفى ، ويعتقد أنه متوار عن الأنظار • وجمع بو حمره عصابة من الناقمين وغزا الريف حيث هزم جيشه على يد بني ورياغل ، القبيلة التي كان عبد الكريم عضوا فيها وكان أبوه قاضيا لها • وحين علم كريم الاب أن بو حمره « باع » حقوق المناجم قرب مليلا الى الاسبانيين ، وهو مالا يحق له أن يفعله ، جمع جيشا وطرده من هناك • وتريث بو حمره في تازه حتى عام ١٩٠٩ ، حين اعتقله السلطان وعرضه داخل قفص في شوارع فاس ثم قتله رمياً بالرصاص ، وهي خاتمة رحيمة بصورة غير عادية بالنسبة الى ثائر مراكشي •

وكان لعصيان الروغي عاقبتان ، احداهما تافهة والأخرى هامة • فحين سعى عبد الكريم ، الذي كان في ذلك الحين طالبا في جامعة القيروان في فاس الى استنهاض الحكومة ضد بو حمره الذي اجتاح الريف ، أدهشه الوزير اذ طرح عليه هذا السؤال : « ما الذي يحدونا الى الاهتمام ببني ورياغل بينما هم يعيشون ما وراء البحر ؟ » — وهو سؤال يكشف النقاب عن جهل مذهل بالريف ويشير الى أن الحكومة لا تهتم مطلقاً بأهليه • أما العمل غير المشروع الذي أقدم عليه الروغي بمنحه حقوق التنقيب عن المناجم قرب مليلا فقد كانت له انعكاسات خطيرة ، لأن الاسبانيين رفضوا الاعتراف بأن هذا التخويل غير مشروع ، وباشروا التنقيب عن الحديد تحت جبل ويكش الذي كان غنياً بالفلزات ، مغطين تقدمهم بحجة أنهم يتصرفون على هذا الغرار دعما للمطلب الفرنسي بشأن تنفيذ بنود معاهدتهم •

وأدى هذا التعدي الأسباني على حدود الريف الى المتاعب • فقد قتل الرماة الريفيون عدداً من عمال المناجم ، فخرج الجنرال مارينا من مليلا لحمايتهم • وحين ردت قوته على أعقابها ، استنجد باسبانيا كي تعززه ، لكن مطلبه أثار معارضة عنيفة ، وراح المحرضون ينادون بأن الفتيان الاسبانيين يقتلون في سبيل حماية المصالح التجارية • وسرت الشائعات تقول أن مناجم مليلا يملكها اليسوعيون ، وتظاهر الثوريون في ملقة ليمنعوا الجنود الاحتياطيين الذين استدعوا الى الخدمة من ركوب البحر ، وقيل لهؤلاء العمال المتوسطي الأعمار ، الذين كانوا أفقر من أن يستطيعوا ابتياع الاعفاء من الخدمة العسكرية الاجبارية، أنهم «ضحايا طغيان مقيت»• وترتب العصيان على ذلك، واعلان القانون

العرفي • واندلعت نيران ثورة واسعة النطاق في برشلونه ، بؤرة المتاعب الاسبانية ، إذ هبت المدينة بأسرها ، وتمرد البرابرة الفتيان • وسيطر الرعاع على برشلونة طوال خمسة أيام ، من ٢١ الى ٢٦ تموز ، وأشعلت النيران في اثنتين وعشرين كنيسة وأربع وثلاثين ديرا • ووقعت مشاهد رهيبة ، اذ قتل بعض الرهبان ، ودنست بعض القبور ، وراح بعض العمال يرقصون في الشوارع على أشلاء جثث بعض الراهبات المستخرجة من قبورها • وأخيراً سقطت حكومة مورا اليمينية •

ان الواقعيين الذين تنبأوا بأن مراكش قد تصبح « مقبرة عسكرية كبيرة » قد صدقوا حين هزم رجال القبائل الريفيون خارج مليلا جيش الجنرال مارينا المؤلف من المجندين ، وقتلوا جنرالين يدعيان بنيتو وفيكاريو • وأثارت هذه الهزيمة المذهلة اسبانيا بأسرها • وراح الاسبانيون الذين ادركوا أن شرف الامة في الميزان يطالبون ، مظهرين بذلك تقلبهم المذهل ، بالانتقام من الريفيين العصاة • وركبت التعزيزات العسكرية البحر في ملقة في وسط الجماهير الصاخبة • وأقام الريفيون خارج مليلا كمينا لقافلة عسكرية وقتلوا عددا من حراسها قبل ان يطردهم هجوم مضاد جريء قاده بريمودي ريفيرا ، وقد اصبح برتبة عقيد حاليا ، وهو ضابط سيبرز فيما بعد في مناوشة أخرى •

وحين وصلت التعزيزات من اسبانيا ، عمد الجنرال مارينا الى الهجوم بجيش يعد ٤٠٠٠٠ رجل ، وتمكن من أن يهزم الريفيين في معركة ضارية في سهل مكشوف ، طاردا رجال القبائل الى جبالهم • وأرخى الاسبانيون من يقظتهم ، حاسبين أن الحملة قد انتهت • لكن عصابة من أهل الريف تسللت عائدة واستولت على موقع صغير ، وأخذت جنديا يدعى كابو لويس نوفال أسيرا • وعرض عليه الريفيون الابقاء على حياته اذا هو قادهم الى مدخل المعسكر ، مدعيا أنه أحد أفراد جماعة من الجنود الاسبانيين العائدين • ووافق نوفال على المكيدة ، لكنه حين وصلت الجماعة الى البوابة التي كانت تسيطر عليها رشاشات الحرس هتف نوفال بأعلى صوته : « افتحوا النار ، فنحن ريفيون » • وكان أول الساقطين تحت وابل الرصاص ، ونادت اسبانيا به بطلا فيما بعد •

ان هذا الشجار خارج مليلا قد كلف اسبانيا مائة مليون بيزو ، وقد وجد قسم

كبير من هذا المبلغ العملاق طريقه الى جيوب الضباط الذين نهبوا المخازن العسكرية ·
وأدى افتضاح الامر الى سقوط الحكومة في اسبانيا، وحين تبين للحكومة التي خلفتها أن الحرب في مراكش تكلف ٦٧ مليون بيزو كل عام ، أصدرت أمرها بايقاف التقدم من مليلا · ان الحملة قد علمت الاسبانيين أن الريفيين عدو لا يجوز احتقاره ، فهم شجعان ، ومقاتلون أكفاء لا يحتاجون الى وسائل نقل أو ادارة تموين · انهم أعداء مفزعون يكونون « اليوم هنا ويختفون في الغداة » ، وليس من يدري من أين يأتون وأين يذهبون · وان عبد الكريم ، الذي أصبح الآن محاميا شابا قدم ليمارس المهنة في مليلا ، قد تعلم هو الآخر درسا لا يقدر بثمن : لقد أدرك عبث المحاولة التي يبذلها رجال قبليون بدائيون لتحقيق النصر على جيش حديث في معارك ضارية ·

واندلعت الحرب الاهلية من جديد عام ١٩١٢ في مراكش ، فخلع مولاي حفيد ونودي بمولاي يوسف سلطانا · وانتهز الفرنسيون الفرصة كي يحتلوا فاس ويتغلغلوا في مراكش أكثر فأكثر · وأعلنت البلاد محمية فرنسية ، وشجع الاسبانيون على توسيع منطقة نفوذهم في القسم الشمالي من البلاد بمعاهدة جديدة أضفت الصفة الشرعية على مركزهم المعترف به مسبقا ، وبموجبها يتقاسمون الغنائم المراكشية مع فرنسا · وعين الجنرال ليوتيي مقيما عاما في مراكش الفرنسية ·

وفي أرض الجبالا كان ريسولي يراقب الاعتداءات الفرنسية الاسبانية باهتمام بالغ ، ولقد خاطب أحد الفرنسيين قائلا : « انه لمن الممكن أن يباركم أولادنا ، لكنه ليس ثمة عربي يتطلع الى ما وراء حياته الخاصة · ان الحضارة التي تحملونها الينا لاشبه بالخمرة التي تصعد الى رؤوس الرجال وتذهب بعقولهم · لن تستطيعوا ان تجعلوا منا أوروبيين صالحين ، وقد تصنعون منا عربا ارديا » ·

وأنزل الاسبانيون جيشا في العرائش على الساحل الاطلسي ؛ وكان بقيادة العقيد فيرنانديز سيلفستر ، وهو جندي متهور طائش اصطدم بريسولي حين تقدم الاسبانيون الى القصار وهددوا الرزيلة ، معقل ريسولي الرئيسي · وكان اللقاء الاول بين سيلفستر وريسولي وديا ، اذ عرض الاسباني هدايا تقبلها العربي بلطف · بيد أن ريسولي ، وهو الآن باشا قبائل الجبالا ، قد اعترض على خطة سيلفستر في عبور أراضيه القبلية ، وكانت معارضته الصارمة سببا في تخلي سيلفستر عن خطته المفضلة في الاحتلال السلمي للمنطقة الواسعة التي تمتد الى الجنوب الشرقي من طنجة وسبته ، وهو نصر كان يمكن

أن يرفع من سمعته في مدريد في حال تحقيقه دون سفك للدماء وبتكاليف ضئيلة • وبحث سيلفستر عن وسائل تمكنه من التغلب على زعيم عصابة اللصوص الذي يقطع عليه الطريق الى الشهرة والثروة • واستفسر بصورة خفية عن الثمن الذي يطلبه ريسولي ، فكان مطلب ريسولي هو تعيينه خليفة ، أي ممثل السلطان في المنطقة الاسبانية ، وهو مركز ينطوي على سلطة مستقلة تقريبا وعلى جميع مظاهر الملكية ، وسوف يجعله ، بعد السلطان نفسه ، صاحب المقام الارفع في مراكش كلها • ونقل سيلفستر الطلب الى مدريد، موصيا بصورة شخصية بهــذا التعيين في رسالة خاصــة الى الملك • لكن الحكومــة الاسبانية ، التي منحت حق النقض ، رفضت تعيين ريسولي خليفة • وكان الوسام الاسباني الرفيع الذي منحته الحكومة اياه تعويضا سيئا بالنسبة الى الزعيم الساخط •

وقاد ريسولي رجاله في حملة للسلب ، منتزعا الجزية عنوة من الناس الذين كانوا ينادون بالحماية الاسبانية ، فاضطر سيلفستر أن يرسل قوة لايقافه • وهزم رجال ريسولي على يد الاسبانيين في معركة حامية الوطيس ، فأسرع الزعيم الى طنجة ، يغلي استياء وغضبا ، يشكو أمره الى الوزير الاسباني ، وصاح مجادلا : « كيف يمكن لاسبانيا، حامية مراكش، أن تدمر قوات الدولة التي تحميها ؟ » وأيدت الحكومة الاسبانية ريسولي واستدعت سيلفستر الى مدريد لتبحث القضية معه ، وأمرته أن يعامل ريسولي بمزيد من الحرص والعناية • وعاد سيلفستر الى الوزيلة حيث انتهز فرصة غياب ريسولي كي يفتش زنزاناته ، كانت هذه الزنزانات ملأى بالسجناء المتضورين جوعا الذين عذبهم ريسولي طمعا في الحصول على الفدية منهم • ورجع سيلفستر بأفراد من أسرة ريسولي كرهائن لسلوكه الحسن • وحين علم ريسولي بزيارة سيلفستر واختطاف أسرته قفل راجعا الى طنجة مهددا بالانتقام • ويقول ولتر هاريس الذي شاهده ان ريسولي كان يعاني ألمًا كثيرا بنتيجة صحته الرديئة بعد سجنه الطويل في زنزانات موقدور • ولقــد وجده مراسل **التايمس** مستلقيا على قفاه فوق فراش واطىء ، وقدماه معلقتان في حبال متدلية من مسامير دقت في الجدار ، وهي ترفع رجليه المنتبجتين بضع بوصات فوق جسده • وكانت تلك الوضعية الوحيدة التي يحصل فيها على بعض الراحة •

واستدعى عمل سيلفستر التعسفي ردا عنيفا من مدريد ، فقد أمر باعادة الرهائن وبالتخلي عن منصبه كقائد للمنطقة • ان سيلفستر قد خذل في برازه مع زعيم الجبالا، وكان ذلك أمرا مخزيا بالنسبة الى ضابط الفرسان المتهور الذي كان يفاخر بمحنتــه أيما فخار •

كان لدى الحكومة الاسبانية أسباب جيدة تحفزها الى الرغبة في حياد ريسولي ، اذ أن الوزراء في مدريد قرروا أن الوقت قد حان من أجل تحقيق بعض التقدم من سبته • وفي شباط (فبراير) ١٩١٣ ، سار الجنرال أفرو على تطوان واحتلها ، وهي المدينة الرئيسية في شمال مراكش • وحين جعل الاسبانيون من تطوان عاصمة لهم ، فقد اقاموا فيها حكومة الحماية ، ورضوا شاكرين بابن عم السلطان ، مولاي المهدي ، خليفة للمنطقة الاسبانية • عندئذ جاء ريسولي بقوة كبيرة من رجاله الى ضواحي المدينة • كان الانضباط الاسباني رخوا داخل المدينة، وكان الجنود ينهبون الدور ويغتصبون النساء المراكشيات، الامر الذي أدى الى توهج الحقد والاستياء • واندلعت العصيانات ، فانتهز ريسولي الفرصة للهجوم ، ولم تمض أيام قليلة حتى كانت المنطقة بأسرها متأججة ، وتكبد الاسبانيون خسائر فادحة •

واستدعي الجنرال أفرو وجيء بالجنرال مارينا من مليلا بديلا عنه ، وأعيد سيلفستر الى قيادته السابقة في العرائش ، وارسلت التعزيزات من اسبانيا بحيث ارتفعت القوات الموجودة في المنطقة الى ٤٠٠٠٠ رجل • واستدعى المركيز دي فالنزويلا ، المفوض السامي الاسباني المعين حديثا ، سيلفستر وريسولي الى اجتماع في محاولة للصلح ، لكن سيلفستر فقد السيطرة على أعصابه حين جابه ريسولي فصاح يشتمه ، فرد ريسولي عليه قائلا : « أنت وأنا خلقنا عاصفة ، وكنت الريح الغاضبة ، بينما كنت أنا البحر الهادىء • لقد حركت الامواج ، وهيجتني ، وأوجدت الزبد • وهكذا وقع النزاع • لكن ثمة فارقا بينك وبيني ، لاني أنا لا أبدل مكاني قط ، مثلي مثل البحر ، بينماأنت ، مثل الريح ، لا تقيم في المكان نفسه مطلقا » •

وبينما كان سيلفستر وريسولي يتناقشان في مراكش ، أطلق طالب بوسني يدعى غافريلو برنسيب النار على الارشيدوق النمسوي فرديناند في ساراجيفو • ولم تمض خمسة أسابيع على ذلك حتى كانت الدول الكبرى في أوروبا في حالة حرب ، وهو نزاع وقفت اسبانيا منه على الحياد • وأرسل العملاء الالمان الى مدن المنطقة الاسبانية كيما يضايقوا أعداءهم الفرنسيين بالمؤامرات التي كانت تستهدف اعاقة احتلالهم لمراكش حين كانت متطلبات الجبهة الغربية تجرد جيش الجنرال ليويتي • ولقد تعاون هؤلاء العملاء الالمان مع مهندسي المناجم الالمان الذين كانوا يعملون في مليلا حيث كان عبد الكريم مقيما في ذلك الحين •

قاضي أجدير

ولد سيدي محمد بن عبد الكريم الخطابي في أجدير عام ١٨٨٢ ، بكرا لابيه عبد الكريم القاضي المحلي ٠ وهو معروف لدينا بصورة خاطئة ، لكنها حاسمة ، باسم عبد الكريم الذي هو اسم ابيه والذي حسب الاسبانيون في جهلهم العرف الريفي أنه لقب العائلة بينما لقب العائلة هو الخطابي ٠ أما اسم « عبد الكريم » فقد كان يعطى ، ولا يزال ، للبكر في كل جيل بعد جيل ، وهو يعبر عن احدى صفات النبي « خادم الله »٠ واننا لنستطيع ، بعدما أوضحنا هذا الغموض جيدا ، أن نستمر في تسمية الابن « عبد الكريم » والاب « كريم الاب »٠ ويجب علينا أن نحترس أيضا بخصوص اسمي عبدالكريم وأخيه الاصغر ٠ فقد سمي الابن الاول سيدي محمد كما سمي الابن الآخر محمد ، والاسمان يكتبان بصورة متماثلة في اللغة العربية ، لكن الميم ترفع في الاسم الاول وتنصب في الاسم الثاني للتمييز ما بينهما ٠

ولقد أنشىء عبد الكريم في دار العائلة في أجدير المشرفة على خليج الحسيمة الذي تنهض في وسطه الجزيرة حيث تقوم القلعة الشاهقة ذكرى دائمة للتهديد الاسباني الموجه الى الريف ٠ وفي عام ١٩٢٥ دمر الاسبانيون منزل عبد الكريم في محاولة منهم لمحو ذكرى الرجل الذي سبب لهم جميع تلك المتاعب ٠ وفي عام ١٩٦٤ وقفت على شرفة البناء الذي شيد مكانه٠ان الارض تمتد شمالا بلطف حتى الشاطىء، باستثناء جرف شاهق شديد الانحدار يحجب مرفأ الحسيمة الصغير الذي ترتفع ما وراءه ذروة الجبل الجديد الخشنة ، وهو اللسان الارضي الكبير الذي يمتد الساحل حواليه في اتجاه الغرب ٠ وتستلقي سواحل الخليج في الشمال الشرقي منبسطة عريضة حتى يرتفع خط الساحل، على بعد حوالي خمسة عشر ميلا من أجدير ، في مهماز من الجبال الريفية التي تفصل بني

وزياغل عن أراضي بني تمسمان القبلية • وأدرت ظهرت الى البحر وتطلعت نحو الجنوب حيث ترتقي الارض بعنفوان نحو الجبال التي تنهض في قمم وصفوف متعاقبة ، حتى تبلغ ذروتها في سلسلة جبل حمام الذي تشكل الثلوج قلنسوة دائمة له في الشتاء •

ورفعت عيني عن المشهد الذي ألفه عبد الكريم صبيا ورجلا ، وتوجهت الى ابنه سعيد قائلا : « حدثني عن طفولة أبيك • » لم يكن من اليسير استدراج سعيد واخوته الى الحديث عن والدهم • لقد رووا لي الاحداث الرئيسية في حياته ، ذلك أنهم انشئوا منذ طفولتهم على قصة نضال عبد الكريم من أجل استقلال الريف ، وما كانوا يريدون أن يكونوا متكتمين بخصوص والدهم ، هذا الرجل من لحم ودم الذي أحاول تصويره • كانوا يفهمون الحاحي المتكرر بشأن المعلومات الخاصة به ، واصراري على تلك التفاصيل الخصوصية التي تجلبب الطابع العام بملابس يمكننا أن نحسها وأن نلمسها • عبثا توسلت من أجل بعض القصص عن عبد الكريم ، وعن نقاط ضعفه وخصائص مزاجه • وعلمت انه ليس من المستحب ، في عالم الريف السعيد ، أن يثرثر المرء بشؤون الآخرين، لان ذلك يعتبر خرقا للتواضع وأمرا معيبا يبعث على الخجل •

ماذا كان يرى اصدقاؤه ومعاصروه فيه ؟ ان معاصري عبد الكريم ، الرجال الذين نشأوا معه ، قد ماتوا جميعا ، كما علمت ، لان « الرجال لا يبلغون الشيخوخة في الريف » • ولم يستطع أخو عبد الكريم الذي اجتمعت به في القاهرة ، ولا صهره الذي اجتمعت به في الدار البيضاء ، أن يساعداني بهذا الخصوص • كان انسباؤه يحترمونه، وكان ابناؤه يحبونه حبا عظيما ، وكان يقابلهم بالاخلاص نفسه • واذا كان عبد الكريم يحتاج الى نصب ، فان أبناءه الستة قد وفروه له ، لانهم يدركون بصورة عميقة الارث الذي تركه لهم ، ألا وهو رفاهية شعب الريف • لكنهم ما كانوا يستطيعون أن يرووا لي الشيء الكثير عن أبيهم • وأعتقد أن مرد ذلك الى العقلية العربية ، أو العقلية الافريقية الشمالية ، التي تميل الى ادراك الاشياء وتعليلها في بيانات عريضة بالاحرى منها في تلك التفاصيل الخصوصية التي ألفناها نحن الغربيين •

ولعل هذه هي اللحظة المناسبة من أجل تقرير نقطة بالغة الضرورة • ان بعض النقاد ، وبالخاصة اولئك المتأثرين بالاتهامات الموجهة الى عبد الكريم من قبل المؤلفين الاسبانيين والفرنسيين ، قد يزعمون أنني تأثرت بأبنائه كي أصوره تحت أضواء هي في مصلحته كليا • وقد يكون من العسير دحض هذه التهمة ، ولا يمكنني أن أصرح الا

بما يلي : انه ليكون من الايسر ، ولعله يكون من الاربح ، أن أصور عبد الكريم رجلا شريرا وأن أجعله يبدو غدارا قاسيا ، لان تلك هي الصفات التي يتوقعها الغربيون ويعجبون بها • ولقد سبرت الحقيقة عميقا قدر مكنتي ، وكان الرجل الذي برز، بالنسبة الي ، انساني ونبيل ، وليس في الريف شخص واحد يمكن أن يقول كلمة واحدة ضده • وانه لمن المحال أن اكون موضوعيا ، لان المواد اللازمة من أجل هذه السيرة غير متوفرة • ولقد كان الاسبانيون والفرنسيون ، وهذا أمر طبيعي ، « ضد كريم » ، وليس لاتهاماتهم أساس من الصحة ، كما هي الحال بالنسبة الى ادعاءاتي المضادة • وفي اعتقادي أن امتداح عبد الكريم ليس من الجور في شيء •

يمكننا أن نتخيل أن عبد الكريم قضى السنوات الخمس الاولى من حياته في منزل الاسرة في أجدير ، وهو مكان ذو شأن ، اذ كان والده قاضي المدينة ، وهو رجل يحاط باحترام عميق لعلمه ولاستقامته على حد سواء • كان قاضيا شريفا ، كما أوضح لي أحفاده ، لانه « كان على قدر كاف من الغنى بحيث لا تمسه حاجة الى تناول الرشوات من كلي الطرفين في أية دعوى » • كان كريم الأب صاحب أملاك كبيرة في المنطقة ، وكانت منتجات هذه الاملاك تضاعف المرتب القضائي الذي كانت « الخماسيات » المجاورة تدفعه عيناً • وهكذا كانت الاسرة غنية في مقاييس الريف ، وكانوا يأكلون كل يوم ما هو أكثر مما كان سائر الريفيين يأكلونه في تلك الايام • وفي سن الخامسة ، هبط عبد الكريم الهضبة كي يواظب على الكتاب ، المدرسة حيث كان أبناء المحلة يحفظون القرآن عن ظهر قلب ، وظل يدرس في هذا الكتاب حتى بلغ العاشرة •

وفي عام ١٨٩٢ ، وهي السنة التي رزق فيها كريم الاب ابنه الثاني ، انخرطت العائلة التي كان ينتسب اليها في قضية ثأر ، في ضغينة دموية كانت جذورها قديمة ومنسية منذ زمن طويل • ولقد كان كريم الاب معارضا صريحا لهذه العادة التي كان يسميها « لعنة » الريف ، واذ لم يقبل بالانسياق مع أسرته في تأييد عقيدة « السن بالسن والعين بالعين» ، فقد فضل أن يذهب بهم الى تطوان حيث كان ابنه البكر يدرس اللغة العربية والشرع الاسلامي في الجامعة ، ويحصل المعرفة عن العالم •

ولا ريب أن مدينة تطوان القديمة المسورة ، هذه المدينة التي لم يدخلها مسيحي قط ، قد بدت في نظر الصبي الصغير الذي يبلغ العاشرة ، بعد الريف المتوحش ، فردوسا من الثقافة والعلم نهل من ينابيعه العتيقة حتى درجة ما حتى عام ١٨٩٩ ، حين قفل

والده عائدا الى أجدير بعد ما سمع بأن مسالة الضغينة الدموية قد انتهت • وصحب عبد الكريم ، الذي بلغ السابعة عشرة آنذاك ، والده الى السوق حيث كان يصغي ، مستوفزاً على الارض ، الى الاقاصيص المختلفة عن حياة الريف • وتقرر ان يمارس عبد الكريم مهنة والده ، التي كانت مهنة جده ووالد جده أيضا ، بحيث أرسل عام ١٩٠٥ الى فاس ليطلب العلم في جامعة قيروان القديمة ، وهي من أقدم مناهل العلم في العالم لانها أنشئت في القرن التاسع •

سرت مع سعيد عبر باحة جامعة ابيه القديمة وتفقدت الحجرات الصغيرة التي كان الطلبة يتجمعون فيها حول أساتذتهم • ههنا استكمل عبد الكريم معرفتـه بالشـرع واستمتع بالحياة الطلابية • وان بارقة زهيدة من الرجل تتضح منذ تلك الايام • ان رسالة وردت من والده معلنة عن زيارة له ومبينـة أنه قـد يسبق الرسـالة موجـة عارمة من النشاط • كان عبد الكريم قد أصبح على بعض الاهمال في تطبيق الطقوس الدينية ، ومن المؤكد أن انعدام الطشت والابريق في حجرته سيكشف النقاب عن تقاعسه عن غسل يديه وقدميه خمس مرات كل يوم • واما خرج مسرعا من الغرفة كي يستعير هذه الادوات الاساسية من أجل القيام بالطقوس الدينية طرق سمعه صدى خطوات على السلم وصوت ابيه يستفسر عن ابنه • ولقد تمكن عبد الكريم من الحصول على الطشت والابريق من جاره في الوقت المناسب قبل أن يدلف والده الى حجرته • ولقد كان كريم الاب سعيدا جدا برؤية ولده بحيث لم يلاحظ أن الطشت فارغ من المياه •

وناقش كريم الاب مع ابنه مضامين المعاهدة الفرنسية الاسبانية التي تقسم مراكش الى مناطق نفوذ ، واعترف بأنه حين سمع بها للمرة الاولى لم يكن معارضا كل المعارضة لانتشار النفوذ الاسباني في الريف • كان يعتقد بأن الريف سيكسب كثيرا من شركة على قدم المساواة مع أمة متمدنة • ان أهل الريف أناس متأخرون ، وهم يحتاجون الى الاطباء ، والمعلمين ، والمهندسين ، لمساعدتهم في استخدام مواردهم الطبيعية • لكنه بلغه أن في نية الاسبانيين أن يستغلوا اهل الريف لا أن يساعدوهم • وحين تكلم ضد معاهدة أجدير ، أرسل حاكم قلعة الجزيرة فصيلة من الجنود الى الشاطىء وأحرق داره • ولم يغب عن أعين الاب والابن على السواء الفوضى التي تتردى مراكش فيها والخطر الاسباني على استقلال الريف ، وعاد عبد الكريم الى أجدير بعد تخرجه عام ١٩٠٩ ، ومن هناك انطلق مع ابيه للانضمام الى التحالف الريفي الذي تشكل ، بفضل جهود كريم الاب حتى

درجة بعيدة ، من اجل مقاومة غزو الروغي • وحضر عبد الكريم في هذه الحملة القصيرة « القتال الفعلي » من دون أن يسهم فيه شخصيا • وحين عاد الى أجدير أرسله أبوه الى مليلا كي يمارس القانون فيها ويكتسب الخبرة المباشرة بالاسبانيين ويقف على نواياهم •

ووصل عبد الكريم الى مليلا حين كان النزاع بشأن حقوق التنقيب عن المناجم في جبل ويكش في أوجه ، وما أعقبه من قتال استمر ، حاميا تارة فاترا تارة ، لسنوات طوال • وحصل على عمل بالتدريس في مدرسة محلية ، ثم ترك هذا العمل بعد سنة كي يصدر الصفحة المحررة باللغة العربية في **برق الريف** ، وكي يعمل سكرتيرا في مكتب الشؤون المحلية • وأصبح عام ١٩١٣ مستشارا لدى محكمة الجنايات ، ثم رفع بعد سنتين الى منصب رئيس العدل ، قاضيا في القضايا الجنائية والمدنية على السواء بالنسبة الى المولدين •

كان الاسبان يسعون بهذه التعيينات الى كسب عبد الكريم للتعاون معهم ؛ بل لقد عرضوا عليه عرضا أشد اغراء ، اذ وعدوه أن يكون حاكما للريف بعد احتلالهم اياه• ورفض عبد الكريم ان يرتشي ، وأخبر الاسبانيين أنه مستعد للتعاون معهم اذا استطاعوا أن يقنعوه بنواياهم الطيبة ، وفي هذه الحال فقط •

ان مناصب عبد الكريم في النفوذ والسلطة قد جعلته على احتكاك مع الرسميين الاسبانيين من جهة واحدة ، ومع مهندسي المناجم وعملاء المخابرات الالمان من جهة ثانية ، هؤلاء الذين كانوا يخططون من أجل خلق المتاعب للفرنسيين • ولقد ارتبط بأواصر الصداقة مع ممثل مانيسمان اخوان ، المؤسسة الالمانية التي تعاقدت على حفر المناجم في ويكش ، وقد مكنته مهنته من الاطلاع على الوثائق التي كانت تكشف النقاب عن الخطط الاسبانية من أجل استثمار الريف ، والتي كانت تبرهن في الوقت نفسه على العجز والفساد الاسبانيين • ولقد كشفت هذه التقارير عن الايمان الاسباني بالثروة المعدنية لجبال الريف وعن خطة فورية من أجل التنقيب في الاراضي القبلية التابعة لبني ورياغل • وكانت المعلومات التي استقاها عبد الكريم من هذه المصادر تثبت أن مقاصد الاسبان أنانية تماما ، وأنه ليس في نيتهم على الاطلاق السماح لاهل الريف بالانتفاع من ثروتهم الطبيعية الخاصة ، أو معاملتهم كشركاء متساوين كما كانوا يعلنون على الملأ •

وبحث عبد الكريم عن المعونة عند الالمان الذين شجعوه ، اذ تبينوا الفائدة التي يمكن أن يحصلوا عليها من كسب تأييد رجل ريفي بارز ، على أن يكتب في الصفحة

العربية التي لا يبرح يصدرها ، محتجا على تقاسم مراكش من قبل فرنسا واسبانيا • كان عبد الكريم على استعداد اذن للتعاون مع أي انسان يستطيع أن يساعد أهل الريف في الحفاظ على استقلالهم وفي الانتفاع بمواردهم الطبيعية الخاصة • لقد كان على استعداد « للعشاء مع الشيطان نفسه » على حد تعبير السير ونستون تشرشل حين رحب عام ١٩٤١ بدخول روسيا الحرب ضد هتلر •

والتقى عبد الكريم بالجنرال سيلفستر الذي كان يقوم بزيارة لمليلا • ويروى ـ وهذا ما تنكره العائلة ـ أن الرجلين دخلا في نقاش انتهى بشجار غير لائق على الارض • وكائنا ما كان نصيب هذه الرواية من الصدق أو غير ذلك ، فان الاسبانيين زجوا بعبد الكريم في السجن ، وهو توقيف تقول الاسرة ان العداء الفرنسي كان سببا له ، هذا العداء الذي أثارته المناداة بآرائه الصريحة وحماسته غير المقنعة للنجاحات التي حققها الاتراك ، حلفاء الالمان وأعداء فرنسا بنتيجة ذلك •

ان جزائريا بارزا هاجر الى مراكش قد جعل من نفسه ، على النقيض من عبدالكريم ، أداة ألمانية • ان هذا الرجل ، عبد المالك ، قد كان حفيدا لعبد القادر الشهير الذي قاتل بشجاعة ضد الفرنسيين في الجزائر في القرن السابق • ولقد جاء عبد المالك ، الذي ولد في سورية أثناء اقامة جده في المنفى ، الى مراكش عام ١٩٠٢ حيث دعم الروغي ، وقد تخلص من قضيته الخاسرة بمحاولة اغتياله فيما بعد • ولقد جعله هذا السلوك عزيزا في عيني السلطان عبد العزيز ، لكنه سرعان ما تخلى عن قضية هذا السلطان أيضا حين أصبح مولاي حفيد سلطانا • ولقد عين عبد المالك ، مكافأة له على اخلاصه للنظام الجديد ، رئيسا لشرطة السلطان في طنجة • وفي عام ١٩١٤ أصبح عميلا ألمانيا • لكنه حين ارتاب بأن أحاديثه الهاتفية السرية مع القائم بالاعمال الالماني قد سجلت ، هرب الى جبال الريف ، يرافقه عميل ألماني يدعى فار يحمل كيسا مليئا بالذهب • ولقد تعاون مالك وفار على اثارة قبائل الريف الجنوبي ، ومن بعد أعلن مالك حربا مقدسة ضد الفرنسيين وهاجم مواقعهم • كذلك أعلن السلطان ، بتحريض من المقيم العام ليوتيي ، حربا مقدسة ضد الالمان • وهكذا تمزقت القبائل بين اخلاصين : وأثبت الذهب الفرنسي أنه أشد اقناعا من الذهب الالماني ، فترنحت قوى مالك ، وانحلت الى عصابات من اللصوص • وتبخرت سلطته ، واضطر الى الفرار الى المنطقة الاسبانية التي حاول

الفرنسيون عبثا اخراجه منها • ولسوف نسمع من أخبـار عبـد المالك مرة أخـرى فيما بعـد •

ولقد أثرى ريسولي هو الآخر من الرغبة الالمانية في كسب تعاونه ضد الفرنسيين، وكان يتناول الرشاوى دونما تمييز من الالمان والاسبانيين ولا يفعل شيئا لقاء ذلك • وكان الاسبانيون معنيين بعد بكسب ولائه لقضيتهم • ولقد أرسل الجنرال مارينا ، عام ١٩١٣ ، اليه رسالة يعرض عليه شروطا مناسبة من أجل تعاونه ، بيد أن حامل هـذه الرسالة الذي كان من السكان المحليين ، والذي أعطي جواز مرور من الاسبانيين ، لم يبلغ الرزيلة • وادعى ريسولي بشدة أنه قتل في الطريق بتحريض من الجنرال سيلفستر، لكن سيلفستر نفى هذه التهمة بأن نفذ حكم الاعدام في أحد مساعدي ريسولي ، زاعما أن هذا الرجل هو الذي اغتال رسول الجنرال مارينا • واستقال مارينا من منصبه واسرع عائدا الى مدريد حيث استدعى سيلفستر بدوره • واحتدم شجار عنيف بـين الرجلين ، لكن الحكومة هدأت من حدتهما بأن منحتهما أوسمة عسكرية رفيعة ، ومن بعد عين مفوض سام جديد هو الجنرال جوردانا الذي أرسل الى تطوان ، بينما أسكت سيلفستر باعطائه منصبا مؤقتا في مليلا •

وحاول عبد الكريم ، ذات ليلة من عام ١٩١٦ ، أن يهرب من « البرج » وهو الاسم الذي كان يطلق على سجن مليلا • كان بعض الاصدقاء قد هربوا اليه حبلا تدلى بواسطته من نافذة زنزانته • بيد أن عمامته علقت بمصراع النافذة بعد خروجه منها ، بحيث وجد نفسه بعد ما تدلى عالقا على ارتفاع عشر أقدام من الارض • ولما كان رجلا ثقيلا ، وقد أثقل نفسه فضلا عن ذلك بالثياب الاحتياطية التي ارتداها كيما يأخذها معه ، فانه لم يستطع أن يتسلق الحبل من جديد • وسقط على الارض ، فكسرت ساقه ، ووجده الحرس الذين اخذوه الى المستشفى حيث نصح الاطباء بقطع رجله • ورفض عبد الكريم ذلك ، وكان من نتيجة هذا الحادث أنه ظل يعرج قليلا على رجله طوال حياته • وأطلق سراحه قبل نهاية العام لقاء بعض الرهائن ، فذهب الى أجدير حيث قضى سنتين في داره قبل أن يعود الى مليلا حيث اعيد تعيينه رئيسا للعدل في المحكمة المحلية • أما أخوه الاصغر محمد فقد ارسله والده الى مدريد ليتمرن على هندسة المناجم • وعلم عبد الكريم في مليلا أن الاسبانيين يجندون العملاء في الريف ويصدرون اليهم التعليمات

باغتيال الزعماء الذين يعارضون المطامح والاهداف الاسبانية ٠

* * *

اجبرت نهاية الحرب الكبرى في أوروبا اسبانيا على التعجيل في غزو المنطقة الشمالية من مراكش ٠ كان الوضع المتردي في الداخل يتطلب انهاء المشروع الاستعماري بصورة ناجحة في محاولة لدعم النظام المترنح ٠ وفي عام ١٩٢٠ واجه الملك ألفونسو أحد أمرين : اما أن يقبل راضخا بشعبية الحكومة المتعاظمة أبدا ، واما أن يرتد الى النظام التعسفي الذي وضع له حد نظريا باعطاء الدستور عام ١٨٧٦ ، حين أعيدت الملكية بعد فترة من الحكم الجمهوري ٠

وكانت اسبانيا قد انتفعت كثيرا ، لكن بصورة مؤقتة ، من الحرب الاوروبية ، وذلك من بيع المواد الغذائية والفلزات الحديدية والذخيرة الى الحلفاء ، وأدى ميزان تجارتها الموافق الى زيادة احتياطيها من الذهب من ٢٣ مليون بيزو عام ١٩١٤ الى ٨٩ مليون بيزو عام ١٩١٨ ٠ بيد أن رفاهية زمن الحرب قد استبدلت بالفقر حين توقفت طلبات الحرب ٠ وانخفض الانتاج ، وانتشرت البطالة ٠ وأدى البؤس الناجم عن هذه الاوضاع ، وهو البؤس التي كانت الطبقات العاملة المحتقرة ضحيته الاولى ، الى زيادة كبيرة في قوة الاشتراكية والنزعة الجمهورية التي قدم نجاح ثورة البروليتاريا في روسيا دعما هائلا لها ٠

وكانت اسبانيا دولة اقطاعية بعد رغما عن الدستور ، وكان النبلاء في هذه الدولة يرفضون أن يقبلوا المسؤوليات التي قام النظام القديم عليها ، فالمطالبة بالاصلاح تعرض للخطر الامتيازات التي طالما استمتعوا بها ٠ ان ملاك الاراضي الارستقراطيين قد خرقوا روح الدستور منذ عام ١٨٧٦ ، بينما هم يقبلون نصه ، وذلك بالتعاون مع الطبقات الوسطى ، هذه الطبقات التي كانوا يتناوبون معها في السلطة ، كيما يمنعوا امثال كورتيس من تحقيق الاصلاحات المطلوبة ٠ وأبقي على مظهر الحكم الديموقراطي ، وكان الطرفان يستفيدان معا من نظام الفساد القديم ٠

واعترف ألفونسو بالخطر حين أصيب الاقتصاد بالجمود عام ١٩٢٠ ٠ ما كان يمكن تفادي الحرب الاهلية اذن الا بوضع الدستور موضع التنفيذ أو بتطبيق الدكتاتورية ٠ ولما كانت عدم شعبية الملكية عقبة في سبيل استيلاء الملك على السلطة

الشخصية ، فقد بحث عن بديل ووجده في جماعة الضباط الساخطين الذين كانوا يطمعون في الترفيع العاجل ، لكن أعاقتهم عن ذلك الجونتاس ، وهي الاتحاد العسكري الذي كان يطالب بالتقيد الصارم بمبدأ الترفيع المقرر وفقا للمرتبة والقدم • وقرر الفونسو أن ينشيء نظاما للترفيع وفقا للجدارة ، دونما اعتبار للمرتبة ، وهو اقتراح ساعدته فيه عدم شعبية الجنرالات المفتقرين الى الكفاءة ، هؤلاء الذين لم يحققوا شيئا سوى سلسلة من الكوارث في مراكش • وفي عام ١٩٢٠ كان الجيش يعد ١٠٠٠٠٠ رجل و ١٢٠٠٠ ضابط ، وهو رقم غير متناسب يترأس صفوفه ٦٩٠ جنرالا و ٢٠٠٠ عقيدا • وكان الضباط الاصغر سنا يتناولون مرتبات ضئيلة جدا بحيث سقطوا بكل سهولة ضحايا لنظام الفساد الذي كان متغلغلا في جميع مراتب الجيش • ولقد وقع ألفونسو على الفكرة الصائبة ، لكنه اختار الرجل الخاطيء من أجل تنفيذ مشروعه •

كان التقدم في مراكش بطيئا جدا منذ عام ١٩١٥ • ففي الشرق بقي الاسبانيون محشورين في مليلا والمناطق المجاورة لها بصورة مباشرة • وفي الغرب أخذ الجنرال دامسكو بيرنجر مكان الجنرال جوردانا الذي مات خلف مكتبه في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٨ • وفي أعقاب تعيينه مفوضا ساميا وجنراليسيما للقوات الاسبانية في مراكش • ذهب بيرنجر الى الرباط ، عاصمة مراكش الفرنسية ،حيث تشاور مع المقيم العام ، وهو المارشال ليوتيي في ذلك الحين ، الذي نصحه باتباع سياسة تغلغل بطيء ، بحيث يسبق كل خطوة تحضير مناسب لها • وعاد بيرنجر الى تطوان ، مقتنعا بما شاهده في مراكش الفرنسية ، وتنبأ بكل ثقة بأنه « لم يعد ثمة حاجة لاسالة المزيد من الدماء » • وأخذ يسعى الى كسب تعاون القبائل بواسطة التغلغل السلمي ، لكنه اصطدم بريسولي الذي كان مصمما على الاحتفاظ باستقلاله ، والذي استنهض قبائله واحتل الهضاب المحيطة بتطوان • واضطر بيرنجر الى ارسال القوات لابعاده ، بحيث دخلت اسبانيا الحرب من جديد ضد ريسولي • ولقد أدى هذا التجدد للقتال الى انفجار وحشي في مدريد ، فقد راحت الصحافة الجمهورية تصيح : « اننا نواصل القتال في مراكش بصورة مناقضة لوعود الحكومة • ان العرب قد قتلوا عددا كبيرا من جنودنا والحرب مستمرة ، ولا يريد الناس أن يذهبوا الى مراكش ، وهم لا يريدون أن يصرفوا فلسا آخر هناك ، وقد تعبت اسبانيا من التضحية بأبنائها في غزو أرض لا تحمل اليها سوى المتاعب ، باستثناء توفير المرتبات للملكيين والارستقراطيين • »

كان هذا الاستياء الشعبي ضد القيادة العسكرية في مصلحة خطط الملك • وهكذا

عمه ألفونسو ، على اعتبار ذلك تنازلا أمام المطالبة بترفيع ضباط أكثر كفاءة ، الى الحد من سلطة بيرنجر بتعيين سيلفستر قائدا للقوات العسكرية • ولقد احتفظ بيرنجر بمركزه كمفوض سام ، وكان مضطرا الى مراقبة منافسه السيء الانضباط وهو يحقق نجاحا كبيرا ضد ريسولي الذي اضطره سيلفستر الى الانسحاب الى قلاعه الجبلية • ولقد تحسنت الاوضاع بالنسبة الى بيرنجر وريسولي على حد سواء حين نقل سيلفستر ، نزولا عند أمر الملك الشخصي ، الى مليلا قائدا عاما للقوات العسكرية • واستعاد بيرنجر منصبه كجنراليسيم للجيوش الاسبانية في مراكش ، هذه الجيوش التي ازداد عددها عام ١٩٢٠ بقدوم الفرقة الاجنبية الاسبانية المشكلة حديثا ، الثالثة كما سميت وقتذاك ، وكانت الفرقة الاجنبية الفرنسية نموذجا لها ، وقد جند فيها العسكريون المستاؤون من أمم عديدة ونفاية السجون الاسبانية • ووضعت القوة الجديدة تحت قيادة العميد ميلان أستري ، وقد ألحق به رائد يدعى فرنشسكو فرنكو لمساعدته • ان هذه القوات الجديدة قد رفعت الجيش الاسباني في مراكش الى تعداد ٦٣٠٠٠ رجل كان ٢٤٠٠٠ منهم معسكرين في مليلا • وواصل الجنرال بيرنجر ، عند النهاية الغربية من المنطقة الاسبانية ، تقدمه البطيء ، محتلا عام ١٩٢٠ شنشاون ، وهي مدينة صغيرة عند طرف الريف • وفي أواخر العام حضر سيلفستر صلاة احتفالية في كاتدرائية مليلا ، ومن ثم قصد مدريد حيث استقبله الملك على انفراد •

* * *

كان عبد الكريم قد غادر مليلا في نهاية عام ١٩١٩ ، وعاد الى أجدير حيث وجد والده يعاني مرضا خطيرا • ويقول أبناء عبد الكريم أن جدهم قد سمم من قبل رجل من الريف يدعى عبد السلام التفرسيتي ، نسبة الى مدينته تفرسيت ، تنفيذا لاوامر تلقاها من الاسبانيين في مليلا ولقاء مكافأة هي بندقية جديدة • كان كريم الاب يتجول في الريف ، يعقد الاجتماعات ، ويحذر رجال القبائل من أغراض الاسبانيين وينصح شعبه بتشكيل جيش للدفاع عن أنفسهم • وحين زار تفرسيت ، وهي مركز هام على حدود الاراضي القبلية لبني ورياغل وتمسمان ، استضيف من قبل التفرسيتي الذي قدم له صحنا من البيض • وشكا كريم الاب ، بعد تناول بيضة واحدة من آلام في معدته، لكن قوانين العرف القبلي كانت تقضي بأن ينهي طعامه • وحين عاد الى أجدير شكا من أنه « تناول سما » وآوى الى فراشه • وقدم عبد الكريم وأخوه الذي استدعي من مدريد

الى جانب فراشه حيث استحثهما مع انفاسه الاخيرة على النضال من أجل استقلال الريف ٠ وقضى الرجل الشيخ في ايلول (سبتمبر) ١٩٢٠ وخلفه عبد الكريم في منصبه كقاضي أجدير ٠ ولقد نجح خلال شهر واحد في اقناع قادة الريف بالاجتماع في مجلس سبق لنا أن عرفنا نتائجه المخيبة ٠

وبعدما عاد القادة الى منازلهم وهم مختلفون بعد تزوج عبد الكريم من فتاة تنتمي الى أسرة طيبة من أهالي البلدة ، وقضى الشتاء يتجول في المناطق البعيدة من اراضي بني ورياغل ، يعقد الاجتماعات وينادي بالوحدة في وجه العدوان الاسباني ٠ انه ليجب على بني ورياغل ، حتى اذا لم تتعاون القبائل معهم من أجل الصالح العـام ، أن يتحـدوا ويتضامنوا ٠ وكان يتحدث بهـدوء : يجب عليهم أن يتخلوا عن تاراتهـم ، لانهـم لا يستطيعون أن يتحاربوا ويحاربوا العدو المشترك في وقت واحد ٠ وجعل الناس شيئا فشيئا يعيرونه اذنا صاغية ٠ وحول عبد الكريم الليف ، وهو نظام التحالف القبلي ، الى مصلحته ، اذ اقنع أعضاء المجالس ، في كل مستوى من النظام المتراكب ، بالانـدماج مع الجماعيات الاخرى من أجل تأليف اتحادات وقائية ، كما هي عادتهم حين تهـدد الضغائن الدموية بالانتشار ٠

وعارضه عدد من الزعماء الذين رشاهم الاسبانيون ٠ ولقد هدد أحد هؤلاء الرجال، بورجيله ، الذي كان رأسا لاسرة أجديرية أخرى تضارع الخطابيين في الثروة ، بأن يقتل عبد الكريم ٠ وكان مقدرا أن يقع الصدام حين يحضر الرجال المسلحون من كلتي الاسرتين السوق الاسبوعية ، بحيث انتاب الجماعة كلها هياج قوي ٠ واما شعر عبد الكريم بخطر قيام ضغينة يمكن أن تعرض للخطر الوحدة التي كان يسعى لتحقيقها ، فقد اقترح أن تبقى العائلتان بعيدتين عن السوق ٠ لكن بورجيله أصر على حقه في حضور السوق ، وفي اليوم المحدد دخل المكان المسور يرافقه رجال مسلحون ٠ ولقد برهنت عاقبة هذا العمل على الاثر الذي حققته التماسات عبد الكريم من أجل الوحدة في وجه العدوان الخارجي ، ذلك انه عندما جلس بورجيله مع رجاله يحتسون الشاي راح الناس المجتمعون يصفرون اظهارا لعدائهم ، وكان الصفير علامة غير مألوفة عن الاحتقار ٠ واستشعر الخطر فنهض يطلب الفرار ، لكنه لم تمض خمس دقائق على وصوله حتى كان رجال القبائل الغاضبون قد رجموه مع رجاله حتى الموت ٠

ولقد نصح عبد الكريم ايضا بالستراتيجية التي يجب اتباعهـا من أجل قهـر

الاسبانيين ، منبها الى أنه يجب على أهل الريف أن يتفادوا المعارك الضارية التي لا يستطيعون أن يكسبوها ضد جيش متمدن • يجب على هؤلاء الريفيين أن يستخدموا تكتيك حرب الانصار ، مستفيدين من قدرتهم على الحركة ، ومن معرفتهم بجبالهم ، ومن كفاءتهم في الرماية ، ومن عنصر المفاجأة ، ومن قدرتهم على الانحلال في الهواء الرقيق• وطلب عبد الكريم المعونة من تمسمان ، القبيلة الصغيرة التي تعيش في الشرق ، من الجهة التي سيضرب الاسبانيون منها • ولم يكن للقبيلة زعيم عام ١٩٢١ ، لكن أعضاء مجلسها وافقوا على اشعال نيران الحراسة على القمم العالية في حال حدوث الغزو الاسباني المتوقع ، لكنهم رفضوا أن يورطوا أتباعهم أكثر من ذلك •

لقد حقق عبد الكريم نجاحه المذهل في استنهاض مواطنيه بقوة ذكائه وشخصيته وحدهما • لم يكن يحتل أي مركز بارز في قبيلته الخاصة ، فكم بالاحرى في الريف بأسره ؛ لقد كان قاضيا لمدينة واحدة فقط ، وكان لا بد له أن يتغلب على الشك في كونه اداة اسبانية باعتبار انه كان مستخدما في مليلا • ولم يكن جنديا ، كما أنه لم يشترك قط في الضغائن الدموية ولم يطلق يوما رصاصة واحدة بدافع الغضب • ولم يكن في مظهره ، كما وصفوه لي ، ما يميزه بصورة مخصوصة : كان قصير القامة ، أقرب الى السمنة ، غامق الشعر والملامح • وكان يبدو لطيفا ودودا ، وكانت عيناه وحدهما تعطيان قبسا من النار المتأججة في باطنه • كانت هاتان العينان سوداوين نافذتين •

ولما كان شتاء ١٩٢٠ – ١٩٢١ يقترب من نهايته ، كان عبد الكريم يعيش في بيته في أجدير حيث كانت زوجته تنتظر ولدها الاول • وحين ذهب الشتاء جعل الرجل يراقب الثلوج تتراجع عن قمم جبل حمام • وفي أوائل نيسان (ابريل) ، باشرت طيور السنونو التي كانت تأتي لقضاء الشتاء في شمالي أفريقيا طيرانها العائد الى مراعيها في اوروبا الشمالية • لقد جاء الربيع الريف متأخرا في ذلك العام •

الغــزو الاســباني

كان الجنرال سيلفستر يراقب طيور السنونو وهي تتجه صوب الشمال · لقد عاد الى مليلا في شباط (فبراير) بعدما وقع عليه اختيار الملك في مدريد ليكون الرجــل القوي الذي يدعم النظام · ولقد أصدر ألفونسو أمره الى سيلفستر بأن يحطم المأزق في مراكش ، وكانت رسالة الملك السرية الى سيلفستر لا تبرح في جيبه : « افعل كما أقول لك ولا تلق بالا الى وزير الحربية الذي هو رجل أحمق · »

ولم يكن سيلفستر ، الشجاع والسريع التأثر ، المتهور حتى درجة الجنون ، يحتاج الى أي تشجيع · انه المخلص الذي سيحرر اسبانيا من متاعبها · ان فرديناند سيلفستر، نصف القشتالي ونصف الكوبي مولدا ، هو فتى العالم القديم وابن العالم الجديد ، الجندي الذي سيقلب مصائر اسبانيا ، العملاق الذي سيوقف مد الزمان · انه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يغزو الريف ، فبيرنجر يبالغ في الاحتراس ، وتقدمه البطيء ، الثقيل ، سيتطلب سنوات عديدة · ولسوف ينطلق سيفلستر ، بينما الآخر يراوح في مكانه ، وسيكسب النصر ، ويحصل على المجد والغــار · ولسوف يلهي انتصاره العظيم الشعب في بلاده عن نقائص الحكم الارستقراطي ومساوئه ·

ان سيلفستر ليزدري أهل الريف ، جنود « التنورة » كما كان يسميهم · ولسوف يقسمهم قبل أن يتمكنوا من تعبئة انفسهم ، وهو ما سيحققه بهجوم مباغت على خليج الحسيمة ، في قلب الاراضي القبلية الخاصة ببني ورياغل · ومن أجدير ، سوف يسخر من بيرنجر بأنباء نصره السهل · ولسوف تنتهي الحرب بأخضاع بني ورياغل ، لان القبائل الاخرى ستكون عاجزة عن المقاومة بدونهم · وليس سيلفستر بجاهل محاولات عبد الكريم لاستنهاض القبائل ضد اسبانيا ، كما هو يعلم اخفاقه في الحصول على تأييد

القادة • وعلى أية حال ، فان معارضة قاضي أجدير لا تقلق بال سيلفستر • ان كريما المغرور يمكن أن يعوق قوة اسبانيا ، لكنه لا يستطيع سبيلا الى مقاومتها •

وكان سيلفستر يأمر في مليلا ٢٠٠٠٠ جندي اسباني و ٤٠٠٠ تابع من المولدين• وفي الحسيمة ، هدف الاسبانيين ، تقف حامية قلعة الجزيرة ، على أهبة ضرب الريف من الخلف لدى اقتراب سيلفستر • وثمة طريقان مفتوحان أمامه • ففي استطاعته أن يسلك الطريق الطويل ، الطريق البطيء الملتف الامين ، دائرا حول الجبل الاشد ارتفاعا ، بحيث يبلغ أجدير من الجنوب • أو يستطيع أن يسلك الطريق المختصر عبر الجبال ، مجتازا وادي أقريس ، شاقا طريقه ما وراء جبل أبران ، مفتاح المعابر الى الغرب • تلك بلاد مجهولة بالنسبة الى الاسبانيين ، وهم لا يعرفون شيئا عن ممراتها المتعرجة ، ووديانها العميقة ، ومنحدراتها الزلقة • واختار سيلفستر أن ينطلق عبر الجبال ، خلال الاراضي القبلية الخاصة بتمسامان • وبينما هو يعمل في احكام خطته وصلته برقية من الملك يعلن ألفونسو فيها : « هيا ، اني انتظر • » وهذا سيلفستر يأمر ضباطه : « تقدموا الى الريف • »

وراح الرتل الاسود الطويل يزحف عبر السهل الاغبر • ان جبال الريف ، هذا الحاجز الوعر الذي تحدى الاسبانيين طويلا ، تنتصب في المدى البعيد • و خرج جنود اسبانيا من مليلا وسلكوا الدرب الوعرة التي تؤدي الى الغرب • هؤلاء الفاتحون يسيرون من جديد ، بعد اربعمائة عام من الانجازات المجيدة والتراجع المهين • وان سيلفستر ليراقب قواته وهو يمتطي صهوة جواده : تلك هي اللحظة الاسمى من حياته المسلكية • ان الفارس المتهور ، المختال ، الانيق ، الذي يحمل في جسده ندبات ستين جرحا ، لا يراوده أدنى شك أو تردد • ان المشروع له ، وله وحده • ان اندفاعه الى الريف يعني الهزء بأوامر رئيسه العسكري ،لكن تفويضه صادر من ألفونسو نفسه ـ الملك الذي سيكافئه بكل تأكيد ببراءة النبالة التي يتوق اليها • وان سيلفستر ليتبجح بأنه سيسقي جواده خلال شهر واحد من ينبوع جدين وينظف حذاءه على قبر سيدي ادريس •

ويتقدم رتل مليلا جاهدا في القيظ اللاهب • ان الشمس الافريقية الحارقة تلسعه ، وغبار المسيرة يرتفع عاليا في سحب عريضة ، تبعثر دواماته الريح الطرية التي تهب من الجبال • ان طعم الهواء لأشبه بالشمبانيا بالنسبة الى سيلفستر ، يسكره فيصيح :

« الى الامام ، الى الامام » • ويعجل الرجال الكادحون من خطواتهم ، وتنطلق الجماعات في سير سريع ، والرايات ترفرف في النسيم العليل • ان عشرين‌الف جندي يتهادون عبر السهل ، وأسلحتهم وتجهيزاتهم تلمع بصورة كليلة في نور الشمس البراق ، تلمع ولا تتلألأ ، لان هذا الحشد حشد حزين • ان بزات الجنود ملطخة مرقعة ، وعتادهم كليل فاقد اللمعان ، وسلاحهم عتيق صدىء ، والكثيرون منهم لا يعدون كونهم صبية ، فتيانا فلاحين ، أميين ونصف جائعين ، اولئك المجندين البائسين الذين هم أفقر من أن يبتاعوا بديلا يخوض عنهم معارك اسبانيا • وان الكثيرين منهم لم يطلقوا قط رصاصة واحدة ، كما أن كثيرا من البنادق لا تصلح لاطلاق النار ، كما وأن نصف الطلقات التي تعد بالآلاف والتي زودوا بها محشوة بنشارة الخشب والرمل• وانهم‌ليسيرون، نظريا ، في طريق معبدة قد اقترع من أجل تعبيدها على مئات‌الالوف‌من البيزوات ، وهي‌اموال‌اختفت في جيوب ضباطهم •

ويركب الضباط على مسافة من رجالهم المشاة ، فهم بعيدون عن سحب الغبار • وعلى الرغم من أن اسبانيا تحشد عددا من الضباط بالنسبة الى عدد الجنود أعظم من أي جيش أوروبي آخر ، فان هؤلاء الضباط قلة هنا ، لان الكثيرين منهم قد تخلفوا ، في « اجازة » ، في مليلا ، كيما يستمتعوا بمباهج الحانات ويثروا بفضل من المخازن العسكرية • ان الكثيرين من هؤلاء الضباط يكسبون ٦٠٠ بيزو في الشهر ويصرفون ١٢٠٠ بيزو في الشهر • ان هؤلاء الارستقراطيين المفلسين ليرحبون بالخدمة العسكرية ما وراء البحار ، وهم يستطيعون في مراكش أن يثروا بفضل تجويع الفتية الفلاحين الذين تدفع لهم الاموال من أجل تأمين معيشتهم •

وتمشي فتيات اسبانيات عديدات في الرتل الطويل ، واحداهن شقراء فاتنة ، وأخرى سمراء تلفت الانظار • ولسوف يختبرن بعض الخيبات المرموقة قبل عودتهن الى الوطن الام اسبانيا •

وهذا الرتل ، بعدما عبر نهر كيرت ، ابعد نقطة سبق للاسبانيين أن تقدموا اليها ، يندفع قدما صوب الجبال ، الى بلاد مجهولة غير مستكشفة ، بلاد من القمم الشاهقة ، والجبال الظمأى ، والممرات الصخرية المكهفة ، والوديان العميقة ، ومجاري الانهار الصخرية • ان وديانها الخصبة القليلة تتصل ببعضها بعضا بواسطة دروب الماعز ، هذه المعابر الضيقة التي سيتعثر فيها الرجال لابسو الاحذية العالية وسيقطون ، هذه الطرق

المنزلقة التي يستطيع أهل الريف الخفيفو الحركة أن يتسلقوا منها الى الاعالي التـي تشرف عليها ·

ان هدف سيلفستر المباشر هو وادي أقرموس ، حيث تعيش قبيلة تمسامان، وهو واد بعرض عشرين ميلا ، تطوقه مثل الحزام جبال عالية ، ومنحدرات عملاقة من الصخر الوعر ، يتلوى عبرها دربان تجتازان المرتفعات البالغة ٤٠٠٠ قدم ، دربان شاهقتـان لا تشكلان في حال عدم الدفاع عنهما أية عقبة في وجه جيش غاز ، لكنهما ممران ضيقان ، متلويان يمكن أن يصبحا مصيدة اذا ما قام على حراستهما عدد قليل من الرجال الحازمين المسلحين بالبنادق ·

ويغطس سيلفستر ورأسه الى الامام منه في الجبال · انه لايطيق أية معارضـة ، فأساليبه هي أفضل الأساليب ، وطريقته في خوض الحرب هي الطريقة الصائبة · انه يخب امـام الرتل ، متشـوقاً الى تحقيق خطتـه ، تاركاً القرارات الروتينيـة الى مرؤوسيه ، ضباط الاركان العامة الذين هم عاجزون عن تدبير تلك التفاصيل الصغيرة التي تكسب الحروب بها أو تفقد · (ان الكتب العسكرية تبين أنه يجب اقامة مواقع قوية لدى تقدم الجيش من أجل حماية مؤخرته ، وتأمين مواصلاته ، وتوفـير نقـاط الدفاع عنه لدى تراجعه · ولقد أخبر الضباط الاسبانيون رجالهم ، أثناء تقدمهم ، بأن يشيدوا مراكز حصينة وأن يبنوا مخازن للمؤن والذخيرة · بيد أن المراكز التي انشأوها كانت قليلة ومتباعدة، وكانت مواقعها تبعد عن بعضها بعضا مسافات كبيرة بحيث لاتستطيع حامياتها أن تتصل ببعضها بسهولة · وكانت سلسلة الدعم رقيقة جدا · ولقد ارتكب ضباط سيلفستر خطأ أشد فداحة ، اذ لم يعمدوا الى نزع سلاح بني سعيد ، القبيلة التي كانوا يجتازون اراضيها في طريقهم الى الجبال · لقد خلفوا وراءهم قبيلة صغيرة لكنهـا متمرسة بالحرب ، ولم تكن هذه القبيلة تحتاج لاكثر من بعض التشجيع كي تطعـن الاسبانيين في ظهرهم) ·

وان الرتل ليتقدم بعد · واما اقترب من الجبال انفصل الى ثلاثة أرتال : واتجهت فرقة منه صوب سيدي ادريس على الساحل حيث كان الجنرال سيلفستر على موعد مع قبر · أما بقية الجند ، القسم الاعظم من الجيش ، فقد انقسموا الى رتلين ، راح أحدهما يتسلق جاهدا أحد الممرين الجبليين ، بينما راح الآخر يجاهد عبر الممر الآخـر · ان عبورهم الحاجز الجبلي هادىء لاتتخلله أية احداث ، فليس هناك ريفيون يسدون عليهم

الطريق ، لأن رجال القبائل المحليين قد ارتشوا • وتهبط الشعبتان المتحدرين المعاكسين وتختلطان في شعبة واحدة • ويحتل الأسبانيون الوادي من دون أن يقاومهم رجال تمسامان • بيد أن أعضاء مجلس هذه القبيلة تذكروا وعدهم لعبد الكريم ، وفي تلك الليلة نقلت نيران الحراسة رسالتها المصيرية •

وحملت انباء النيران المشتعلة فوق الهضاب شرقاً الى عبد الكريم في أجدير • ولم تمض ساعات قليلة حتى وردت معلومات أكثر دقة ، يحملها السعاة ، هؤلاء الفتية الريفيون الراسخو الأقدام الذين يستطيعون أن يستمروا في خبب وئيد ساعة تلو ساعة• ان الاسبانيين يغزون الريف كما تنبأ عبد الكريم • وأرسل رسلا يحذرون أعضاء مجلس بني ورياغل ، فكان جوابهم ضحلا • ان ١٢٥ رجلا فقط قد استجابوا لنداء عبد الكريم الداعي الى حمل السلاح • لكنه رأى أنهم رجال صالحون عندما تجمعوا في أجدير : انهم جبليون قساة ، قد تمرسوا على تحمل الأحوال الجوية المتقلبة والحرمانات المتنوعة ، وتعودوا منذ الطفولة على الركض والتسلق ، وكل رجل منهم يشكل وحدة تكفي ذاتها ، فهو يحمل طعامه وشرابه وسلاحه ، قد تدرب على القتال والقتل ، كما أنه رام حاذق ، وجميعهم مسلحون ببنادق الموزر ذات الخزان ، وقد ابتاعوها من المواقع الاسبانية • وان الذخيرة لضئيلة ، فكل رجل لايملك أكثر من عشر طلقات ، لكن عبد الكريم قد حسب حساب هذا الضعف ، فاشترى من ماله الخاص ١٦٠٠ طلقة من ضابط اسباني في قلعة الجزيرة ، وقد كلفته كل طلقة ١١ بيزو ، وهو ثمن فاحش جدا • وتفقد عبد الكريم جيشه الصغير ، وانتزع من رجاله وعداً واحداً فقط ، ألا وهو أن « يقاتلوا ما بقوا أحياء » • وارتفعت صيحة مدوية تشير الى موافقة الريفيين • وهذا عبد الكريم، وأخوه الى جانبه ، يقود الجماعة الانتحارية في اتجاه الشرق •

ان **الحركة** ، وهي الكلمة التي يستعملها أهل الريف للدلالة على أية قوة عسكرية، أكبيرة كانت أم صغيرة ، قد غادرت أجدير ليلا كي تتفادى اثارة شكوك الاسبانيين الموجودين في القلعة ، وبلغت أسفل الهضاب في الشرق عند الفجر ، وقضت ذلك النهار بطوله تتسلق دروب الماعز الضيقة المؤدية الى جبل أبران ، القمة الشاهقة المشرفة على وادي أقرموس من الشمال •

* * *

غادرت وسعيد الخطابي ، في عام ١٩٦٤ ، أجدير في الساعة التاسعة صباحاً ،

سالكين الطريق الطويلة الملتفة حول الجبال بصورة عكسية ، ولما بلغنا ميدار بالطريق الحديثة خـــلال ساعتين أخذنا دليلا ، العجوز الله أبيش الـــذي خاض في شبابـــه سلسلة المعارك التي وقعت في وادي أقرموس عام ١٩٢١ • ومضينا ، وأبيش مع ريفي آخر في مؤخرة السيارة ، الى تيزي عزة ، وهي قرية تقع عند أسفل جدار الصخر الذي يرتفع ٤٠٠٠ قدم مطوقاً الوادي • ان الدرب الجبلية التي كانت عارية ذات يوم قد أصبحت اليوم طريقا صالحة ،رغما عن وعورتها ، ترتفع متعرجة متلوية حتى المعبرالذي تذروه الرياح حيث توقفنا • وقادنا أبيش عبر هذا الممر مشيا على الاقدام •

ان الوادي التاريخي ينتشر تحتنا • انه يشبه ، بالجبال التي تطوقه ، مرجـلا عملاقا ، وأرضه المتموجة مرقطه بالهضاب الواطئة • كان ذلك الصباح مـن تشريـن الاول (اوكتوبر) مضبباً بحيث لاقينا بعض الصعوبة في تمييز الاماكن التيكان أبيش يدلنا عليها • ان بقعة من الخضرة في طية من الأرض تمثل أنوال ، القرية الرئيسية في وسط الوادي • وكانت هضبة واطئة متطاولة ترتفع الى اليســار منها ، وقد أخبـرنا أبيش أنها اغريبن • وفي المدى البعيد ، في الشمال الغربي ، كانت تنهض قمة أبران •

وكنت أعرف أن « أغريبن » ، و « أبران » و « أنوال » هـي ميادين القتـال التاريخية التي كسب عبدُ الكريم فيها انتصاراته الكبرى • ان هـذه الأسـماء تمثل بالنسبة الى أهل الريف ماتمثله تيرموبيلاي وكريسي وساراتوغا بالنسبة الى الغربيين• ان الحركة الريفية الضئيلة قد قاتلت في هذا الوادي الغزاة الذيـن يجتاحـون أرضها بنسبة رجل واحد لكل ثلاثين رجلا • ولا يستطيع أي انسان في الوقت الحاضر أنيكون على يقين من المجرى المضبوط للأحداث التي وقعت في الوادي خلال أشهر ايار (مايو) وحزيران (يونيو) وتموز (يوليو) ١٩٢١ ، اذ لم يبق على قيد الحياة الا عدد قليل من الأسبانيين ، ولم يكن الريفيون يسجلون الوقائع • أما المعمرون الذين تحدثت اليهم فما كانوا يتذكرون التواريخ أو التفاصيل • لم يكن هناك أحد من أمثال وليم هـوارد روسل أو ارشيبالد فوربس أو ريتشارد هاردنغ ديفيس ليرسم صوراً بالرصاص عن القتال ، هذا الاشتباك الغامض ، المعلق في الهواء ، الذي كان يمكن أن يقول ج•ا• ماك غاهان بشأنه ، كما قال في بلغاريا عام ١٨٧٧ ، ان « أحداً لم يشاهد معركة قط » •

* * *

كان القسم الاساسي من الجيش الاسباني يعسكر في الوادي في أواخر أيار (مايو) ١٩٢١ • وكان خط رقيق من المواقع ، التي تشرف حامية صغيرة على كل منها ، يمتد الى الوراء منه • واذا ما أخذنا هذه الحاميات بعين الاعتبار ، فضلا عن ذلك القسم من الرتل الذي مضى في اتجاه سيدي ادريس ، فان القسم الباقي من الجيش لم يكن يتجاوز ١٤٠٠٠ رجل • وعمد الأسبانيون ، فيما عدا احتلال الوادي ، الى انشاء الحصون فوق القمم المجاورة ، وهو احتياط أساسي لم يتوانوا عن تحقيقه • واما بنى سيلفستر مواقعه على هذا الغرار ، فقد كان في نيته أن يتقدم غرباً عبر الممر الضيق القائم تحت جبل أبران ، هذه النقطة الستراتيجية التي شيد عليها الاسبانيون حصناً أقاموا عليه ٣٠٠ رجل •

كان أبران يشرف على الوادي وعلى الطريق المؤدية الى الغرب في وقت واحد • وان الجيش الذي يحتله ، اذا كان مجهزاً بالمورتر والمدفعية ، يستطيع أن يسيطر على الموقف، لأن حاميته تستطيع تأمين عبور الممر كما تستطيع أن تجعل احتلال القسم الغربي من الوادي أمراً لايمكن الابقاء عليه • وكانت سلسلة القمم العالية المحيطة بالوادي دون ذلك قليلا في الأهمية : فاذا ما أخفق الاسبانيون في الاحتفاظ بها ، فان أعداءهم سيحشرونهم في فخ لا سبيل الى الافلات منه اذن • وهكذا فقد كان من الحيوي أن يحتفظ الاسبانيون بهذه المراكز المسيطرة ، سواء أكان في نيتهم التقدم أم التراجع • وكان الجنرال سيلفستر ينوي أن يتقدم ، ولم تخطر في باله قط امكانية الجمود • ولم يكن يتوقع أن يصادف مقاومة ، ومن المؤكد أن هذه المقاومة لن تصدر عن عصابة ممزقة من رجال القبائل ، هذه القوة غير المجهزة بالرشاشات أو المورتر أو المدفعية ، التي تؤلف جيشاً هزيلا يقوده قاضي بلدة صغيرة •

وبلغ عبد الكريم ورجاله الذرى التي تسيطر على الوادي من الغرب مع هبوط الليل غداة مغادرتهم أجدير • ولم يشعلوا ناراً : استلقى الرجال على الأرض ملتفين بجلابياتهم البنية ، غامضين غموض الصخور التي يربضون ما بينها • وفي اليوم التالي، مع الفجر ، تسلق عبد الكريم مع أخيه محمد القمة التي تواجهها ، ومن هناك سبرا الوادي الذي يمتد تحتهما ، جاهدين للحفاظ على جسديهما تحت خط السماء • وكان عبد الكريم يتطلع من خلال المنظار الذي ابتاعه في مليلا ، ومحمد من خلال المقراب الذي حصل عليه في مدريد •

اجل ، انه يتذكر ذلك الصباح ، كما روى لي محمد الخطابي حين استفسرت منه في القاهرة بعد ذلك بثلاثة وأربعين عاما • ان ما أذهله هو عدد الاعداء • كان يبدو أن الاسبانيين موجودون في كل مكان • كانت مجموعات منقطة من الخيم تقوم حول أنوال ، وكانت قوة من المدفعية تقف الى الخلف منها • وكانت أرض الوادي مغطاة بالعسكر ، فبعض الكتائب تقوم بعرض عسكري ، وسرايا وفصائل تسير هنا وهناك ، بعضها يقوم بمهمة الحماية ، وبعضها يجمع العلف ، وبعضها يحمل المؤن الى القلاع المشيدة على قمم التلال • وبلغته أصوات الابواق وقرع الطبول ، خافتة ، يحملها نسيم الصباح الباكر • وطالعته ، من خلال مقرابه ، لوحة متنافرة تنتشر أمام عينيه •واماركز المقراب ، فقد شاهد محمد امرأة تستوفز عند ساقية تسرح شعرها الطويل • وزحف جندي الى الوراء منها ، والتقط صخرة والقاها في بركة المياه الراكدة ، فلفت الفتاة موجة من المياه • كان هذا الحادث الرعوي يشير الى أن الاسبانيين غافلون تماما عن كون أعدائهم أقرب اليهم من حبل الوريد •

ولاحظ محمد أن أخاه يخص باهتمام كبير القلعة القائمة على جبل أبران ، الى اليسار منهما مباشرة • وقال عبد الكريم وهو يرفع المنظار عن عينيه : « أبران هو المفتاح ، فاذا استطعنا أن نستولي على القلعة تمكنا من السيطرة على الوادي • » فأجاب محمد : « هذا سهل على القول ، لكن تحقيقه أمر شاق جداً • » ان صورة أبران ، المأخوذة من الجنوب الشرقي (اللوحة رقم ١) ، تعطي فكرة عن جرأة خطة عبد الكريم • كانت قمته عام ١٩٢١ مسورة بجدار حجري واطىء ، وكانت منحدراته شديدة الانحدار ، عارية غدارة • وكان ٥٠٠ رجل يربضون بين متاريسه ، مجهزين بأربعة رشاشات ، ومدفعي مورتر ، ومدفع جبلي واحد • وكان جيش مؤلف من ١٤٠٠٠ رجل يقف على مسافة عشرة أميال من ذلك المكان •

وهبط الاخوان الخطابي المنحدرات الى حيث ينتظرهما رجالهما ، ودعاهم عبد الكريم الى مجلس استشاري ، على الطريقة الريفية الديموقراطية في تقرير أي شيء • ان الموضع الذي اتخذ القرار العظيم فيه يدعى القيادة ، وهو المكان نفسه الذي التقى فيه قضاة الريف في تشرين الاول (اوكتوبر) المنصرم • ولقد أخبرني أحد الرجال الذين كانوا حاضرين ، علي بن محمد أشهبار ، وكان عام ١٩٢١ صبيا في السادسة عشرة من العمر ، عن المناقشة التي جرت يومذاك ، قائلا انه لم يكن ثمة شك في أنهم سيحاولون

الاستيلاء على القمة ، لكن المسألة الوحيدة كانت بالنسبة اليهم هي كيف يمكنهم أن يفعلوا ذلك ؟ وحين سألت كيف تم ذلك ، تلقيت هذا الجواب الموجز : «زحفنا متسلقين، وقفزنا من فوق المتراس ، واحتللنا القلعة » • وأدركت أن الامر لا يمكن ان يكون قد تم على هذا القدر من السهولة •

ولقد وجدت من العسير ، خلال كل الاستقصاء الذي قمت به عن معارك الحرب التيخاضها عبدالكريم،أنأقنع اولئك الذين اشتركوافيها بتزويديبالتفاصيلأوأخباري بحقائق هذه الاحداث التي جرت • وكان محمد أشهبار ، الذي التقينا به في الحسيمة ، رجلا مهذارا تحدث الينا حتى ساعة متأخرة من الليل • وكان ابن عبد الكريم يترجم لي سيله المتدفق من الكلام البربري ، لكنني لم استخلص منه الا الشيء القليل ؛ كان من المحال حشر أشهبار في التفاصيل ، كما أنه لم يتحدث قط عن مساهمته الخاصة في المعركة • وحصلت من محمد الخطابي ، الرفيع الثقافة والخارق الذكاء ، على معلومات أكثر وضوحا • ان الهجوم على أبران جرى عند الفجر في ٣١ أيار (مايو) •

كانت المفاجأة امرا أساسيا • وكان يجب على الريفيين أن يستولوا على القلعة سريعا ، قبل أن يستطيع الاسبانيون الذين في الوادي ارسال النجدات الى فوق • وأحاطت الحركة تلك الليلة بالقمة وتسللت منحدراتها وجروفها • تسلق القسم الاكبر من الرجال الجبل في دائرتين متراكزتين ، تقف الحلقة الخارجية منهما وتغطي المتاريس ببنادقها بينما تزحف الحلقة الداخلية صعودا ، ثم يقف رجالها في وضعية الاستعداد بينما الحلقة الخارجية من الرجال تتقدم صاعدة ، وتتجاوزهم ، وكل حلقة تكرر هذه المناورة بصورة دورية • وتسلق قسم آخر من الرجال ، بقيادة محمد الخطابي ، الحافة الشمالية الشرقية من القمة ، وكانت مهمتهم الالهاء • كان عليهم عند الفجر أن يمشوا بكل اقدام الى القلعة ، زاعمين أنهم قوة اغاثة من التابعين المولدين الذين ضلوا طريقهم في العشية • وكان رجل ريفي ضخم يسير معهم ، رجل يدعىمحمد ،وكانمصارعاشهيرا•

وارتاح المتسلقون ، قريبا من ذروة القمة ، ينتظرون الاشارة من عبد الكريم الذي كان يستلقي مع رجاله فوق المنحدرات الجنوبية • كان الهدوء سائدا ، ولم يكن أحد من الرجال يأتي حركة • ولم تأت أية أصوات من عل ، فالاسبانيون نيام ، لا تراودهم أدنى شبهة • وأدار عبد الكريم رأسه في اتجاه الشرق ، وراح ينتظر الفجر • وهمس في أذن جاره يقول : « اني أمسك بندقيتي بيدي وأضع رجلي الواحدة في القبر » ، وتلك

هي الطريقة الريفية للقول انه يتوقع أن يقتل ، لكنه سيقاتل حتى النفس الاخير •

كان الطقس باردا بصورة مريرة ، وكان الفجر يتباطأ في الاشراق • وأخيرا ، جعلت السماء تضيء من ناحية الشرق • واستدار عبد الكريم على يديه وركبتيه ، فأمر محمد الخطابي ، على كتف الحافة الجبلية ، رجاله بالتقدم ، موجها « تابعيه » صوب بوابة القلعة • ونبهت الضوضاء الحرس ، فهتف محمد ردا على نداء الحرس : « اسبانيون ، اسبانيون » ، شارحا باسبانية سلسلة هويتهم • وفيما حول القمة ، صوب الرماة الذين يدعمون الفريق المهاجم بنادقهم على المتراس في العالي • ولم يسمع الاسبانيون الناعسون أو يميزوا الرجال الملتفين بالعباءات البنية والزاحفين على حافة القمة • واما أصبح عبد الكريم على مسافة عشرين ياردة ، فقد قاد رجاله في هجوم صاعق • وتعالى هتاف الريفيين : « لا اله الا الله » • عندئذ رمى محمد الخطابي ورجاله الحرس عند البوابة ، وكان الرماة من الخلف يطلقون النار على الرؤوس التي ترتفع فوق المتراس • وقفز الريفيون من فوق الجدار : لقد كانت المفاجأة كاملة • وهب الاسبانيون المروعون ، وتناولوا بنادقهم وحرابهم • واندفع ضابط من احدى الخيام ملوحا بمسدسه ، لكن أحد رجال الريف رماه أرضاً وسحق رأسه بعقب بندقيته •

كانت الفوضى التامة سائدة داخل حدود القلعة • وتدفق الريفيون المائة والخمسة والعشرون من فوق المتاريس ، البندقية في يد وسكين طويلة مقوسة في اليد الثانية • واستخدموا سكاكينهم حيث كان ذلك ممكنا ، لان الذخيرة كانت ثمينة جدا • انقضوا على الاسبانيين ، يطلقون النار ، ويقطعون ويطعنون • وارتفعت من كل حدب وصوب صيحات الجرحى وأنات الموتى ، بينما ترددت من كل حدب وصوب أصداء نيران البنادق وطقطقة الرشاشات حين استجاب بعض الاسبانيين الى أوامر ضباطهم • وقاد قائد القلعة ، النقيب سالنسرنتا ، وهو رجل هرقلي البنية ، هجوما معاكسا ، لكن محمدا المصارع اندفع اليه • وتماسك الرجلان ، وقد أطبق سالنسرنتا على اليد التي يحمل محمد سكينه بها ، بينما أطبق محمد على مسدس خصمه • وكانت المعركة متأججة حول المصارعين • ولم يلمح الا ريفيون قلائل ذلك اللقاء الشخصي الذي دخلت قصته في الاسطورة الريفية • لقد سقط سالنسرنتا ومحمد ، وهما ينقلبان ويتلويان ، فوق المتراس ، وكانت انتفاضات قليلة كافية لتحملهما من فوق الحافة ، فسقطا في الهوة على الصخور متعانقين عناق الموت الاخير •

وكانت المعركة دائرة الرحى على الهضبة • ان الريفيين ينتصرون • ان هؤلاء الذين قد يكونوا أعظم محاربي العالم في القتال القريب قد ألقوا بأنفسهم على جمهـرات الاسبانيين المحتشدين في فوضى ، يقطعونهم ارباً ، ويذبحونهم ، ويهزمونهم • وكان الرجال الجرحى أو الذين يعانون سكرات الموت ينسحبون من المعمعة مترنحين • وكان ملازم اسباني شاب ، قد جرح في وجهه جرحا بليغا ، يستلقي على الارض منتظرا الموت في وحدة أليمة ، فأجهز ريفي عليه • ان الاسباني الاخير قد قتل : لم تطلب الرحمة في هذه المعركة أو تعطى • وانتهى القتال بانتصار الريفيين •

ولم استطع أن أعرف كم من الوقت استغرق الهجوم على جبل أبران على وجـه التحديد ؛ ومن المرجح أنه انتهى في أقل من ثلاثين دقيقة • ووجد الريفيون في القلعـة ٥٠٠ بندقية ، ومدفعي مورتر ، وأربعة رشاشات ، والمدفع الجبلي ، وهي جميعا كنوز لا تصدق • وتعلموا سريعا ، بقدرتهم المدهشة على التكيف الآلـي ، كيف يستعملون الرشاشات ، بله المدفع الذي كان كلا عبد الكريم وأخوه معتادين على آليته • بيد أن المورتر ، هذه الآلة الحربية المجهولة لهم ، قد تحدى خبراتهم الباكرة التي كلفت أحد الريفيين يده اليمنى •

وجاءت قوة اسبانية على عجل عبر الوادي لتشن هجوما مضادا • وأدار الريفيون المدفع حول محوره وجروه الى المنحدرات تحت ، وكانت طلقات تسديدية قليلة كافية كي يحددوا المرمى • واضطرت القنابل المتفجرة الرتل القادم للنجدة الى التقهقر من جديد ، كما أن بطاريات الاسبانيين الجبلية أخفقت في تحقيق الارتفاع المطلـوب ، فسقطـت قنابلها دون علو القمة • وهكذا أصبح الريفيون يسيطرون على القســـم الشمالي من الوادي وعلى الطريق الى أجدير •

أما الزعم الذي قاله وردده مؤلفون عديدون من أن الريفيين استولوا على جبـــل أبران لان التابعين الاسبانيين المولدين قد تمردوا فهو زعم باطل تماما كمـا أكد لـي ريفيون عديدون • انهم وحدهم قد حققوا هذا الانتصار •

وأرسل نبأ استيلاء القوة الريفية على جبـــل ابران بالهليوغراف الى الجنـرال سيلفستر في سيدي ادريس ، فنقل بدوره هذه النكسة الصغرى بالراديو الى تطوان • وذهل الجنرال بيرنجر حين علم أن جيش سيلفستر موجود في وادي أقرموس ، فنقل الخبر الى مدريد وركـب الى سبتة حيث صعـد الى ظهر المركب الحربي برنسيسا دي

استورياس الذي حمله الى سيدي ادريس حيث وصل في الخامس من حزيران (يونيو) • وصعد سيلفستر اليه ، فانسحب الجنرالان الى حجرة القيادة ليتشاورا • واتهم بيرنجر سيلفستر بعصيان الاوامر ، لكن سيلفستر لوح برسالة الملك الفونسو فيوجه المفوض السامي • وأعقب ذلك شجار عنيف ، ويقال ان سيلفستر أطبق على حلق رئيسه ، وان الرجلين تدحرجا على الارض ، وهي قصة غير معقولة ،لان بيرنجر أخبر مدريد ، لدى عودته الى تطوان ، بأن هزيمة أبران لا تعدو كونها نكسة مؤقتة ، وأن الوضع ليس خطيرا في حال من الاحوال • ومهما يكن من شيء ، فقد ساد مدريد قلق عظيم ، وكان يشاع هناك أن سيلفستر قد تقدم بناء على أمر شخصي من الملك •

وأخفق الاسبانيون في اخراج الريفيين من أبران ، فرجعوا الى انوال ، تاركين عبد الكريم سيدا على القمة • وحين تراخى خطر الهجوم المضاد ، استدعى عبد الكريم مجلسا، وعلم أن أربعة من الريفيين فقط قتلوا في الهجوم • وأعلن عبد الكريم انه يجب عليهم أن يواصلوا انتصارهم ، وأن يستنهضوا قبيلة تمسامان لنصرتهم ، الامر الذيلن يكون سهلا ، لان معظم رجال هذه القبيلة يعيشون بين الاسبانيين الذين يحتلون الوادي •

واقترح واحد من الريف أن يضعوا تمسامان تحت وطأة عار شديد كيما يجبروهم على أن يصبحوا حلفاء لهم • لكن عبد الكريم أشار الى أن حركة بني ورياغل لا تملك شيئا تضحي به ، اذ ليس لديهم ماشية أو ماعز أو دجاج • وقال ان لديه فكرة أفضل • وهكذا خرج في تلك الليلة من القلعة ، وحيدا وأعزل ، وشق طريقه عبر الوادي الى قرية تقوم على الهضاب فيالجهة المقابلة• وأيقظ الرجال هناكوأرسلهم ليستدعوا أعضاء مجلس القبيلة • ولم يكن لرجال تمسامان زعيم في ذلك الحين ، وكان عبد الكريميعرف انهم يحتاجون الى قائد • وحين جاء اعضاء المجلس اليه أخبرهم قائلا : « ليس لدي ثور أذبحه وأجبركم بذلك على التحالف معي • لقد ربحنا نصرا عظيما ونحن في حاجة الى مساعدتكم • » ان بني ورياغل وتمسامان يستطيعون معاً أن يهزموا الاسبانيين •

ان هذا التفسير غير المألوف الذي قدمه عبد الكريم لنظام تحالف الليف قد كسب رجال تمسامان • انهم لايستطيعون ، بموجب القانون والعرف القبليين القديمين ، أن يرفضوا طلب عبد الكريم المباشر للمعونة • وأثارهم نصره العظيم على الاسبانيين الذين احتلوا أراضيهم القبلية ، وما كانوا يحتاجون سوى لقائد يقنعهم بالواجب المترتب عليهم • ووافق المجلس القبلي ، الذي التأم على جناح السرعة ، على تعبئة حركة تنضم

الى رجال بني ورياغل • وفي تلك الليلة أخرج ٥٠٠ رجل بنادقهم من مخابئهما حيث أخفوها لدى قدوم الاسبانيين ، وتحركوا فرادى وفي جماعات صغيرة الى الجبال المحيطة بالوادي • وأرسل عبد الكريم يطلب نصف رجاله من أبران ، والتحق بحركة تمسامان في كهف واسع حيث أوضح الخطوة التالية لحلفائه المتشوقين الآن • يجب عليهم أن يستولوا على حصون الاسبانيين على الهضاب المحيطة بالوادي •

وشرح لي أبيش كيف تم الاستيلاء على أحد هذه الحصون • كنا نقف في الممر المشرف على الوادي من جهة الجنوب الشرقي ، وكانت هضبة عالية ترتفع عن يسارنا • وأخبرني أبيش قائلا : « لقد كنت أحد أفراد الحركة التي استولت على ذلك الحصن • » وحين سألته كيف فعلوا ذلك أجابني بقوله : « تعال ، وسأبين لك • » وتسلقنا الهضبة حتى منتصفها • وأوضح لي أبيش كيف أن الحامية الاسبانية ، التي تيقظت بعدكارثة أبران ، قد ردت هجومهم الاول • « عندئذ نسفنا الحصن » • وحين أبديت دهشتي أشار الى حفرة لاتبرح واضحة في عطف الهضبة ، وقال لي : « هذا فم النفق الذي حفرناه »• تطلعنا الى داخل الحفرة ، فوجدت أن النفق يمتد تحت الحصن الواقع فوقه• وقادني أبيش الى قمة الهضبة ، وكانت مطوقة بعد بمتراس ترابي • وكان في وسط الحصن حفرة واسعة أشار اليها أبيش موضحا : « ههنا انفجر بارودنا » • لقد حفر ورفاقه النفق وملأوا نهايته ببراميل البارود التي استولوا عليها من الاسبانيين • سألته: « ألم يلاحظ الاسبانيون ماتفعلونه ؟ » فقال أبيش انه يعتقد انهم شكوا في ذلك بالتأكيد ، لان عددا من الاسبانيين هربوا من مؤخرة الحصن عندما فجر الريفيون الشحنة • واستطرد يقول : « اطلقنا عليهم النار وهم يعدون هابطين سفح الهضبة » ، وأضاف ان الريفيين استولوا بهذه الطريقة على عدد كبير من الحصون •

لقد استولى الريفيون الخمسمائة ، رجال بني ورياغل وتمسامان ، على حصن بعد حصن خلال شهر حزيران (يونيو) وأوائل تموز (يوليو) • أما كيف فعلوا ذلك في وجه جيش اسباني يعد ١٤٠٠٠ رجل ويعسكر على مسافة أقل من عشرة اميال ، فهذا ما يتحدى الادراك ، لان الباقين على قيد الحياة كانوا ينفرون من الحديث عن مآثرهم • لكنهم فعلوا ذلك ، وتلك حقيقة واقعة ، وفي اواسط تموز (يوليو) تحركت الحركة هابطة الجبال الى الوادي بالذات •

هزيمة اسبانيا

اتخذ القرار القاضي بالهبوط من الجبال واجبار الاسبانيين على القتال في أرض الوادي في اجتماع جماهيري لرجال القبائل عقد على منحدرات الجبل على مرأى من الاسبانيين انفسهم ٠ فبعدما انضمت تمسامان الى الحركة ، جلب عبد الكريم رجاله من أبران ، مستبدلا اياهم بحامية من رجال القبائل المحليين ٠ أصبحت قوته تتراوح الآن بين ٥٠٠ و ٦٠٠ رجل ، وقد أكد لي أخوه أن الحركة الريفية لم تتجاوز في أي وقت من الاوقات هذا العدد خلال شهري حزيران (يونيو) وتموز (يوليو) ١٩٢١ ، وأضاف ان رجال تمسامان ، الذين لم يتبدل عددهم ، كانوا يتغيرون بصورة افرادية ، فيذهب رجل الى بيته ويرسل رجلا آخر يحل مكانه ٠ ولقد استخلص عبد الكريم عبرة من الحادث التالي : فقد أعلن أحد الرجال أنه متعب وأنه يود رؤية أسرته ، فاذا هو يقتل في قريته الخاصة بقنبلة أسقطتها طائرة اسبانية ، بينما ظل البديل الذي أخذ مكانه على قيد الحياة ٠ وأشار عبد الكريم الى أن موتهم أو حياتهم أمر بيد الله وحده ، فاذا كان مكتوبا لهم الموت فلا بد أن يموتوا ، وانه لمن الافضل ان يقاتلوا ويموتوا من أن يعيشوا في العبودية ٠ ولقد استشهد على هذا الرأي بمثل ريفي مشهور : « اذا لم تذهب لملاقاة عدوك ، فسوف يأتي هو نفسه لملاقاتك » ٠ وهكذا أكد ان الهجوم هو المدفاع الافضل ، واذا لم يأت الاسبانيون لمهاجمتهم ، فيجب أن يذهبوا هم أنفسهم للبحث عن الاسبانيين٠

اما السبب في أن الاسبانيين سمحوا ، بمثل هذا الذل ، لاهل الريف بأن يستولوا على النقاط القوية المحيطة بالوادي ويحتفظوا بها ، فتلك أحجية ليس من جواب حاسم عليها ٠ كان الجسم الاعظم من الجيش الاسباني سليما بعد ، وكان سيلفستر مصمما على الاندفاع الى خليج الحسيمة ، وقد أخبر الجنرال بيرنجر الذي حاول ايقافه : « سوف أشرب الشاي في دار عبد الكريم في أجدير شاء ذلك أم أباه » ٠ وفي الاجتماع الذي عقد

أقرموس • ان رسالة الملك الخاصة الى سيلفستر قد وضعت بيرنجر في مأزق محير : فكائنا ما كان استياؤه من تقدم سيلفستر غير المرخص به ، فهو مجبر على القبول بالامر الواقع • أما أصدار الامر اليه بالعودة الى مليلا ، فذلك معناه الاستخفاف برغبات الملك، ولم يجد بيرنجر في نفسه مايكفي من القوة كي يتحدى ألفونسو • وجنح أخيرا الى حل وسط بأن حظر على سيلفستر مواصلة التقدم في الريف • وراح سيلفستر يتبجح : « ان جنودي قساة هم أيضا » • واضطر سيلفستر ، في تصادم الارادتين ، أن ينحني أمام رئيسه • ولم ينحن بامتنان ، وبقي في سيدي ادريس ينتظر تفويضا جديدا من الملك ، وكانت عطالته في مصلحة عبد الكريم •

احتل الريفيون في ١٥ تموز (يوليو) رقعة من الارض المرتفعة في سيدي ابراهيم عند النهاية الجنوبية الغربية من الوادي • عندئذ احتل الاسبانيون اغريبن ، الهضبة الواطئة المتطاولة الواقعة على بعد خمسة أميال جنوبي أنوال • وكان عبد الكريم يأمل في أن يعمدوا الى هذا التدبير ، لأنهم يخلقون بذلك ضعفاً خطيراً • ان اغريبن تبعد أربعة أميال عن الماء ، ولابد لحاميتها أن تزود عبر أرض متموجة وعرة ، عبر منطقة من التربة الصخرية التي يجتازها أخدود عميق • وحين رأى عبد الكريم أن احتلال اغريبن قد تم، ألقى قواته بين الهضبة وأنوال • واندفع رجاله الى الأرض ، يحفرون « حجوراً ثعلبية » وخنادق طولانية تفصل بينها مسافات مناسبة وتتوزع على منطقة واسعة • وكانت بعض هذه الخنادق تواجه اغريبن ، لكن غالبيتها كانت تغطي ناحية القدوم من أنوال ، من حيث لابد أن يأتي الهجوم • وكان الطابور الخامس التابع لعبد الكريم داخل القرية، رجال القبائل المقيمون فيها بعد ، يخبرونه عن كل حركة يقوم الاسبانيون بها •

أصبح الفخ جاهزاً في ١٧ تموز (يوليو) • كانت الشمس تضرب الأرض بقسوة، وكان القيظ لايطاق • وفي اليوم الثامن عشر من الشهر الجاري اتصلت حامية اغريبن بأنوال بالهليوغراف تنبئها عن افتقارها الى الماء • وقال الرائد بنيتز ، قائد الحامية ، ان محاولتين للوصول الى مجرى الماء في الأخدود قد باءتا بالفشل ، فأنبىء أن قوة من النجدة سترسل في اليوم التالي • وفي تلك الليلة تسلل رجل من تمسامان خارج أنوال حاملا الأنباء بأن الاسبانيين يستعدون للتقدم • وقام عبد الكريم وأخوه بجولة في الخطوط ، يفتشان مراكز الدفاع ويستحثان الرجال على أن يظلوا تحت التغطية •

وخرج الاسبانيون مع شروق الشمس في اليوم التالي من أنوال في ثلاثة أرتال ، يعد كل رتل منها حوالي الف رجل • وفي الوقت نفسه أرسلت حامية اغريبن فصيلة سخرة تحت حماية شديدة • وتسلقت الأرتال الثلاثة القادمة من أنوال المنحدر في اتجاه الريفيين الكامنين في الخنادق الذين لم يكن في الامكان رؤية أي منهم ، والذين تركوا الاسبانيين يتقدمون حتى مسافة ٢٠٠ ياردة قبل أن يطلقوا النار • ويقول عبد الكريم في مذكراته : « لقد تساقط الرصاص مثل المطر » • وترنحت كتلة الاسبانيين المتجمعين ، لكنهم واصلوا تقدمهم • واستمر الريفيون في اطلاق النار • وارتفعت جزية الموت كثيراً ، بحيث اضطر الاسبانيون الى التقهقر ، مخلفين ١٣٢ قتيلا • أما الفصيلة التي خرجت من اغريبن فقد اضطرت أن تتراجع عن الأخدود •

وبعد ظهر ذلك اليوم اتصل سيلفستر ، الذي قدم من سيدي ادريس الى أنوال ، ببيرنجر بواسطة الراديو يطلب النجدات منه • لكن بيرنجر أجاب بأن ليس لديه نجدات يوفرها ، ونصح سيلفستر بالبقاء في موقف الدفاع • وحاولت حامية اغريبن مرتين في اليوم العشرين من الشهر أن تصل الى الماء ، بالتعاون مع دعم متفرق من أنوال ، وأعلن بينيتز مستنجداً أن رجاله يشربون دماءهم الخاصة • وأرسل عبد الكريم رسولا تحت راية الهدنة يدعوه الى الاستسلام ، لكن بينيتز رفض أن يغادر حصنه • وأبرق الى أنوال يقول ان « الحامية أقسمت ألا تستسلم سوى للموت وحده » •

كان عبد الكريم على يقين من أن في استطاعة رجاله كسب النصر ، وذلك على الرغم من أن عاملين قد أقلقاه • كانت الذخيرة تنضب ، اذ لم يبق سوى خمس وعشرين رصاصة على وجه التقريب لكل رجل • وكان الكثيرون من الرجال متعبين ، كما علم حين تجول في الخنادق ، وقد أعلن عدد كبير منهم أن الحركة قد قامت بعمل كاف ، فهم راغبون في العودة الى بيوتهم كي ينشروا أكاليل الغار التي ربحوها • وكان عبد الكريم يعرف انه لايستطيع أن يمنعهم ، فهم متطوعون ، وحلفاء مؤقتون بموجب العرف القبلي • توسل اليهم : « ابقوا يوماً آخر فقط » ، واعداً اياهم بأن يكسبوا نصراً عظيماً • ولقد كتب عبد الكريم عام ١٩٥٣ يقول : « كنت واثقا من أننا سننتصر حين سمعت بأن سيلفستر يطلب المساعدة » • وكان عارفاً بالمنافسة بين سيلفستر وبيرنجر ، وبأن الأسبانيين ، « مثلهم مثل الشرقيين » يقسمهم الحقد والغيرة • وكان يعتقد أن سيلفستر سيواصل هجماته بالطريقة الطائشة نفسها • وساعد أحد الريفيين في اقناع رجال

القبائل المتعبين بأن ثمة نصراً عظيماً يمكن تحقيقه ، أذ أفاق في الصباح من نومه ، وغدا يعلن انه رأى فيما يرى النائم أن نملة ابتلعت المحيط ، وهو حلم رأى الرجل فيه نبوءة عن نصر يحققه داوود على غوليات ، وهي القصة الواردة في التوراة التي يعرفها المسلمون جميعاً ٠

وفي ٢١ تموز (يوليو) تدفق الاسبانيون من أنوال مثل النمل ، لقد خرجوا بكل قوتهم ، كما تبين لمحمد الخطابي من خلال مقرابه ٠ وكان الريفيون يطبقون صيام رمضان في خنادقهم وجحورهم الثعلبية ، فهم لايأكلون أو يشربون من شروق الشمس حتى غروبها ، وفي أوقات الصلاة يتناوبون على القتال والصلاة ٠ وسألت محمد الخطابي : « كيف هزمتم الاسبانيين ؟ » قال لي ان أخاه قرأ عن حرب البوير ، وقد تأثر بهذه الحقيقة ، ألا وهي أن عدداً ضئيلا من المزارعين في افريقيا الجنوبية ، المحاربين من أجل استقلالهم ، قد تمكنوا من ايقاف الجيوش البريطانية المدربة ٠ وكان يعتقد أن عدداً قليلا من الرجال الحازمين ، تحميهم الموانع الدفاعية ، يستطيعون أن يخلقوا حجماً من النيران لاتستطيع أية قوة مهاجمة أن تخترقه ٠ ولقد أثبتت الحرب العظمى في اوروبا أن البندقية ذات الخزان هي سيدة ميدان القتال ٠ ولقد حاولت الجيوش الاوروبية ، قبل عام ١٩١٤ ، أن تتغلب على التفاوت بين الهجوم والدفاع بشن هجمات كانت تكبدها خسائر هائلة في الأرواح ٠ وكان عبد الكريم يعرف أن الاسبانيين لايملكون ما يكفي من القوة كي يستخدموا هذه الخطة ، كما أن معنوياتهم لم تكن على ما يكفي من الارتفاع كي يتحملوا النكسات المتواصلة ٠

وراح محمد أشهبار يراقب الاسبانيين يتقدمون ٠ كان في السادسة عشرة من العمر ، وكان في حالة رهيبة من الهياج ٠ وشاهد الشمس تتألق على حراب الاسبانيين ، وسمع قعقعة مدفعهم وعجلاتهم تتدحرج فوق الأرض الصخرية ٠ وانتشرت همهمة مهتاجة بين صفوف الريفيين بينما الاسبانيون يتسلقون المنحدر بكل صعوبة ٠ وصدر من ناحية أغريبن هزيم من نيران البنادق ينذر بأن الحامية على أهبة الهجوم ٠ وقاد الرائد بيتينز ، منسقا تحركاته مع التقدم من ناحية أنوال ، رجاله الخمسمائة هابطاً بهم المنحدر في اتجاه الريفيين ٠ عندئذ أدار حدو أزحف المدفع المكلف به حول محوره وأطلق عدة قنابل في ملء صفوفهم ٠ ولقد تذكر أن عبد الكريم ذكره في العشية بأن الغداة سيكون ذكرى انتصار النبي العظيم في بدر ، قرب المدينة ٠ ولقد قال عبد الكريم اذن ، وهو يمسح على المدفع بيده : « ولم يكن النبي يملك مثل هذه الأسلحة » ٠

لم انجح في الحصول على أي تقرير متماسك عن معركة أنوال من اولئـك الباقين على قيد الحياة الذين صادفتهم · كان مجرد ذكر الاسم يثير حديثاً حماسياً ، لكنني لم أكن أستخلص منه الا تفاصيل قليلة - وحين طلبت من سعيد الخطابي أن يسأل محمد أشهبار ، تحدث العجوز طوال عشرين دقيقة · وقلت في نفسي اني سأحصل الآن على معلومات جيدة ، بينما سعيد يصغي الى ذلك السيل من الكلام البربري · واستفسرت : « ماذا قال عن المعركة ؟ » فرد سعيد قائلا : « يقول انها كانت أشبه بالعيد » · لم يكن ذلك ماكنت راغبا فيه ، ومع ذلك فلشدما كانت هذه الكلمات بليغة التعبير ! ماكان في مكنة أشهبار أن يصف المعركة الا بالمقارنة مع ذلك اليوم العظيم الذي يقطع شعبه فيه كل سنة صرامة الحياة بالاحتفال والابتهاج · وحدثنا قائلا : « اذا كان هناك معركة أخرى يخاض غمارها ، فسوف أحس من جديد أني في السادسة عشرة من عمـري » · ولقـد جرح جرحا بليغا في انوال ، اذ انفجرت قنبلة قريبا من جحره ، محطمـــة صخـرة تطايرت فأصابته احدى شظاياها في كتفه ، وبعدما انتهت المعركة ، ضمد « شـاف » ريفي ، أحد أفراد تلك الأسر التي تمارس الطب ، جرحه بلصقة من الأعشاب ، ومن بعد توجه أشهبار ماشياً الى أجدير ، وهي رحلة استغرقت منه خمسة ايام ·

وقدم لي محمد الخطابي وصفاً أكثر تماسـكاً عن المعركـة · كان الاسـبانيون يتقدمون بشجاعة ، وقد قصفت مدفعيتهم الخنادق الريفية · ولم يرد الريفيون حتى اصبح الاسبانيون على مقربة ، وعندئذ أطلقوا ، خلال دقائق قليلة ، كل الذخيرة المتبقية لديهم ، حوالي ١٠٠٠٠ طلقة · ولقد اخترقت رصاصات الموزر ، على مسافات ١٠٠ و ٢٠٠ ياردة ، عددا من رجال ، فكان مفعولها مذهلا ، اذ أحدثت فجوات مفرضة في الصفـــوف الاسبانية التي نكصت متقهقرة في سحابة من الدخان والغبار · تلك كانت « أم درمان مقلوبة » ، على حد تعبير أخي عبد الكريم · لقد كنس الاسبانيون تكنيساً ·وحين انقشع الدخان شاهدهم يتراجعون هابطين الهضبة · كانوا يولون الادبار نحو أنوال وقد ألقوا بنادقهم أرضاً · وربح الريفيون المعركة · وسألت محمداً : « ماذا جال في خاطرك حين تحققت من ذلك ؟ » كنا قاعدين انذاك في حديقة منزله في القاهرة ، فاستغرق الرجل الشيخ ، المديد القامة ، المهيب الطلعة ، في التفكير لبرهة وجيزة ، ثم قال : « تلك كانت معجزة » · ذلك أنه لم يجسر قط ، هو أو أخوه ، على الرجاء في مثل هذا النصر الذي كان يتجاوز أكثر أحلامهم جرأة وجنوناً ·

شاهد سيلفستر هزيمة جيشه من على سطح منزل في أنوال · ويقول عبد الكريم

انه فقد صوابه كلياً ، وهو تقدير يصعب على المرء ألا يوافقه عليه • لقد كان مركـز سيلفستر خطيراً ، لكنه لم يكن مشؤوماً بعد • ولو افترضنا أنه فقد نصف جيشه ، وهو أمر ممكن ، فان رجاله يتجاوزون الريفيين عدداً بعد ، كما أنه لا يبرح يشرف على الممر الشرقي عبر الحواجز الجبلية التي يقف وراءها عدد هائل من الرجال • وكان لديه فيض من الذخيرة والمؤن في أنوال ، وكان في مقدوره أن يحفر الخنادق وينتظر التعزيزات التي لا بد أن يرسلها بيرنجر الآن اليه بعد المأزق الذي وقع فيه ، أو كان يستطيع أن ينسحب بصورة منظمة عبر الجبال • لكن سيلفستر كان اعظم كبرياء من ان يعترف بأن حفنة من الريفيين قد ألحقوا به هزيمة شنعاء • وحاول أن يحفظ ماء وجهه ،فأخبر بيرنجر أنه أصيب بمجرد نكسة تافهة ، واعترف بأن معنويات الجنود سيئة وقال انه ينوي الانسحاب من الوادي •

لكن سيلفستر تأخر في الاخلاء • لقد طاف الريفيون خلال الليل في ميدان القتال ينقبون فيه ، وجمعوا آلاف الطلقات ومئات البنادق • ومن ثم انقسموا الى قوتين، فطوق عبد الكريم بنصف رجاله قرية أنوال ، بينما اندفع الرجال الباقون ، بقيادة أخيـه ، في الجبال المحيطة بالممر ، وما طلع الفجر حتى كانوا قد احتلوا المرتفعات المشرفة على الطريق • وأرسل عبد الكريم ، من الجانب الآخر من أنوال ، قوة من الرجال المختارين الى القرية ، فتغلغلوا بين المنازل تحت غطاء الظلمـة ، مسلحين بالسكاكين والحراب ، يضربون ويطعنون كل من يصادفونه من الاسبانيين • وضاعف هذا العمل الليلي الذعر في قلوب الأعداء ، وحين طلع النهار ، وأصدر سيلفستر أمره بالتراجع ، تحول هـذا التراجع الى هزيمة منكرة •

وتدفق الاسبانيون في السهل ، يحثون الخطى نحو فوهة الممر (انظر اللوحة رقم ٤) • وانقض الريفيون عليهم من الجانبين ، يطلقون النار ، ويقفزون ، ويتقدمون ويطلقون النار ، ويرمون بالاسبانيين المخلوعي الافئدة في المضيق القائم الى الامام منهم • وقامت فرقة كازا دوريس دي ألقنتارا بعمل دفاعي مقدام في المؤخرة ، لكن تعدادهـا راح يتناقص سريعاً بينما الرصاص الريفي ينهال عليها • وكان الفرار الجماعي مستمراً الى الوراء منها • وتزعم السلطات الاسبانية أن الجنرال سيلفستر انتحر على مقربة من الجسر الذي يعبر مجرى الماء داخل فوهة الممر • ومن المؤكد أنه قضى في ذلك الموضع ، لأن الريفيين تعرفوا الى جثته من بزته ومن الوشاح الاصفر الذي يلتف به ، وهم ينكرون أن يكون قد أطلق النار على نفسه ، مؤكدين انه قتل برصاصة ريفية ، ويسخرون من

القصة الاسبانية التي تزعم أن سيلفستر هرب ، وأنه يعيش متخفيا في قرية ريفيـــة ، خجلا من العودة الى اسبانيا ٠

وأخذ الجنرال نافارو ، معاون القائد العام ، أمر الانسحاب على عاتقه ٠ وشـق الاسبانيون طريقهم متسلقين الهضبة بكل صعوبة ، ومن بعد على طول السبيل الـذي تلفحه الرياح العالية والذي يؤدي الى السهول من تحت ، يطاردهم الريفيون الظافرون الذين كانت أعدادهم تتعاظم بما ينضم اليهم من رجال القبائل المحليين ، والرصاص ينهال عليهم من بنادق الرجال المتمركزين في المرتفعات ٠ وليس من يدري عدد القتلى في كل مرحلة من القتال على حدة ٠ ولقد أخبرني رجال القبائل المحليون بأن الخسائر الاسبانية الكبرى وقعت عند فوهة الممر ٠ وكان رجال القبائل يتدفقون من جبالهـــم بقدر ما كانت اخبار النصر في أنوال تنتشر ، واولئك الذين لايملكون سلاحاً يلتقطون البنادق عن الأرض ٠ وحين وصل الاسبانيون الاحياء بعد الى السهل ولوا الادبار عبر القفر الخالي من المياه ، متخلين عن وسائط نقلهم ، ومدفعيتهم ، وأسلحتهم ، وذخيرتهم ٠ وتخلت حاميات الحصون الصغيرة التي أنشئت لتكون مواقع حصينة عن مراكزهـا وفر افرادها مع الفارين ٠ وثارت قبيلة بني سعيد ، الذين تهاون الاسبانيون في تجريدهم من السلاح ، في مؤخرة هؤلاء الاسبانيين ، فأعملوا القتل في الهاربين واستولوا عـلى حصني سيدي ادريس وأفران اللذين لم ينج منهما الا قليلون أخلاهم مركبان حربيان ٠ وتوقف نافارو يوماً واحداً في باتل ، وحين بلغ جبل أرويت ، أو هضبة القنفذ ، في ٢٠ تموز (يوليو) ، لم يكن معه سوى ٣٠٠٠ رجل ، وكانوا أشد اعياء من أن يستطيعوا الذهاب أبعد من ذلك ٠

حط نافارو الترحال في جبل آرويت ، وهو مرتفع رملي فوق السهل على بعـد ثلاثين ميلا من مليلا التي تربطه بها سكة حديدية صغيرة ٠ وكانت الهضبة الحصينة ، التي شيد الاسبانيون عليها قلاعاً صغيرة من أجل حماية مستعمرتهم الزراعية ، تنهض على بعد حوالي ٥٠ ياردة عن الطريق ، وكانت تعاني من العيب المألوف في المواقـع الاسبانية ، اذ تنأى كما لاحظت مسافة ١٠٠٠ ياردة عن أقرب مصدر للماء ٠ وقد تميز حصارها من قبل الريفيين بحادثتين : فالقطار الذي أرسله نافارو محملا بالجرحى قد أخرج عن سكته ونسف ، كما أن ضابطاً شاباً هو المقدم فرناندو ريفيرا ، ابن دكتاتور اسبانيا المقبل ، قد خسر ذراعه اليسرى نتيجة انفجار قنبلة قريباً منه في الايام الاولى

من الحصار • ويروى انه التقط الذراع المتمزقة وألقى بها في وجه الريفيين الزاحفين • وسرعان ما تلوث جرحه خلال بضعة أيام فقضى ، وهو المصير الذي لحق بمائة وتسعة وستين جريحا آخر • أما المحاولات التي بذلها الطيارون من مليلا من أجل اغاثة الحامية بالقاء الطعام وكتل الجليد من طائراتهم فقد باءت بالفشل ، ورووا عند عودتهم الى قاعدتهم ان السهل من أرويت حتى الجبال كان مزروعاً بالجثث • وحين استسلم نافارو في ٢ آب (أغسطس) لم يكن قد بقي على قيد الحياة من الهاربين من أنوال سوى ٤٠٠ رجل • ان ما لايقل عن ٢٦٠٠ جندي قد قضوا نحبهم في المحاولة الفاشلة للدفاع عن الحصن ، وهو الموقع الأخير الباقي في يد الاسبانيين خارج مليلا •

لقد خسر الاسبانيون منذ الاستيلاء على جبل أبران في ٣١ أيار (مايو) حوالي ١٨٠٠٠ رجل ، أي جيشهم برمته في واقع الأمر • واستولى الريفيون على١٩٥٠٤ بندقية، و ٣٥٢ رشاشاً ، و ١٢٩ مدفعاً ، كما أخذوا حوالي ١١٠٠ أسير • ويقرر السير تشارلز بتري في كتابه **تاريخ اسبانيا** مايلي : « هكذا كانت كارثة أنوال التي قيض لها أن تؤثر في تاريخ اسبانيا تأثيراً بالغ العمق • ولو أن هذه الكارثة لم تقع لما قامت الدكتاتورية؛ ولو أن الدكتاتورية لم تقم لما قامت الجمهورية الثانية ، وبالتالي ما وقعت الحرب الاهلية » • ان اثنتيعشرة سنة من العملالاسباني في مراكش قد ذهبت في ومضة واحدة خلال أيام قليلة • وكانت خسائر الريفيين زهيدة كما أخبرني ممحد الخطابي •

واما تسلحوا الآن بالمدفعية والرشاشات والبنادق ومئات ألوف الطلقات ، فقد اندفع الريفيون ، وأعدادهم تتزايد كل يوم مع تدفق آلاف رجال القبائل الذين أقبلوا للانضمام الى المسيرة الظافرة ، عبر السهل الفارغ في اتجاه مليلا • وكانت المدينة الاسبانية القديمة تقبع لا حول لها ولا قوة ، وسكانها الذين يعدون ٥٠٠٠٠ نسمة تحت رحمة أهل الريف • وكان معظم السكان مدنيين أو لاجئين ، ولم يكن هناك سوى عدد ضئيل من الجنود من أجل ادارة وسائل الدفاع المرتجلة على عجل • وكان في المدينة ضباط أكثر من الجنود ، لان اولئك الذين تخلفوا ، أو رجعوا حين كان الجيش يتقدم بعد ، قد خرجوا من مخابئهم ، وأعلن بعضهم أنهم قد أفلتوا من بين أيدي أهل الريف• وفي التاسع من آب (اغسطس) ، سقطت نادور ، المدينة الاخيرة خارج مليلا ، في أيدي الريفيين الذين أطبقوا اذن على المرفأ • وركب آلاف الاهالي المذعورين المراكب التي كانت موجودة في المرفأ ، او تجمعوا على أرصفة الميناء أملا في النجدة • ما كانوا يشكون مطلقاً في المصير الذي ينتظرهم عندما يدخل أهل الريف المدينة • واقترحت السنيورا

نافارو ، زوجة الجنرال الأسير ، أن يعدم السكان المحليون الموجودون داخل المدينة رميا بالرصاص ٠

وحاصر الريفيون المدينة من جهة اليابسة ٠ وتجمعت الحركة ، وقد أصبحت تعد آلافاً عديدة ، حول القادة القبليين ٠ كان عبد الكريم قد أقام بضعة أيام في أنوال ، يشرف على جمع الأسلحة ، ودفن الموتى ، وتجميع الأسرى ٠ وحين تبين أن هذه المهمات الضرورية تتحقق بصورة فعالة فقد التحق بالمجلس الملتئم خارج مليلا ٠ وأصغى طوال اليوم الى القادة أو أعضاء المجالس ، وكل منهم يؤيد هذا القرار أو ذاك ، حتى اذا قال الجميع كلمتهم ، نهض عبد الكريم ليتكلم ٠ وعلى الرغم من كونه المنتصر في أبـران دايغريبن وأنوال ، فان مرتبته لم تكن سوى قاضي مدينة صغيرة ٠ ان انجازه العظيم يؤكده طاعة المجلس لقيادته غير الشعبية ٠ لقد أصدر عبد الكريم أمره بكل هدوء ، متوقعاً أن يطاع ٠ وكان ذلك قراراً عاش كي يؤهله ، لكنه لم يأسف له مطلقاً ٠



دولــة الريف

كانت الأنباء الاولى عن الكارثة التي وصلت الى تطوان مشوشة غامضة . وتحدث الهاربون من سيدي ادريس عن افناء جيش سيلفستر ، وعن مقتل الجنرال . ولم يصدق بيرنجر هذه الانباء ، فتقارير سيلفستر لم تلمح مطلقاً الى أن الوضع على شيء من الخطورة؛ كانت ايغريبين محاصرة من قبل بضع مئات من رجال القبائل فقط . أما الآن ، فان سيلفستر قد قضى ، بينما أصاب الفناء جيشه أو ولى الادبار . ونقل المفوض السامي الانباء الى اسبانيا ، ثم انهمك في اعداد رتل للاغاثة . وجاء تقرير لاحق يعرض مدى الكارثة الكامل . لقد استسلم الجنرال نافارو ، ولم يعد يقف بين مليلا والريفيين الظافرين المتدفقين بالألوف من الجبال سوى عدد ضئيل من الجنود . وأصدر بيرنجر أمره الى **الترسيو** ، الفرقة الأجنبية ، بالتوجه الى سبتة وركوب البحر الى مليلا .

واستقبل الشعب الاسباني الانباء بصيحات الغضب . ان جيشا كاملا قد محي من الوجود من قبل جنس بدائي عاجز عن صنع سلاح حديث . تلك كانت الكارثة العسكرية الكبرى التي منيت بها دولة استعمارية منذ خمس وعشرين سنة ، أي منذ دمر الحبشيون جيشاً ايطاليا في أداوا . وانتشرت الشائعات في مدريد تتحدث عن فضائح مختلفة وعن اشتراك الملك في الجريمة . ان الشعب الأسباني ، الذي أصابه الذهول وحل به العار ، قد جعل يضع الأمور في نصابها الحقيقي . وأمسكت حكومة وطنية بدفة الحكم ، وأرسلت قوة اغاثة على جناح السرعة الى مليلا . وكان مقرراً أن يخطب السفير الاسباني في لندن في الجمعية الجغرافية الملكية ليلة تلقت لندن أنباء أنوال . واما طلب منه أن يعلل الهزيمة ، فقد تغاضى عنها على اعتبارها « حدثاً من أحداث الحرب الاستعمارية » . ولم تمض ايام قليلة حتى طوقت السفارة الاسبانية من قبل متطوعين كانوا ينادون بتسجيلهم في الفرقة الاسبانية الاجنبية .

« ان مليلا على وشك السقوط » ، هذا ما أعلنه المقدم ميلان ـ استريي ، قائـد الفرقة في تطوان ، لآمر الكتيبة الاولى الرائد فرنشسكو فرانكو • وانه ليخبر مرؤوسيه قائلا : « لم يبق شيء البتة • فقد هزم جيش سيلفستر ، واصبحت المدينة بدون دفاع ، وفقد الناس صوابهم » • وقطع ثمانية آلاف جندي من أفـراد الفرقة المائـة كيلو متر الفاصلة بين تطوان وسبتة في أربع وعشرين ساعة ، وكـان في عدادهم مهندس برتبـة عريف يدعى أرتورو باريا •

كتب باريا كتبا عديدة تبحث في تجاربه مع الجيش الاسباني في مراكش ، وقـد ترجم منها كتاب **العرب** الى اللغة الانكليزية • ويقول المؤلف ان معظم الجنود الاسبانيين كانوا في سن العشرين ، وقد كانوا في مراكش لسبب واحد ، ألا وهو أنهم في العشرين من العمر ، وهي سن الجندية الاجبارية ، وما كان في مقدورهم أن يجدوا تعليلا آخـر لوجودهم هناك • كانو يسألون : « لماذا ينبغي لنا أن نحارب العرب ؟ لماذا يجب علينا أن نمدنهم اذا كانوا لايريدون المدنية ؟ » وكان ذلك هراء ، فهم انفسهم أميون لايقرأون ولا يكتبون • وكانوا يشكون مستفسرين : « من يمدننا ؟ نحن الذين من قشطالة ، من أندلوسيا ، من جبال جيرونا ؟ ليس في قريتنا مدرسة ، ومنازلها مبنية من الطين ، ونحن ننام في ثيابنا على فراش أرضي بجانب البغال ، طلبا للدفء • واننا لنأكل بصلة وكسرة من الخبز في الصباح ، ونمضي للعمل في الحقول من شروق الشمس حتى غروبها • »

ووجد باريا أن معظم الضباط يبعثون على النفور • فقد كان بيرنجر سمينا ثقيلا ذا صوت مداهن ، كما أن الجنرال مارزو ، وهو سمين وثقيل ايضا ، يرتدي مشدا تحت بزته العسكرية ، وهو مصاب بالصرع وسريع الغضب • وكـان المقـدم غونزاليس ـ تابلاس موضع الكراهية من جانب زملائه الضباط الذين كانـوا يغـارون من مظهـره الارستقراطي • وبالمقابل ، فقد كان الجنرالان سيرانو وكاسترو ـ جيرونا محبوبين من رجالهما ، وكان الاخير ثقة بشؤون مراكش وسياسيا داهية • وكان موضع الكراهية من جانب زملائه الضباط الذين كانوا يزعمون أنه أخرجهم من « صفحـة مجيـدة من التاريخ » باحتلاله مدينة شفشاون المقدسة عام ١٩٢٠ من دون اطلاق رصاصة واحدة • وكان لدى باريا كلمة طيبة يقولها عن ضباط الاركان الاسبانيين الذين كانوا يمثلون

ما كان متوفرا من الثقافة العسكرية ، وكانوا مجدين ، منكرين للذات يناضلون أبدا ضد الحسد الذي يعتمل في قلوب زملائهم الضباط في الفرق

الاخرى وضد معارضة الجنرالات الذين كانوا معظمهم عاجزين عن قراءة خارطة عسكرية ، وكانوا يكرهون أعضاء الاركان العامة أو يستخفون بهم لانهم كانوا مرتبطين بهم • وكان ضباط الاركان العامة لا حول لهم ولا قوة على العموم ؛ ولقد كان واجبهم ، كلما عرضت فكرة لاحد الجنرالات ، أن يجسوا الطريقة الاقل خطرا من أجل وضعها موضع التنفيذ ، ما داموا عاجزين عن الغائها • وكانت أفكار الجنرالات قائمة دونما استثناء على وجه التقريب على أساس ما كان يسرهم أن يسموه الاقدام ، وان كانوا يستخدمون لذلك كلمة أقل تهذيبا •

وليس عند باريا كلمة مديح واحدة يكيلها للمقدم ميلان – أستريي ، قائد **الترسيو** • كان رجلا مهووسا ، ساديا يلتذ بتعذيب رجاله ، مجنونا نزوعا الى القتل ، وكان يسمي جنوده « أخوة الموت » • وكان يقع في نوب من الغضب الهرعي ، فيبكي ويصيح ، ويلعن ويشتم رجاله ، يبصق في وجوههم ويرمي بهم أرضا • ولقد أمر باريا بمرافقة الفرقة الى مليلا ، فكانت رحلة اشبه بالكابوس ؛ فقد انهار الرجال المتعبون على أسطحة المراكب ، وكان الاعياء يرهقهم بعد حين بلغوا المدينة المحاصرة • وكان وصولهم مفاجئةعجيبة على الرغم من أنهم ما كانوا يعرفون ذلك،وكانت القوات القادمة من اسبانيا مثلهم في هذه الجهالة •

وكان عبد الكريم ، في المجلس الذي انعقد خارج مليلا ، قد حظر على الريفيين احتلال المدينة • وما كان يمكن أن يوقفهم شيء سوى كلمته وحدها • كانت مليلا هناك، دون دفاع بعد أن جردت من جيشها ، لكن عبد الكريم توجه الى قادة القبائل قائلا : « لا يبرح رجالنا مفتقرين حتى الآن الى الانضباط ، وسوف يقضون على المدنيين » •

وان قتل النساء والاطفال سوف يصدم العالم ، بينما الريفيون يحتاجون من أجل كسب استقلالهم الى تأييد انكلترا والولايات المتحدة • وقال عبد الكريم : « ومهما يكن من أمر ، فليست تلك طريقتي فيخوضالحرب»•وقبل القادة قرار عبد الكريم •ولقداعترف في السنوات التالية بأن تقصيره عن احتلال المرفأ الاسباني ربما كان السبب في خسرانه الحرب ، لانه وفر للاسبانيين رأس جسر استطاعوا انطلاقا منه أن يجتاحوا الريف • ولم يندم قط على قراره ، وانه لامر يلفت النظر أن هذا القرار قد نفذ على الوجه الاكمل• لقد أصبح عبد الكريم ، خلال أسابيع قليلة ، الزعيم المعترف به للريف المتوحش •

وحين هبطت الفرقة في مليلا وجدوا المدينة محاصرة من قبل الريفيين الذين كان في مقدورهم ، كما يقرر فرنكو في **يومياته** ، أن يحتلوها بكل سهولة ، وهو يعزو احجامهم عن دخولها الى افتقارهم الى مدفعية الحصار ، وهو السبب الذي يبرر به عادة قصور عبد الكريم عن احتلال مليلا ·

وباشر الجيش الاسباني الجديد استعادة المنطقة الواقعة خـــارج المدينة · وفي أواخر آب (أغسطس) ، كان قد وصل الى المدينة ٣٦٠٠٠ جندي ·واسترجعت نادور في منتصف ايلول (سبتمبر) ، ووجد جنود الفرقة شوارعها مسدودة بالجثث · وقـد جرح ميلان ــ استريي خلال التقدم البطيء ، وقتل أو جرح ستون من ضباط الفرقة · « كان رجال القبائل يقاتلون كما لم يقاتلوا من قبل قط » ، على حـــد تعبير الجنرال سانجورجو · وفي أوائل تشرين الاول (اوكتوبر) ، اتخذ فرنكو الطريـق الى جبـــل آرويت ، « طريق الآلام » كما سماه · وكان الحصن مليئا بالموتى الذين لم يدفنوا ، فعمد جنود الفرقة الاجنبية ، في البرد القارس وتحت الامطار الغزيرة ، الى سكب البترول على الجثث واحراقها · أما الجثث التي كانت تستلقي مبعثرة على طول طريق الفرار فقد تركت وشأنها ، عرضة للتفسخ · ويزعم الاسبانيون ان الهاربين من أنوال قد شوهوا بصورة رهيبة ·

ان الاتهامات بشأن الاعمال الوحشية التي تفوق الوصف قـــد وجهت من كلا الطرفين طوال حرب الاستقلال الريفي ، ومن المحال أن نعرف الحقيقة في الوقت الراهن · ومما لا شك فيه أن بعض الريفيين وكثيرين من حلفائهم ، وبعض الاسبانيين ، قد عذبوا أعداءهم وشوهوهم · ومن الارجح ان هذه الاعمال الوحشية لم تكن أكثر من أفعـــال ثأر منعزلة لها مبرراتها عند الريفيين البدائيين ، ولا بد لأمة متحضرة تغزو أراضي شعب همجي أن تتوقع مثل هذه الامور · ولقد عمد الاسبانيون ، والفرنسيون في وقت لاحق ، الى قصف القرى ، وحتى الاســواق النسائية ، من الجو ، كمـا استخـدم الاسبانيون الغازات السامة · أما عبد الكريم فقد بذل قصـــاراه ليمنع قتـل الاسـرى ، وعرض المكافآت لقاء الاسرى الاحياء ، وأصدر قانونا يقضي بالموت على قتلتهم · لكنه ماكان في وسعه أو في وسع أخيه أن يمنعا قبائل منعزلة من قتل الجنود أو الطيارين الذين قتلوا نساءهم وأطفالهم ·

وحين انتهى الشتاء ، رجع عبد الكريم الى أجدير حيث أرسل ٨٠٠ من الاسرى

الذين أخذهم الى أنوال وغيرها من الاماكن • كان مصير هؤلاء الاسرى ، الذين كانت نسوة كثيرات في عدادهم ، يقلق الشعب الاسباني الذي انقض ، بعدما استكانت مخاوفه بشأن سلامة مليلا ، على النظام الذي يتحمل تبعة الكارثة • وتحولت الحمية بخصوص الانتقام من الريفيين الى المناداة بالانتقام من الضباط والاداريين • وفي ٢٠ تشرين الاول (اوكتوبر) ، واقع المجلس النيابي فريسة مشادة قاسية • وحاول رئيس الوزراء مورا ، الذي كلف برئاسة الوزارة للمرة الخامسة ، أن يخنق الضوضاء دونما جدوى • وأعلن السنيور لوزاغا ، الذي عاد لتوه من زيارة لمليلا ، ما يلي : « ليس في ادارتنا سوى الخداع وانعدام الاخلاق • ان الضباط يثرون ، لكن الجنود يتضورون جوعا » • وحين وقعت الكارثة ، لم يبق سوى عقيد واحد في مركزه ، و « كان من الافضل لو وجد في أي مكان آخر » ، لانه استسلم للعدو • واستشهد خطيب في اثر خطيب بأمثلة عن الفساد والجبن حتى اضطر رئيس الوزراء نفسه الى الاعتراف بأنه كان ثمة « بعض الانحلال » • أما الزعيم الليبرالي الكونت رومانوس فقد لاحظ أن الجيش ، الذي لم يستطع ان يغيث جبل آرويت ، يملك هيئة مؤلفة من ٨٧١ جنرالا و ٢٠٦٠٠ ضابط آخر ، وأن ميزانية اسبانيا العسكرية تكلف الامة ٤٦٠٠٠٠٠٠جنيه استرليني كل عام•

واكتشفت الصحيفة الليبرالية **الليبرتادو** عدة حقائق بغيضة ونشرتها • ان الكثيرين من الضباط الذين تركوا في مؤخرة الجيش ليشغلوا بعض المراكز في أثناء تقدم سيلفستر قد عادوا الى مليلا « في اجازة » ، تاركين جنودهم الذين لم يعطوا أية تعليمات سوى ضرورة بقائهم في أماكنهم • ولقد تخلى الجند عن موقع اثر موقع بمجرد أن طرقت أخبار هجوم العدو اسماعهم • ولقد تحول التراجع من أنوال الى فوضى مطلقة ، وكانت معنويات العساكر متدهورة جدا ، حسب تقرير الجنرال نافارو ، بحيث اضطر الى اخلاء جميع المواقع ، كما أن بطارية من المدفعية تخلت عن مدافعها على مسافة قصيرة من جبل آرويت ، ولم تمض ساعة واحدة حتى استخدمت هذه المدافع المستولى عليها ضد الحصن • ولقد هربت حامية أحد الحصون الى المنطقة الفرنسية حيث لاحظ الضباط الفرنسيون أن الجرحى مصابون جميعا في ظهورهم • ولم يقم الضباط الاسبانيون بزيارة رجالهم في المستشفى ، بل كانوا يقضون أوقاتهم في المقاهي ، يرقصون مع نساء سيئات السمعة ، وكان سلوكهم مدعاة لاثارة حفيظة الفرنسيين •

وقبلت الحكومة الاسبانية بتعيين لجنة تحقيق ، واضطرت أن ترضى بالجنرال

بيكاسو رئيسا لهذه اللجنة ، وهو رجل مرهوب الجانب لصدقه واستقامته • وارسل ضابط الى مليلا على جناح السرعة ليستولي على أوراق الجنرال سيلفستر ، لكنه وصل بعد فوات الاوان ، اذ أن الجنرال بيكاسو وجد رسالة الملك ألفونسو التجريمية في محفوظات القائد المتوفي •

ووجد عبد الكريم لدى عودته الى أجدير قضايا ملحة عديدة تتطلب الاهتمام من جانبه • فقد نظم بنو ورياغل احتفالا بمناسبة النصر العظيم وولادة ابن عبد الكريم الاول ، وهو صبي شاهد النور في ٢١ تموز (يوليو) ، يوم انوال • وحمل أقرباؤه الهدايا كما هي العادة ، وكان رفضها يعني الحاق العار بمقدميها • وانتهز عبد الكريم الفرصة كي يشدد على التغيرات المطلوبة اذا كان الريفيون راغبين في الاحتفاظ باستقلالهم ، وأعلن انه يقبل الهدايا ليس لنفسه بل للدولة • ان من واجب الريفيين أن يتخلوا عن الكثير من عاداتهم السابقة ، وبالخاصة ضغائنهم الدموية ، اذ هم لا يستطيعون أن يتقاتلوا ويقاتلوا غزاة اراضيهم • وأخبر عبد الكريم رجال القبائل المجتمعين : « اني أعلن قانونا جديدا • ان رجلا يقتل رجلا آخر بدون مبرر يجب أن يقتل • » ولقد كان عبد الكريم ، بوصفه مشرعا ، يعمل ضمن حقوقه ، لان العرف كان ينص على أن القاضي ، أو القبيلة الريفية أو المجلس العشائري ، يستطيع أن يعيد تفسير القانون أو يشرع قوانين جديدة وفقا للظروف • وكان لكل عشيرة مدونتها القانونية الخاصة ،وهي قائمة « بالممنوعات »التي تفرض الجزيات على خرقها• وكان احترام التشريع الجديد أو عدمه يتوقفان على شعبيته • وكان الثأر عادة عميقة الجذور في الماضي الريفي ، وكان الريفيون يكرهون التغيير •

ولكن أحد المشاورين الشيوخ ، وهو رجل اشتهر بعصبيته وبمعارضته العنيدة لكل جديد ، نهض من مكانه وتقدم الى وسط الاجتماع ، قائلا انه يود أن يطرح سؤالا : « ماذا ستصنع بعبد السلام التفرسيتي ، الرجل الذي سمم والدك ؟ » كان السؤال محملا ، لان جميع الريفيين كانوا عارفين بالظروف التي أحاطت بموت كريم الاب • وكان عبد الكريم يملك الحق العرفي والواجب البنوي على السواء في الانتقام لقتل ابيه• وجلس رجال القبائل المجتمعون في صمت ينتظرون الجواب • ان الموقف يضارع تلك المناسبة التي يعرفها عدد كبير من المسلمين ، حين سأل الكهنة يسوع في محاولة للايقاع به ، عما اذا كان يجب على اليهود أن يدفعوا الجزية لقيصر أم لا • كان السؤال الآن ، كما كان في تلك المناسبة ، فخا خطيرا • فاذا قال عبد الكريم انه سينفذ مسؤولياته وفقا للقانون العرفي القبلي ، فسوف يكون أول رجل يخرق قانونه الخاص • أما اذا

أمسك يده ، فان عارا عظيما سيلحق به ٠

وشاهد عبد الكريم الهاوية التي تفغر شدقيها أمامه ، وقال : « أنا لا اصنع ضغينة دموية مع التفرسيتي » ٠ لم يكن هناك أي برهان قانوني على أن التفرسيتي سمم والده ، بل كان ثمة مبرر للشك القوي فحسب ٠ سوف يجلب التفرسيتي امام العدالة ويمنح الحق العادل في الاصغاء الى أقواله ٠ وقال عبد الكريم انه يريد أن يبني دولة لا أن يرضي ثأرا شخصيا ٠ واذا ما قتله أي رجل كان ، فسوف يكون مذنبا بجرم القتل وفقا للقانون الجديد ٠ وأرضى هذا الجواب العادل الذي أعطاه عبد الكريم رجال القبائل ، وكان الكثيرون منهم ناقمين على هذه الضغائن الدموية التي تطاردهم من المهد حتى اللحد ٠

وبعد وقت قصير من الاحتفال الذي أعلن عبد الكريم فيه القانون الجديد بشأن القتل ، أطلق رجل من بني ورياغل النار على رجل آخر يضمر له ضغينة دموية فأرداه قتيلا ٠ واوقف الرجل وحكم عليه بالموت من قبل مجلس عشيرته ٠ ووافق عبد الكريم، الذي رفع استئناف اليه ، على الحكم فأعدم الرجل ٠ وانتقلت القصة في طول الريف وعرضه ؛ هكذا أوجد عبد الكريم حكم القانون مكان فوضى الغاب ، أو ما يسميه دافيد هارت بالاحرى « المبدأ المتطرف للاعتماد على الذات » ٠

ويقول علال الفاسي ان « القبائل والافراد الذين كانت عداوتهم مضرب المثل والذين كان حقدهم ذائع الصيت قد تصالحوا كيما يكرسوا أنفسهم كليا لفكرة تحرير المغرب (دولة الريف) واسترجاع اراضيه القبلية » ٠

ولم ينجح المجلس الذي استدعي لمحاكمة التفرسيتي في ادانته بالجرم فاطلق سراحه ٠ وجدد ولده الثأر ضد عبد الكريم ، اذ أطلق النار عليه ذات يوم بعد الغروب ، لكن الرصاصة أخطأت هدفها ٠ وحين استجوبه عبد الكريم أجاب بوهن : « حسبتك رجلا آخر » ٠ واما تحقق عبد الكريم أنه ليس ثمة برهان على أن الرجل كان ينوي قتله ، فقد أرسله الى جبهة القتال ٠

* * *

والتفت عبد الكريم الى تنظيم الدولة القبلية التي أصبح الآن الزعيم المعترف به عليها ٠ كان سلطانه يعتمد على نفوذه الشخصي وخلقه وحدهما ٠ فمثلما قبل الشعب البريطاني عام

١٩٤٠ بتشرشل فالمدا له ، كذلك قبل الريفيون بعبد الكريم عام ١٩٢١ • كان وأخوه الرجلين الوحيدين في الريف المثقفين بالمعنى الغربي للكلمة ، وكانا يعرفان شيئا عن العالم الخارجي ، وقد حذرا شعبهما من خطر العدوان الاسباني ، وجاءت الاحداث لتثبت انهما كانا على صواب • ولقد أحرزا انتصارات عظيمة ، كما أن عددا كبيرا من الريفيين شاهدوا المدفع المستولى عليه الذي أمر قائد الريف بعرضه في مختلف المناطق • ولقد تنبأ عبد الكريم بأن الاسبانيين سيطلبون الثأر ، ولذا فان من واجب الريفيين أن ينظموا حكومة قوية •

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣ ، أعلن عبد الكريم استقلال دولة الريف :

بيان من الدولة ونداء الى جميع الامم

حكومة جمهورية الريف

نحن ، حكومة جمهورية الريف ، المؤسسة في تموز (يوليو) ١٩٢١ ، نعلن ونشعر الدول المشتركة في معاهدة ألجيسيراس لعام ١٩٠٦ بأن المطامح العليا التي أدت الى تلك المعاهدة لا يمكن أن تتحقق قط ، الامر الذي أثبته تاريخ الايام الماضية ، وذلك بسبب الخطيئة البدئية القائلة ان بلادنا ، الريف ، تشكل جزءا من مراكش • ان بلادنا تشكل جغرافيا جزءا من أفريقيا ، ومع ذلك فهي منفصلة بصورة واضحة عن الداخل ، وبالتالي فقد شكلت جنسيا عرقا منفصلا عن سائر العروق الافريقية التي اختلطت بالاوروبيين والفينيقيين قبل مئات السنوات بفعل الهجرة • كذلك تختلف لغتنا بصورة بينة عن اللغات الاخرى ، المراكشية أو الافريقية أو سواها • فنحن الريفيين لسنا مراكشيين البتة ، كما أن الانكليز لا يمكن ان يعتبروا أنفسهم ألمانا • ولعل هذا المزيج العرقي هو الذي يجعلنا أشبه ما نكون بالانكليز في ارادتنا المطلقة في الاستقلال وفي رغبتنا في ان نكون على اتصال مع أمم الارض جميعا • اننا ندعو بهذا البيان جميع الشعوب من أية جهة من العالم ومن أية أمة كانت للمجيء الينا واستكشاف مناطقنا المجهولة بواسطة العلماء والجيولوجيين والكيميائيين والمهندسين — بدوافع تجارية ومن دون أي قصد حربي •

اننا ندافع عن أراضينا ضد غزو القوات الاسبانية التي تفرض علينا الحرب متذرعة بمعاهدة ألجيسيراس • ان هذه المعاهدة تعلن استقلال سلطان مراكش وسيادته، وسلامة اراضيه ، والاستقلال الاقتصادي من دون أي تفاوت • واذ نوافق على المبدأين

الاولين فيما يتعلق بأراضي السلطان ، فاننا ننادي بالشيء نفسه من أجل ريفنا الذي لم يدفع قطحتى الآن الضرائب أوالجزيات لمراكش ، كما لميتلق المعونة أوالمخصصاتمن أجل تطوره . واننا لراغبون في اقامة الحرية الاقتصادية دون تفاوت في جمهوريتنا . ولذا فقد سمينا ممثلا تجاريا من أجل تطوير الثروات الكبيرة لبلادنا بواسطة دعوة أصحاب الاعمال من جميع الامم بحيث يسود « حكم من النظام والسلم والرخاء » .

ولقد اشعرنا في تموز (يوليو) ١٩٢١ سفراء انكلترا وأميركا وفرنسا وايطاليا في طنجة بأننا نعلن جمهورية الريف ، ونحن لا نبرح نخوض بنجاح حربا مشروعة ضد اسبانيا دفاعا عن استقلالنا ، وسوف نثابر على ذلك حتى نحصل على السلام والحرية والاعتراف باستقلالنا ضمن أراضي جمهوريتنا الكاملة من خط الحدود مع مراكش حتى البحر الابيض المتوسط ، ومن مولايا حتى المحيط .

واننا لندعو هنا جميع البلدان الى اقامة الخدمات القنصلية والدبلوماسية في مركز حكومتنا الحالي في أجدير ، حيث ستمنح لهم جميع التسهيلات وحيث سيحظون بكل ترحاب .

التوقيع

عبد الكريم

ورفضت الحكومة الاسبانية الطلب الذي قدمه اليها عبد الكريم بخصوص معاملة الريفيين « كمحاربين » وفقاً للقانون الدولي . وأعلن الاسبانيون أن الريفيين « عصاة » يرفضون أيضاً السماح بدخول مساعدات الصليب الاحمر الى الريف .

وفي ١٩٢٣ ، عبر محمد الخطابي وصهراه ، بوجبار وأزرقان ، عن رغبتهم في زيارة بريطانيا العظمى وفرنسا بغية الحصول على التأييد من أجل قضية الريف . ولم يكن عبد الكريم راغبا في ذهابهم ، لانه كان يعتقد بأنه لن ينتج عن هذه الزيارة أية فائدة ، لكنه لم يعترض سبيلهم . وذهب محمد الخطابي وأزرقان الى باريس ، بينما ذهب بوجبار الى لندن ، عن طريق طنجة ، حيث قابل اللورد سيسيل طالباً مساعدته من أجل عرض قضية الريف امام عصبة الامم . وفي باريس ، رحب الاشتراكيون المناهضون للاستعمار بمحمد الخطابي وأزرقان ، اللذين كان استياؤهما عظيماً من الوزراء الذين رفضوا مقابلتهما . ولم يحققا شيئاً ، فقفلا راجعين الى الريف . وكان عبد الكريم يأمل طوال الحرب بالحصول على المساعدة من بريطانيا ، معترفاً بأن الحكومة الفرنسية مرتبطة بمعاهدتها مع السلطان على معارضته . وعلى الرغم من معرفته الواسعة بالعالم ، فقد أخفق في ادراك الحقيقة التالية ، الا وهي أن

البريطانيين لايقلون عن ذلك اجراماً بفعل تفاهمهم الضمني مع فرنسا • كان الريفيون وحيدين ، وكان لهم من يتعاطف معهم في العالم ، لكنه لم يكن لهم أصدقاء مطلقاً •

وتطلب خلق دولة الريف المنظمة سنتين على الاقل من عبد الكريم • ولقد باشر عمله باصلاح التنظيم البدائي السائد في قبيلته الخاصة • ان الريفيين قد حكموا أنفسهم ، طوال قرون ، بنظام من الديموقراطية أقرب ما يكون الى الفوضى ، لكن عبد الكريم استعاض عن انعدام المركزية عند البربر بمبدأ السلطة المشترك بين العالم الاسلامي ، وفعل ذلك معتمداً الآلية البربرية القائمة • فحين كانت الضغائن الدموية تهدد بالانتشار ، كانت الجماعيات الريفية تشكل تحالفات مؤقتة • وسعى عبد الكريم الى جعل هذه التحالفات دائمة باستخدام مبدأ العار الطاغي معلناً أن الجماعيات كلها مهددة بخطر الغزو الاسباني ، وأن الريفيين لايمكنهم الحفاظ على استقلالهم الا اذا حققوا الوحدة ؛ وانه لمن العار أن ترفض الجماعية الواحدة مساعدة الجماعية الأخرى ، بحيث يجب عليها الابقاء على تحالفاتها وتوسيعها بحيث تشمل في آخر المطاف الريف بأسره • ويجب على كل عشيرتين أن تشكلا ليفاً ، ويجب على كل ليف أن يشكل تحالفاً وقائياً مع الليف الآخر ، وهكذا دواليك ، حتى تتعهد كل قبيلة بمساعدة القبائل الأخرى •

ولقد نجح عبد الكريم اخيراً ، باستخدام آلية الليف ، في تحقيق الوحدة القبلية• وتبنت القبائل الريفية الثماني عشرة نظامه ، وانضمت قبائل هامشية عديدة الى الاتحاد التعاوني ، الأمر الذي سبب لعبد الكريم مضايقات كثيرة ، لأنه كان مضطراً الى تلبية نداء القبائل الجنوبية من أجل المعونة ، وهو عامل جره الى الحرب ضد فرنسا •

كان اتحاد القبائل الجديد الفضفاض يتطلب « رئيساً للدولة » • وسمى عبد الكريم نفسه « أمير الريف » ، ورفض لقب « السلطان » ، هذا اللقب الذي كان بعض اتباعه ، وجوزيف كليمس الهارب من الفرقة الأجنبية ، يريدون أن يطلقوه عليه ، كما حظر على شعبه الصلاة من أجله في الجوامع أيام الجمعة •

وفي حين كان الريفيون يقبلون نظرياً بسيادة سلطان مراكش وسلطته الروحية ، فقد كانوا يرفضون ادعاءه في حق الحكم عليهم ، لأنهم كانوا يعتبرونه دمية في أيدي الأجانب ، ورفضوا الاعتراف بصلاحية المعاهدات التي انتزع السلاطين حقوقهم بموجبها•
ولقد أكد لي أبناء عبد الكريم أنه لم يكن يرعى أي طموح لأن يصبح سلطاناً

سواء على الريف أم على مراكش • لقد كـان في نيته أن يستقيل حين يحقق شعبـه الاستقلال ، لأنه كان يؤمن بأنه يجب أن يكون لجميع المراكشيين الحق في اختيارحكامهم الخاصين • وكان عبد الكريم يعتقد أن الريفيين سيظهرون أنهم قادرون على حكمأنفسهم رغماً عن الاعتقاد المضاد السائد لدى الفرنسيين والاسبان •

ومما لاريب فيه أن عبد الكريم برهن على قدرته على حكم اولئك الرجال القبليين الصعبي المراس • ويجب علينا أن نؤكد على منجزاته الدستورية ، لأن العالم عام١٩٢٦ لم يعترف به الا على اعتباره زعيماً حربياً حقق نجاحات مرموقة • ان التنظيم الذي خلقه قد استمر بعد هزيمته ، وقد تبناه الاسبانيون حين احتلوا شمالي مراكش عام ١٩٢٦ بمساعدة الفرنسيين •

ولقد رفض عبد الكريم أن يقوم بدور الطاغية الشرقي ، كما أنه لم ينشيء «بلاطاً»، بل احتفظ ببساطته ؛ لقد ظل يرتدي طوال فترة حكمه نفس الثياب المحلية الحياكة ، ويقطن في منازل ريفية نموذجية ، ويأكل الأطعمة الريفية المألوفة • وكان يتجول بين شعبه ويصغي الى شكاواهم • ومع ذلك ، فانه يكون من السخف أن نزعم أنه خلق حتى ما يشبه الدولة الديموقراطية الغربية • لقد أحاط نفسه بأقربائه وأصدقائهالخاصين، وهم الأناس الوحيدون الذين يستطيع أن يثق بهم ، لأنهم كانوا مرتبطين به بأواصـر الدم ، وهي لب الاخلاص الريفي •

وسمى أخاه محمداً قائداً للجيش النظامي الذي كان يتألف من محاربي قبيـلة بني ورياغل ، هؤلاء الذين كانوا يشكلون نواة القوات الريفية • وجعل جميع الرجـال الأصحاء بين السادسة عشرة والستين من العمر قابلين للخدمة العسكرية ، وهو واجب كانوا جميعاً تواقين الى التطوع فيه ؛ وكانوا « يستدعون » على قرعات كي يشكلوا قوة دائمة تعد حوالي ٥٠٠٠ رجلا ، بينما كان الباقون يثابرون في أراضيهم عـلى الفلاحـة والزراعة والحصاد حتى يأتي دورهم فيدعون الى الخدمة الفعلية • ولقد وفر هذا النظام لعبد الكريم جيشاً دائماً ينضم اليه باستمرار مجندون جدد ، وكانت كل زمرة جديدة من المجندين تعمل تحت امرة قائد محلي وتتموّن من منطقتها الخاصة • وكان ثمة بعض الاستثناءات : فرجال الحركة الأصلية ، هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة بعد معارك أبران وأنـوال ، قد سماهم عبـد الكريم « نقبـاء » ، وفقـاً لأعمـارهم وخبرتهم ، على كتائب كبيرة مختلفة الاعداد سميت المحلة ، وجماعات أصغر سميت المئة ، وتعـداد

كل منها مئة رجل ، أو **الخمسين** ، وتعـداد كل منها خمسـون رجـلا ، أو **الخمس والعشرين** ، وتعداد كل منهما خمسة وعشرون رجلا ، أو **أثنا عشر** ، وتعداد كل منهـا اثنا عشر رجلا • وكانت رتبة نقيب المحلة الكبير ، اما الضباط الآخرون فكانوا **قادة** • وكانت الدولة تدفع رواتب جميع رتب الجيش ، فيتناول العساكر ستين دورو شهرياً ، والضباط ٢٥٠ دورو شهرياً • وكان الجيش خاضعاً في ادارته لقريبين آخرين من أقرباء عبد الكريم ، محمد بودرا الذي كان مسؤولا عن الدفاع ، ومحمد حتمي ، صهر عبد الكريم ، الذي كان مسؤولا عن التدريب •

ولقد زعم أن جيش عبد الكريم الأصلي نظم ودرب من قبل الأجانب ، من قبل الهاربين من الفرقتين الأجنبيتين الفرنسية والاسبانية ، وهذا غير صحيح ، اذ لم يكن مع عبد الكريم سوى رجلين اجنبيين ، أحدهما يوغوسلافي والآخر هو جوزيف كليمس الشهير • وعلى الرغم من أن كليمس كان ذا منفعة للريفيين ، فانه لم يكـن يملك أي سلطان ، كما لم يكن له الا نفوذ ضئيل • ولقد استخدم عبد الكريم عـدداً آخر من الهاربين في بناء الطرق ، لكن الجيش الريفي النظامي كان من صنع شعبه وحده • ثم ان هذا الجيش لم يتجاوز قط ٥٠٠٠ رجل في تعداده ، وذلك بصورة مناقضة للمزاعم الفرنسية والاسبانية التي كانت تنسب الى عبد الكريم جيشاً مؤلفاً من ٥٠٠٠٠ رجل • وكان هذا الجيش يكبر في الحملات المختلفة بفعل ما يلتحق به من رجال القبائل المحليين الذين يمكن أن يكونوا قد ارتفعوا بتعداده في بعض الأحيان حتى ٢٥٠٠٠ رجل كحد أقصى • وكان عبد الكريم يجهز جيشه النظامي بالاسلحة التي يستولي عليها من الاسبان وتلك الأسلحة التي استطاع أن يبتاعها من الفرنسيين قبل دخولهم الحرب • وكانت الأسلحة الفائضة تعار الى بعض رجال القبائل الآخرين حين يتطلب الأمر ذلك وحيثما يتطلبه وهكذا جعل عبد الكريم من ترسانته وسيلة لتوطيد الوحدة القبلية ، لأن الجيوش القبلية ما كانت تستطيع البقاء طويلا في ساحة القتال بدون مساعدته •

وعين عبد الكريم أربعة آخرين من اقربائه في مراكز حساسة ، فقد عهد بالشؤون الخارجية الى واحد آخر من أصهرته يدعى سيدي محمد أزركان ، وبالشؤون الداخلية الى رجل آخر من أجدير يدعى اليزيد بن حجي ، كما أن صهريه عبـد السلام ومحمد بوجبار عينا لوزارة المالية ورئاسة أمانة الوزارة •

ولقد حدثني بوجبار عن التنظيم الريفي ، موضحاً لي أن الاعمال الورقية كانت مقصورة على الحد الادنى ، وكانت الأوامر تنقل حيث كان ذلك مستطاعاً بواسطـة رسل



عبد الكريم مع لويس دي اورتيزا عام ، ١٩٢٢ ،
يناقشان أمر تسليم الاسرى



عبد الكريم مع السلطان محمد الخامس في القاهرة عام ١٩٦٠



المؤلف مع أبناء أمير الريف محمد عبد الكريم : من اليسار الى اليمين :
منعم (الابن الثاني) ، فورنو ، عبد الكريم (الابن الكبير) ، سلام (الابن الثالث) ، سعيد (الابن الخامس)

يطلب منهم تكرار التعليمات المعطاة اليهم قبل الانطلاق الى الوجهات المحددة لهم • وكانت الضرائب ، وهي بدعة جديدة في الريف ، تجمع من قبل المجالس المحلية التي كانت تسلم المال الى الدولة ؛ وكانت هذه الرسوم تزداد بفضل الهبات الفضية والذهبية المقدمة من نساء الريف •

وروى لي بوجبار أن عبد الكريم كان راغباً في اتخاذ الدستور البريطاني كمثال لدولته الريفية ، وقد أصدر تعليماته الى وزير الشؤون الخارجية من أجل الحصول على نسخة من هذا الدستور من عملائه في طنجة • ولشد ما كانت دهشته حين علم أنه لا وجود لأي دستور بريطاني مكتوب •

ولقد أدخل عدداً من التغييرات الثورية على القانون الريفي ، مبدلا العرف الذي حكم أهل الريف أنفسهم به طوال قرون عديدة بحيث يتطابق مع الشريعة الاسلامية • ومثال ذلك أن القضاة ما كانوا من قبل يملكون حق المقاضاة الا في القضايا المدنية وحدها ، لكن عبد الكريم جعلهم مسؤولين عن القضايا الجنائية بدلا من أعضاء المجالس الذين لم يعرضوا على أية حال عن الاهتمام في قضايا من نمط السرقة والقتل • وألغى عبد الكريم القسم الجماعي الذي كان من قبل أسلوب الاثبات ، مستبدلا أياه بالقسم الفردي من جانب المتهم • ففيما مضى ، كان يطلب من الرجل المتهم باقتراف جرم ما أن يأتي بعدد من أقاربه ليقسموا معه على القرآن في يوم الجمعة التالي في الجامع المحلي ، وذلك في حضور صاحب الشكوى أو موجهي التهمة الى الرجل • وكان عدد المشاركين في اليمين يختلف وفقاً لفداحة الذنب : ستة من أجل السرقة واثنا عشر من أجل القتل • وفي حالة القسم الجماعي بين قبيلتين ، كان لابد من توفر خمسين مشاركاً في اليمين • واذا ما أخفق المتهم في تقديم العدد المطلوب من المشاركين في اليمين ، أو اذا تعثر وهو يكرر صيغة القسم ، فان القسم « يكسر » اذن ، وعندئذ لا بد له أن يدفع الغرامة المطلوبة • ويقول دافيد هارت ان عبد الكريم « قصر القسم على الفرد ، قائلا ان المتهم وحده يستطيع أن يقسم ، وذلك وفقاً لمبادىء القرآن » •

وقد يبدو هذا النظام في أعين الغربيين مفتقراً الى الفعالية ، لكنه يجب عليهم أن يتذكروا قبلا أن قداسة القسم هي قداسة بالغة القوة في نظر المسلمين ، وأنهم يؤمنون بأن الرجل الذي يقسم قسماً كاذباً لابد أن يقتص الله منه •

وقد أصلح عبد الكريم أيضاً القوانين المتعلقة بملكية الارض وتوزيع المياه ، مبسطاً

القوانين القديمة بما أدخله عليها من دقة أعظم • ولقد أصدر قانوناً جديداً يستطيع بموجبه أن يصادر الأرض من أصحابها الذين لايستطيعون زراعتها ويعطيها الى أناس آخرين • وقد أعطي للجماعيات الآن ، بالأحرى من الأفراد ، الحق في تحديد استخدام مجاري المياه التي تجتاز أراضيهم •

وحين سألت بوجبار : « هل كان عبد الكريم معترفاً به كسيد من قبل جميع أهل الريف ؟ » أجابني بأنه كان ثمة بعض المنشقين ، وبصورة رئيسية من اولئك الذين كانوا يأملون الحصول على ربح أعظم عن طريق التعاون مع الغزاة • ولقد علمت أن الاسبانيين رشوا ، طوال فترة الحرب ، عدداً من الريفيين البارزين لمعارضة عبد الكريم ، ويروي هارت ان اثنين منهم اعتقلا ونفذ حكم الاعدام بهما • وكانت الغيرة هي حافز البعض الآخر • ويستشهد كون في كتابه **لحم الثور البري** ببقيش ، أحد الزعماء الرئيسيين لقبيلة كسينا ، الذي وصف عبد الكريم بأنه « قواد الاسبانيين الذي خان شعبه » ، وبني ورياغل « منتفخون عنجهية » •

ويصف بقيش عبد الكريم ، الذي قدم لمقابلته ممتطيا صهوةجواد ثقيل، بالعبارات التالية : « أصبح على الارض رجلا صغيراً • كان عريضاً في جميع ابعاده ، في الوركين ، والكتفين ، وعظام الوجنة ، والجبهة ؛ وكان مفرط السمنة من جراء نقص التمرين ، طويل الأنف ، ماكر العين ـ كان أشبه بتاجر حرير من فاس منه بقائد جيش الريفيين» •

وسواء أكان جميع أهل الريف مؤيدين لعبد الكريم أم لا، فانه لم يكن لدى الاسبانيين سبب حقيقي للشكوى منه بخصوص معاملة أسراهم ، الاسبانيين الثمانمائة الذين جلبوا الى أجدير بعد هزيمة أنوال • كان هؤلاء الرجال ، وعدد من النساء ، يشكلون أخطر القضايا بالنسبة الى عبد الكريم عام ١٩٢٢ • وكان في عدادهم الجنرال نافارو وستون ضابطاً آخر • وقد أعيد أربعة عشر رجلا مصابين بجراح خطيرة ، في الحال ، الى الحصن الاسباني القائم في مدخل الخليج ، ومن هناك أرسلت الثياب الى بقية الرجال • وأوقف عبد الكريم هذه الارساليات حين اكتشف أن الاسبانيين يرسلون سراً سكاكين وأمواس حلاقة في الأحذية التي يبعثون بها من الشاطىء •وأسكن الأسرى في أكواخ ، وكانوا يطعمون الأطعمة الريفية النموذجية ، ويعالجون من قبل « مداوين » ريفيين من أفراد الاسر الوراثية المتخصصة في الطب • ولقد أخبرني أصدقائي الريفيون أن هؤلاء المداوين تعلموا أن يشفوا داء الكلب وأن يلقحوا ضد الجدري قبل

باستور بزمن طويل ، لكنهم كانوا عاجزين عن شفاء التيفوس والكوليرا ، هذين الدائين اللذين أهلكا الأسرى الأسبان ٠

وفر عدد من الاسبانيين الى القلعة : مشى ضابطان بكل جرأة في اتجاه الشاطىء ، فأنقذهما قارب صغير ٠ ولقد أطلق النار على أسيرين آخرين فقضيا ٠ وناقش عبد الكريم أوضاع الأسرى مع الجنرال نافارو ، لكنه لم ينجح في الحصول منه على تعهد بأن الأسرى لن يحاولوا الفرار ، اذ أعلن نافارو أن القانون العسكري الأسباني يحظر عليه أن يعطي مثل هذا الوعد ٠ وعلمت أنه كانت تجري مقايضة « مزدوجة » ، لأنه حين كان الفارون الاسبان يسبحون الى الشاطىء لم يكن يطلب منهم سوى تلاوة الشهادة ، فيسمح لهم بالاقامة في الجماعيات الراغبة في قبولهم ٠ ولقد كشف البروفسور كون هوية الكثيرين من هؤلاء الرجال الذين خافوا أن تميط آلة القياس التي يحملها اللثام عن أصولهم العرقية ٠

وكان من حق الأسرى ، وفقاً للشريعة الاسلامية ، أن يحظوا بالعطف على اعتبارهم « ضحايا بائسة » ٠ ولقد استخدم عبد الكريم الأصحاء منهم في بناء الطرق ، ورفض أن يثأر منهم لمعاملة الأسرى الريفيين من قبل الاسبان ، هذه المعاملة التي كان الريفيون ينادون بأنها سيئة جداً ٠ ويقول عبد الكريم انه كان من بواعث الحزن مشاهدة الأسرى الاسبان الذين كانوا « مغمومين ، يائسين ، خائفين من مصيرهم » ٠

وكانت الفتيات الاسبانيات يطرحن مشكلة مخصوصة ٠ كانت هذه الفتيات يسمين « ايزابيلا » و « لاروبيا » و « سيبريانيا » من قبل مراسلي الصحف ، و « ماريا » و « سيبريانيا » من قبل الريفيين ، وهكذا فانه من الصعب تحديد هويتهن او معرفة بطلات القصص التي كانت تروى عنهن ٠ ولقد وصفت احداهن بأنها متعهدة في احدى الكانتينات ، ووصفت أخرى بأنها عاملة في مفوضية للشرطة ٠

ولقد عهد عبد الكريم بالفتاة المدعوة سيبريانيا الى عناية زوجته الخاصة « من أجل حمايتها » ، ولكنه أدرك « أنها ليست في حاجة الى الحماية » ٠ وتقول الاسيرة انها كانت متزوجة وأماً لعدة أولاد حين أخذت أسيرة ٠ ولقد اشتغلت في البيت ، وعنيت بالأطفال ٠ وأطلق سراحها في نهاية الحرب ، وأعيدت الى اسبانيا ، لكنها رجعت مع زوجها لتعيش في الحسيمة حتى توفيت عام ١٩٥٠ ٠ وحين سمعت سيبريانيا بهرب

عبد الكريم عام ١٩٤٨ كتبت اليه في القاهرة تشكره من أجل المعاملة الطيبة التي لقيتها خلال السنوات الخمس من أسرها ٠

ولا يأتي عبد الكريم على ذكر الفتاة ايزابيلا التي تحدث اليها بول سكوت مورر في أجدير عام ١٩٢٤ ٠ أخبرته أنها في الثامنة عشرة من العمر ، وأنها من ملقة ٠ وحين سئلت ما اذا كانت خائفة أجابت : « مم أخاف ؟ » ولقد أخبرت مورر أنها تلقى معاملة طيبة وأنه ليس لديها ما تشكو منه البتة ٠ ويقول مورر : « كان أهل البلاد يحبون ايزابيلا ، فقد كانت ابتساماتها وثرثرتها ، المختلفة كلياً عن التحفظ المتكتم لدى نسائهم، لا تقاوم فيما يبدو » ٠ ولاحظ مورر أنه حين كان يطلب من ايزابيلا ان تسافر على ظهر بغل ، فانها ما كانت تستطيع قط أن تمتطيه او تنزل عن صهوته دون مساعدة أحد الريفيين الشبان الذي كان يرفعها الى السرج او ينزلها عنه بأن يمسك بها بقوة من حول وركيها ٠ « وكان سرورها يتعاظم بقدر ما تستطيع أن تشوش أفكار الفتى الذي يساعدها » ٠

وتقول الأسرة ان لاروبيا ، الشقراء ، توفيت قبل أسابيع قليلة من نهاية الحرب ٠ ويوردون كذلك ذكر فتاتين أسيرتين اسبانيتين أخريين ، ماريا التي تزوجت من أحد الريفيين ورجعت الى أسبانيا في نهاية الحرب التي قتل زوجها فيها ، وأختها أوريانا ، التي عادت كذلك الى الوطن اسبانيا ٠

وعرض عبد الكريم افتداء الأسرى لقاء أربعة ملايين بيزو ، لكن الجيش الأسباني رفض الاقتراح بهلع ، مدعياً الحق في تحريرهم ٠ وبعد مفاوضات طويلة اشتملت على زيارة الى أجدير قام بها المصرفي الأسباني فرنانديز ألميدا ورئيس تحرير صحيفة ليبرتادو لويس دي اورتيزا ، أعيد ٣٥٠ أسيراً هم الباقون من الاسرى الثمانمائة الذين جلبوا الى أجدير ، في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣ ، لقاء فدية مقدارها ١٥٠٠٠٠ ليرة سترلينية ٠ وكان قبول الحكومة لشروط عبد الكريم سبباً في اثارة الضوضاء في اسبانيا ، لأن الجيش زعم أن الحكومة قد مولت بهذا التصرف عبد الكريم من أجل مواصلة المقاومة ٠

واستخدم عبد الكريم قسماً من هذا المال ليبتاع من مراكش الفرنسية أسلحة وذخيرة وثلاث شاحنات (شاحنتين من طراز رينو وثالثة من طراز فورد ت) ، وطائرة

حربية عتيقة من طراز بريكه دفع لقاءها ثمناً باهظاً بلغ ٣٥٠٠٠ فرنك (حوالي ٢٨٠٠ ليرة سترلينية) • ولقد حطت الطائرة على قطعة من الأرض المستوية قريباً من أجدير يقودها طيار يدعى بيريه تم معه الاتفاق على تدريب الريفيين على الطيران • ولم تحلق الطائرة قط ، اذ قصفها على الأرض الطيارون الاسبان ، كما فعلوا بطائرة اسبانية انزلها الريفيون على الأرض سالمة • وقام عبد الكريم بصفقة أكثر منفعة ، حاصلا بفضلها على شبكة ميدان هاتفية كاملة كان يستطيع بواسطتها ان يتصل بمختلف أرجاءالريف• ولقد لاحظ أحد الصحفيين الامريكيين اللذين زارا أجدير عام ١٩٢٥ أن صبياً ريفياً في السادسة عشرة من العمر كان يشرف على تأمين النداءات الهاتفية •

واستخدم عبد الكريم أيضاً اعتماداته بالقطع الأجنبي ليجلب الى الريف طبيباً فرنسياً وقابلة فرنسية بغرض معالجة أخته المحبوبة التي كانت تعاني مرضاً خطيراً في أعقاب ولادة لم تتوفر لها فيها العناية اللازمة • وكان يرافق الطبيب فرنسي آخر **يدعى بيير فونتين** أصدر عام ١٩٤٣ كتاباً بعنوان **الظاهرة الريفية العجيبة** نشره له « مكتب الاستعلامات البترولي » •

ويعزو فونتين سبب الحرب الى الاعتقاد الأوروبي بأن أراضي الريف « غنية بالبترول » ، ويزعم أن « المخابرات البريطانية » كانت تدعم عبد الكريم • ولقد وصل فونتين ، والقابلة الآنسة بونزو ، والطبيب الذي لايسميه ، الى مقر عبد الكريم في آية قمرة في آذار (مارس) ١٩٢٣ • وأعطوا مسكناً والاسيرة الاسبانية ايزابيلا كوصيفة • وحين اراد الطبيب أن يعالج مريضته « كما تعالج المريضة الاوروبية ، صادفنا مقاومة عنيفة » على حد تعبير فونتين ، لأن الشريعة الاسلامية تحظر على الطبيب أن يشاهدها ، كما أعلنت المرأة أنها تفضل الموت على ذلك • لكنه سمح لفونتين بالدخول الى غرفة العليلة ، وهو لا يورد سبباً لذلك • ولقد وقف بجانب السرير ، وكان يتصل بالهاتف مع الطبيب الذي كان في الغرفة المجاورة • ولقد وصف فونتين الأعراض التي تشكو المريضة منها ، وكان الطبيب يخبره بما يجب عليه أن يعمله • وبعد شهر من مثل هذه المعالجة أعلن أن الخطر ارتفع عن المريضة • ويقول فونتين ، الذي يبدو أنه كان ملماً بالطب ، أنه رجع الى الريف في أيار (مايو) كي يلقح الريفيين ضد الجدري •

وفي هذه الاثناء ، قدم الاسبانيون بعض العروض الى عبد الكريم ، مقترحين عن طريق مندوبيهم ، الذين التقوا بوزير الخارجية أزرقان على ظهر مركب بعيداً عن

الساحل ، « نوعاً من الاستغلال » أو « الحكم الذاتي » كما سماه الاسبان • ورفض عبد الكريم أن يتخلى عن الحكم الذاتي الفعلي لقاء اتفاق مشكوك في مغزاه ، ورفض جميع العروض التي لاتؤمن الاستقلال التام للريف • كذلك رفض عرضاً خاصاً بمبلغ ١٠٠٠٠٠ ليرة سترلينية لقاء التخلي عن شعبه والتحول الى حاكم دمية في يد الاسبانيين• ولقد عني بأن يطلع شعبه على هذا العرض الاسباني ، كما أنه حصل على نصر دعائي من الحماقة التي ارتكبها الملك الفونسو عام ١٩٢٣ • ذلك أن الملك ألفونسو ، أثناء زيارة رسمية للبابا ، طلب من الأب المقدس أن يعلن حرباً صليبية جديدة ضد الكافر ، وهو يقصد بذلك عبد الكريم • وعمل عبد الكريم على ترجمة خطاب ألفونسو الى العربية ، فقرىء على جميع الريفيين ، بحيث ضاعف من حقدهم على الاسبانيين • ورفض عبد الكريم أن يعلن حرباً مقدسة رداً على ذلك ، معلناً ان الريفيين يقاتلون من أجل الاستقلال العرقي ، وليس من أجل العصبية الدينية •

لم تقع الا معارك كبرى قليلة بين ١٩٢٢ و ١٩٢٤ ، على الرغم من وجود ٢٠٠٠٠٠ جندي اسباني في مراكش حوالي أواخر عام ١٩٢٢ • كانت اسبانيا تتخذ اذن موقف الدفاع • وعرض الجنرال بيرنجر أن يستقيل من منصبه كمفوض سام في أعقاب كارثة أنوال التي لم يكن مسؤولا عنها ، لكن الحكومة رفضت قبول استقالته حتى أيار (مايو) ١٩٢٢ ، حين حل مكانه الجنرال ريكاردو بورغيث أولا ، ومن بعد السنيور دون لويس سيلفيلا ، وهو مدني • وحين كان بيرنجر مفوضاً سامياً بعد أرسل باخرة حربية ، **جوان دي جوانيس** ، لاستطلاع خليج الحسيمة من أجل انزال في أجدير ، وهو مشروع يعتمل في أذهان الاسبانيين منذ زمن طويل • وكان الريفيون قد نصبوا أحد المدافع التي استولوا عليها فوق التلة المشرفة على القلعة ، فسمحوا للباخرة الحربية ان تتقدم كثيراً من الشاطىء ، حتى اذا أصبحت تحت رمي مدفعهم اغرقوها بثلاث طلقات فقط ، وكان ذلك نصراً أفرح شعبهم وزاد في حنق الاسبانيين • وتعاظم حنق الاسبانيين أكثر فأكثر حين اكتشفوا أمر اختلاس المستودعات الحربية في العرائش، على شاطىء الاطلسي• وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ، استقال ميلان استري من قيادة الفرقة الاجنبية احتجاجاً على عملية افتداء الاسرى ، وبعدما قتل قائد آخر ، سمي فرنكو قائداً للقوة الاجنبية • وانه ليروي أنه عندما سئل الملك أن يعين قائداً جديداً للفرقة هتف : « يجب أن يكون فرنكو ، فليس من يبزه » •

وقاد فرنكو الفرقة الأجنبية لاسترداد تيزي عزة ، القرية التي تقوم على عتبة

جبال الريف، والتي كان احتلالها يوفر نقطة انطلاق من أجل الغزو المقبل ٠وقام الريفيون بهجوم مضاد فقدوا خلاله ٥٠٠ من رجالهم الذين كان الاسبانيون يقدرون عددهم بعشرة آلاف رجل ٠ ان الحركة هاجمت ، بصورة غير حكيمة ، في غياب عبد الكريم ، عبر سهل مستو تعرضت فيه لقنابل المدفعية والطائرات القادمة من مليلا ٠ ولقد أسقط الريفيون احدى هذه الطائرات ، اذ ان ريفيا مسلحاً ببندقية عتيقة من ذوات الزند المصون ، معبئة بصواريخ غريبة وبعبوة عملاقة من البارود ، سدد سلاحه الى الطائرة وهي تنقض في اتجاه الأرض ٠ وأدى ارتداد البندقية العنيف الى اطلاق الصواريخ الى الاعلى من الطائرة ، بالضبط في ذلك المكان الذي ستصل اليه حين تندفع قطع الحديد العتيقة نحو العالي ٠ وكانت اصابة مباشرة : توقف محرك الطائرة عن الدوران ، ثم انفجر مشتعلا بعد ثانية واحدة ، وهوت الطائرة أرضاً ٠

ولقد أسقط الريفيون عدة طائرات خلال الحرب ، وكانت احداها من نصيب عبد الكريم نفسه ٠ فحين أغار الاسبانيون على مقر قيادته في أجدير ، الأمر الذي قاموا به مرات عديدة دون أن ينجحوا قط في تحقيق اصابة مباشرة ، انسحب مع وزرائه الى الملجأ الخاص بالاحتماء من الغارات الجوية الذي حفر في جانب الهضبة ، وقد تفقدته عام ١٩٦٤ ٠ وكان عبد الكريم يحتفظ بعدة بنادق في الكهف ، وحالفه الحظ ذات مرة ، فأصاب نقطة حساسة ألقت بالطائرة الاسبانية أرضاً حيث تهشمت غير بعيد عن الكهف ٠

ومر الوضع السياسي الاسباني بأزمة شديدة عام ١٩٢٣ ٠ فقد أحس الجيش بالاذلال نتيجة افتداء الاسرى،وراح الثوريون ينادون بأن مراكش أصبحت مقبرة للشباب الاسباني وبئرا لا قرار له للثروة الاسبانية ٠ كانت الحرب تكلف ٢٠٠٠٠٠٠٠ ليرة سترلينية كل عام ، ولم يتحقق من جرائها اية فائدة على الاطلاق٠كانت القوات الاسبانية حبيسة في تطوان ومليلا ، وقد أصبح الشعب متعبا من مراكش ، وكان يعجب بعبد الكريم ويصرح باعجابه ٠ وتمردت فرقة معسكرة في برشلونة ، فقتلت ضباطها ؛ وحكم على عريف يدعى خوزيه ساتشيز باروسا بالاعدام من قبل محكمة عسكرية ، لكن الحكومة ألغت الحكم ٠ كانت البلاد بأسرها تشارف على الفوضى ٠ ولاح في الافق خطر أشد رهبة ، اذ قدم الجنرال بيكاسو تقريره الى المجلس النيابي ، فوزع على النواب من دون أن يطبع ٠ كان هذا التقرير يكشف النقاب عن مشاركة الملك ألفونسو في كارثة

أنوال • ووقف الجيش وحده بين العرش والثورة ، اذ وجه ضربته قبل أن تتمكن اللجنة البرلمانية التي عينت لدراسة تقرير بيكاسو من الاجتماع • وانحنى الملك ، الذي كان يعرف بكل وضوح جلية الامر ، « أمام القوى الاعلى » ، وعلق الدستور •

لقد نظم الانقلاب من قبل الجنرال ميغيل بريمو دي ريفيرا ، الذي كان يشغل منصبا لا يتناسب مع رتبته كحاكم عام لكاتالونيا ، حيث تم ابعاده بعدما ألقى خطابا غير موفق دافع فيه عن الانسحاب من مراكش • واقدم ريفيرا في ١٣ ايلول (سبتمبر) الى مدريد حيث استلم دفة الحكم ، وقد كانت له شعبية قوية في الجيش كما كان محبوبا من الجمهور • ان بريمو دي ريفيرا ، بطل عدة مآثر شهيرة ، في مراكش وفي الفيليبين على حد سواء ، قد أصبح جنرالا في سن الثلاثين ، وذلك كما يقال بفضل نفوذ عمه ، القائد العام لاسبانيا • وقضى ريفيرا شبابه ، وهو الارستقراطي حتى رؤوس اصابعه ، في القتال والفحش حسب اعترافه شخصيا • واعترف ذات مرة قائلا: « لو أني كنت أعرف أني سأصل ذات يوم الى السلطان ، فقد كنت درست أكثر » • ورأى بريمو دي ريفيرا في شخصه الند الاسباني لموسوليني ، الدكتاتور الايطالي الذي كان معجبا به حتى درجة كبيرة • ويصف أليرت كار ، في دراسته عن السبيل الى الدكتاتورية ، بريمو دي ريفيرا على أنه « تافه » ، « أخرق » و « ميئوس منه » ، على أنه رجل « اكثر لباقة من أن يكون دكتاتورا صالحا » • كان يملك اتجاها محموما الى النزعة الانسانية والليبرالية ، فقرر أنه لن يكون مزيد من التضحية بالرجال أو المال في مراكش • ان كل ما يمكن الاستغناء عنه دون اذلال يجب أن يسلم • وكان الجنرال بيرنجر الضحية الوحيدة للانقلاب ، اذ أقيل فانسحب عن المسرح كيما يغطي مشاركة الملك في كارثة أنوال • لقد اعتبر بيرنجر مسؤولا بصورة مباشرة عن الكارثة ، وذلك بوصفه مفوضا ساميا عام ١٩٢١ •

في تشرين الثاني (نوفمبر) ، في أعقاب تعيينه مديرا (كما سمى نفسه) ، قصد بريمو دي ريفيرا مراكش حيث أخذ على نفسه شخصيا مسؤولية الحملة • وأمر الجيش أن يهجر مواقعه الامامية وأن ينسحب الى مواقع مهيأة جنوبي تطوان ومليلا • وانه يجب التخلي عن مشروع غزو المنطقة الشمالية • وأثار هذا الامر حنق قادة الجيش ، اذ هو ينكر عليهم الفرصة لغسل عار انوال من جهة ، كما ينكر عليهم من جهة ثانية أي حظ في الانسحاب دون تكبد خسائر مروعة • ويلاحظ كار أن ريفيرا ، بعملية جنونية

تكاد لا تصدق ، قد صرح عن خططه علنا · فقد بين ، وهو محاصر بمراسلين صحفيين عنيدي المراس ذلقي اللسان ، متى وأين سيبدأ الانسحاب ، معلنا أسماء الاماكن وتواريخ اخلائها · ولقد صاح المارشال ليوتيي باستنكار حين سمع بذلك : « يا الهي ، ان الجيش ينسحب حين يكون ذلك أمرا لا بد منه ، لكنه لا يعلن هذه الحقيقة سلفا للعدو » · لقد كان يتراءى أن اعلان دي ريفيرا يرسم نهاية المغامرة الاسبانية في مراكش ·



تقارير مراسل خاص

حمل عام ١٩٢٤ معه أول لمحة خارجية عن عبد الكريم ، اذ زاره وقابله في نيسان (أبريل) وارد برايس ، مراسل الصحيفة اللندنية **ديلي ميل** التي كانت في ذلك الحين **الصحيفة الاكثر انتشارا في بريطانيا** • ولقد نشرت مقالاته في صحيفة **هيرالد** النيويوركية أيضا •

ولقد زار وارد برايس ، الذي كان منذ تلك الايام مراسلا خاصا ذائع الصيت ، مدريد في طريقه الى مراكش ، فوجد أن شبح كابوس الحملة المراكشية يخيم فوق رؤوس الامة الاسبانية • ولاحظ الزعيم الليبرالي ، الكونت رومانونيس ، الذي تقلد مقاليد الحكم أربع مرات ، بكل حيطة ما يلي : « انه لامر خطير أن تتحول أسبانيا من ملكيـة دستورية أوروبية الى طغيان شرقي • لكن ذلك يكون مقبولا اذا ما استخدم العسكريون سلطانهم لتسوية مشكلتين قديمتين تعنيانهم بصورة رئيسية : مسؤولية فضائح مراكش وحل حملتنا الباهظة التكاليف هناك » •

ووجد برايس أن الامة الاسبانية بأسرها تكره حتى مجرد اسم مراكش • وكان الجنرال بريمو دي ريفيرا وحكمه الاداري يواجه مشكلتين : أتراهم يجسرون على معاقبة السلطات العليا ، العسكرية والمدنية ، المسؤولة عن كارثة أنوال ؟ وهل يستطيعون أن ينهوا الحرب ؟ كانت معاقبة الجنرالات أمرا محفوفا بالمخاطر ، لان الجيش كان منقسما على نفسه بشأن جرمهم • وكان الوزراء المتهمون محميين في القيادة العليا • وحتى اذا ما طبقت العقوبات بخصوص الماضي ، فان مشكلة المستقبل تظل بدون حل • وكان الاسبانيون المثبطو العزيمة يقولون : « حتى اذا استولينا على الريف ، فان البريطانيين والامريكيين هم الذين سيستغلون موارده • »

وكان ثمة خطتان موضع الاعتبار كما علم برايس • وكانت احدى الخطتين تنص

على جعل ريسولي باشا على تطوان ، وتزويده بالسلاح والرجال ، واخباره بمواصلة الحرب ضد عبد الكريم • وكانت هناك خطة بريمو دي ريفيرا مقابل الخطة الاولى ، ألا وهي الانسحاب من داخل مراكش ، والتجمع حول تطوان ومليلا ، وتقديم المعونات الى العرب بدلا من مضايقتهم • بيد أن اخلاء شمالي مراكش يفتح الباب لامكانية مضاعفات لاحقة ، اذ من سيخلف الاسبانيين هنـاك ؟ لسوف يكون الحافز قويا بالنسـبة الى الفرنسيين للمناداة بمسؤولية اخضاع رعايا السلطان الريفيين المتمردين باحتـلال أراضيهم • ولسوف يخلق ذلك وضعا خطيرا في حوض البحر الابيض المتوسط ، لان ايطاليا وبريطانيا ستعارضان في امتداد النفوذ الفرنسي على طـول سواحـل أفريقيـا الشمالية •

وسعى برايس الى المعلومات من الدكتاتور الاسباني ، فأخبره بريمو دي ريفيرا بما يلي :

من المؤكد ان المنطقة الاسبانية من مراكش هي أكبر مشاغل الحكومة الاسبانية الحاضرة • فقد كان الوضع هناك خطيرا طوال اثنتي عشرة سنة ، لكنه يتطور بثبات نحو الحل •

ان القوات الاسبانية تحتل عددا من المواقع المنعزلة ، وبعض هـذه المواقع تسيطر عليها جبال تعج بالعصاة المسلحين بصـورة جيدة ، هؤلاء الذين يستطيعون ، اذ يتحركون بخفـة في أرض يصعب جـدا على القوات النظامية أن تسلكها ، انزال خسائر تفوق نسبة أعدادهم ، وذلك بلجوئهم الى أساليب حرب الغوار •

ولا بد لهذه المواقع الاسبانية أن تزود بالمؤن، وحتى بالماء، من القاعدة• وان العصاة ليقطعون في بعض الاحيان طرق المواصلات الاسبانية ، فتضطر القوافل ، حين تواجه على هذا الغرار تجمعات العدو ، أن تشق طريقها عبر صفوفهم بالقتال •

وهذا ما جرى مؤخرا في تيزي عزة • ان لدينا هناك موقعا في موضع ستراتيجي صعب ، تدافع عنه حوالي ثلاث سرايا وبطارية من المدفعية• وان حامية تيزي عزة بكاملها ، مع المواقع الاضافية والاجنحة الواقية، تعد حوالي ١٥٠٠ رجل ، وان الهجوم العربي الاخير على قافلة تتقدم الى ذلك الموقع قد كلفهم اربعين قتيلا ، بينما لم يفقد رتلنا سوى ثمانية رجال في تشتيت العدو وتزويد الموقع •

ولقد انقصنا مؤخرا قواتنا في مراكش ، بغرض الاقتصاد وتوسيع الاراضي المسالمة ، بمعدل ٢٠٠٠٠ رجل ، لكننا نرسل في الوقت الحاضر الامدادات ، وذلك لان عمليات التنظيف أصبحت أمرا لا غنى عنه ٠

وقال الجنرال بريمو دي ريفيرا انه عندما تنجز هذه المهمة ، فانه قد يصبح في الامكان حشد القوات الاسبانية في المدن الساحلية والسيطرة على الداخل بواسطة الطيران، كما فعل الجيش البريطاني في بعض الاقسام من الشرق الاوسط ٠ ولقد اقترح لهذا الغرض زيادة عدد الطائرات الاسبانية في مراكش من خمسين الى مائة وخمسين طائرة ٠ وكان المسيو بوانكاريه ، رئيس الوزارة الفرنسية ، قد اقترح عملا فرنسيا واسبانيا مشتركا ضد الريفيين ، وهو مشروع لم يكن الدكتاتور الاسباني راغبا في أخذه بعين الاعتبار حتى تكون اسبانيا قد فقدت معقل التمرد على خليج الحسيمة ٠

وحدث برايس قراءه قائلا : « يجب على اسبانيا اما أن تتقدم واما ان تخرج من مراكش » ٠ وكان يعتقد أن خطة بريمو دي ريفيرا تنطوي على آخر حظ لاسبانيا في التخلص من تلك الاجمة الشائكة التي تعثرت بها ٠

وخاطب بريمو دي ريفيرا برايس قائلا ، حين سأله الاذن في الذهاب الى الريف ومقابلة عبد الكريم : « انك لا تستطيع أن تعبر خطوطنا » ٠ ولما أعيق برايس عن دخول الريف عن طريق طنجة ، فقد قصد الرباط حيث طلب الاذن من الفرنسيين للدخول من الجنوب ٠وكان جواب الضابط : « لا بكل تأكيد، والا اتهمنا بأننا نسمح للاشياء الحربية المحظورة بالوصول الى عبد الكريم ٠ ومهما يكن من شيء ، فان ثمة خطرا كبيرا على سلامتك بحيث لايمكننا أن نأخذ على أنفسنا مسؤولية السماح لك بالدخول الى الريف»٠

ولقد نوه بأن رجال القبائل على طول خط المواقع الفرنسية ، هؤلاء الذين عوقبوا مؤخرا من قبل عبد الكريم لرفضهم تقديم المجندين من الرجال والجزيات بالمال ، لن يكونوا راضين عن اوروبي وحيد يتجه الى رؤية زعيم الريف ٠ وقيل له بلهجة التأكيد : « سوف يطلقون عليك النار من خلف شجرة كي يسرقوا جوادك ٠ » أو قد يؤخذ أسيرا ويحتفظ به لقاء فدية ٠

ولما تخلى برايس عن محاولة عبور الحدود بمساعدة الفرنسيين ، فقد بحث عن المنظمة السرية التي سمع أن الحكومة الريفية تحتفظ بها خارج حدودها ٠

وكانوا جماعة غريبة من الناس ، من أصول غامضة وأصحاب تصرفات اشد غموضا • وقضيت اسبوعا كاملا في مفاوضتهم ، وكان لي معهم أحاديث مهموسة عديدة، وتعيينات سرية ، وقصاصات صغيرة مخربشة وغير موقعة، ومواعيد لم تحفظ ، بقدر ما يحدث لطالبة في أول علاقة غرامية لها •

وقيل لي بادىء الامر ان هناك رجلا سيعمل على أن يجتاز بي الحدود الريفية في خفية عن دوريات الحدود الفرنسية لقاء ٣٠٠٠ فرنك تدفع نقدا• لكنه راح يشك فيما يبدو ، بعد يوم أو يومين ، في أن دوري كمراسل صحفي هو خدعة ، وأني أريد أن أصل الى عبد الكريم كي ابيع مواد حربية مهربة • ولما كان ذلك هو العمل الرئيسي الذي يقوم به هذا العميل السري، فقد أعرض عن ادخال منافس ممكن الى الريف •

وانتهت مناقشة اسبوع كامل الى تأمين ثياب محلية ومترجم لقاء ٣٥٠٠ فرنك • ورفض برايس أن يقبل ثوبا نسائيا عربيا،وهو قناع يفسر عجزه عن النطق ويمنع الناس من مخاطبته • كان يحسب أنه توصل الى مظهر رديء بصورة كافية باطلاق لحيته التي كانت تشكل ، مع بشرته المحروقة بأشعة الشمس ، تنكرا كافيا • ونقل بسيارة الى بقعة منعزلة في البرية حيث كان رجلان ينتظران مع ثلاثة أحصنة ، وقد أرخوا القبعات المخروطية لبرانسهم البيضاء بصورة واطئة جدا فوق رؤوسهم • ورفع السعر المتفق عليه من أجل الدليل ، وهو خمسة شلنات يوميا ، الى ليرة كاملة دفعة واحدة ، وهو مبلغ لم يكن لبرايس بد من القبول به • وانطلقت الجماعة في اتجاه الريف •

وعبروا نهرين كان أحدهما في حالة فيضان ووصلوا الى أحد الاسواق التي كانت مكتظة بحوالي خمسمائة من المولدين • وسمع برايس زمجرة محرك ، فرفع رأسه وشاهد طائرة اسبانية تقترب من ناحية الشرق • وانفرط عقد السوق في الحال ، وانطلق المولدون نحو أقرب مجرى للمياه • واندفع رجلاه الخاصان ، اللذان قصدا متجرا لشراء بعض السكر ، وهتف المترجم منقطع الانفاس : « ستسقط قنابل الآن وتعمل تا ـ تا ـ تاراك • » وكتب برايس يقول : « تبعثرنا في اتجاهات مختلفة خبباً ، وبينما كنت أعدو بجوادي على طول سرير نهر جاف شاهدت الحفر على جانبه مليئة بالريفيين المستلقين أرضا ، وجميعهم فيما يبدو قد ألفوا روتين الغارات الجوية » •

كان برايس على بعد ميل واحد حين سمع انفجار القنبلة المألوف ، ثم أعقبه أنفجار

آخر • وانطلق مع الرجلين خببا ، وبلغوا وهدا كثيف الاشجار • وهمس المترجم قائلا : « هذه الغابة مكمن للاشرار • ابقيا قريبا من الاشجار » • وصرخ على حين غرة في هلع ، ناطقا بالفرنسية : « يا للاشرار ! » وشاهد برايس ، عند منعطف الطريق الى الامام منهم ، حوالي اثني عشر وجها ملتحيا خلف متراس كانت تبرز من فوقه مواسير البنادق بصورة منذرة بالسوء • وتبادلوا مع الدليل بعض الحديث بأصوات مرتفعة ، ثم خاطبه المترجم قائلا ، والارتياح باد عليه: « ليسوا أشرارا، بل هم جنود ريفيون• ولقد أوقفونا لانهم يريدون أن يعرفوا هويتنا • » ويلاحظ برايس أن تلك كانت المرة الوحيدة ، طوال زيارته للريف التي استغرقت عشرة ايام ، التي شاهد فيها حركة متوعدة من جانب سكان الريف العابسي الوجوه •

كانت بلاد الريف التي يدخلها الآن قد استقبلت الاوروبيين فيما ندر من الاحيان، وهذا ما كان برايس يعرفه جيدا • لقد عبر من الاراضي الواطئة المسالمة ، حيث كانت النقليات تتم بسيارات قوة محركها تبلغ أربعين حصانا ، الى مرتفعات تذكر بأيام روبرت بروس ، الى أرض

حيث الجياد والحمير والجمال هي وسائط السفر الوحيدة ، منطقة خالية من الطرقات باستثناء أسرة الانهار الجافة ومجاري السيول الجبلية ؛ أرض خالية من الشرطة، أو السدود، أو مراكز للبريد والبرق، ومن الصحف، ومن النور الكهربائي أو الغاز ، ومن الاثاث، والملاعق ، والاسرة، والاحذية، والسراويل ، ومن الكحول أو الخبز الابيض ، وحتى من التبغ ؛ مكان حيث فنون الحضارة الوحيدة المعروفة هي فنون الحرب ، وحيث كل رجل تعلو مرتبته على مرتبة العبد يملك بندقية ذات خزان وحزاما من الخرطوش ، وحيث الاناس الذين يعيشون بالضبط كما كان ابراهيم يعيش في خيام واطئة، تحيط بهم قطعانهم وماشيتهم، يفهمون مع ذلك بكل دقة كيف يفكون رشاشا ويجمعونه من جديد ، وكيف يستخدمون المدفع •

وأرسل برايس بصره ، من قمة أحد الجبال ، الى الجبهة الاسبانية تحت ، فشاهد سلسلة طويلة من المواقع المحصنة ،المبنية من الحجر ، تكلل كل قمة من سلسلة الهضاب • وكان خط الاستحكامات يمتد من الشاطىء حتى الحدود الفرنسية • وكان

كل موقع عرضة للرماية المتصلة وللعزل المؤقت من قبل رجال العشائر الريفية المختبئين بين الصخور في المنحدرات المقابلة ٠

وانتهت سفرة استمرت ثلاثة أيام ، تصحبها اصداء طلقات البنادق ، فوق جبل يبلغ ارتفاعه ٥٠٠٠ قدم ، ببرايس الى سرير نهر عريض مفروش بالحصى أعلن الدليل انه يؤدي الى مقر قيادة عبد الكريم ، في مكان امتنع برايس عن تسميته ٠ ولقد كان وارد برايس أول مراقب حيادي يقابل عبد الكريم :

حين انتهى النهار الحار ، قدمت سحب ثقيلة تتدافع من ناحية البحر الابيض، وما أسرع أن غرقنا في مطر مدرار ٠ وبعد ساعتين من المسير الشاق المتعرج على طول سرير النهر سمعت أخيرا أصواتا على جانب الجرف فوقنا ، واما تلصصت من تحت قلنسوة ثوبي العربي شاهدت مدفعا جبليا يجر على درب ضيقة من قبل عشرين أو ثلاثين ريفيا يرتدون أثواب رجال القبائل البنية القاسية العادية ٠ وصاح أحدهم ، وكان يبدو أنه صاحب سلطة ، في دليلي اللذين يبدوان كغربيين في برنسيهما الابيضين، وهو زي السهول٠

واعتبارا من ذلك الحين كنا نوقف دون انقطاع ونستجوب حتى أصبحنا على مرأى الغرض من سفرتي ، ألا وهو بيت آجري من طابق واحد شيد ، مثله مثل سائر بيوت الريف ، على خطوط استحكامية ، وهو ينهض بصورة واضحة على جرف ينعطف النهر حوله في مجراه ٠

وكانت سارية للعلم تنتصب عند مدخله ، لكن ما كان يسمه على اعتباره مقر القائد هو خط هاتفي يمتد منه على أعمدة رقيقة عبر الوادي ٠ وسرنا في اتجاه المنزل على طول درب زلقة عبر دغل من أشجار الصبار ، يوقفنا ويستجوبنا في المطر المنهمر عربي بعد آخر ، وجميعهم ناحلون ، طوال القامة ، جنود يتسلحون ببنادق الموزر في أيديهم وبالمسدسات الاوتوماتيكية المعلقة في خصورهم ٠

وعلى الرغم من أني لم أفهم شيئا ، فقد ادركت سريعا أن وصولي غير المتوقع قد أثار الشبهات ٠ وأخيرا ، بعد أمر قاطع بالنزول عن دابتي ، أخذنا الى مدخل باب واطىء يؤدي الى مكان مدهون باللون الابيض ، خال

من النوافذ ، كانت البنادق فيه تتدلى من كلابات في الجدار ٠ وهكذا وجدت نفسي في غرفة حرس عبد الكريم ٠

وفي نهاية الامر ، بعد محاولة لاستجوابي بالاسبانية ، وقد رددت عليها بالفرنسية ، سجل ضابط الحرس بيانا طويلا عن الغرض من رحلتي وأرسله مع بطاقتي بوصفي المراسل الخاص **للديلي ميل** الى عبد الكريم نفسه ٠

وسرعان ما ظهر شاب يرتدي ثيابا أغلى ثمنا ويحمل حزاما جميلا لمسدس مصنوعا من جلد قرمزي اللون ، وقد قيل لي انه أحد ضباط أركان السلطان ٠ وكان يفهم قليلا من الفرنسية ، وقال أخيرا بلباقة تامة بواسطة المترجم : لا تستطيع أن تبقى هنا ، لان الطائرات الاسبانية التي ألقت خمسا وسبعين قنبلة حول هذا المنزل اليوم وقتلت رجلا واحدا يمكن ان تعود ٠ ان القنبلة الاخيرة سقطت هناك ٠

وأشار الى حفرة دنسة تقع على بعد ثلاث ياردات من الباب الرئيسي، وكانت الشظايا فيما حولها قد انغرست بالجدار في جميع الاتجاهات ٠ وقال انه سيبعث بي الى منزل أحد القادة حيث يجب أن أبقى حتى يأتي في الغداة ليخبرني ما اذا كنت استطيع أن أقابل عبد الكريم ٠

وهكذا انطلقنا مرة أخرى ، برفقة حامية من الحرس المسلحين ، عبر المساء الذي راق الآن ، في رحلة استغرقت ساعتين على طول سرير النهر ، ووصلنا بعدما خيم الظلام بوقت طويل الى منزل قضيت فيه يومين أنتظر في كفالة قائد ذكي بني اللحية كانت جميع سلع منزله ، حتى المغلاة التي يصنع الشاي بها ، مسروقة من الجيش الاسباني ٠

وكتب وارد برايس رسالة أخذت الى عبد الكريم ، فاقتيد في اليوم التالي الى حضرة القائد الاعلى ٠

حوالي منتصف الطريق الى مقر القيادة حيث كنت قبلا استدرنا حول زاوية حادة في سرير النهر فوقعنا على مشهد يمكن أن يكون مأخوذا من مسرحية مثل « الالاهة الخضراء » ٠ كانت الشمس تتألق بلمعان عظيم فوق

الحجارة الرملية الحمراء للوهاد المجاورة وفوق الحصى البيضاء لمجرى النهر العريض • وكانت أدغال خضر شائكة من الصبارة تتدلى فوق مسيل المياه الذي كانت ساقية ضيقة تتدفق بصخب في منتصفه • وكانت جرادات كبيرة تنطلق في قفزات طوال من احدى الصخور الحارة الى غيرها • وكان الافق مغلقا من سائر الجهات بجبال خضراء شديدة الانحدار ، بينما كانت نسور ثابتة الاجنحة تحلق في العالي ، على قاع السماء الزرقاء الصافية ، وتحوم دون انقطاع في دوريات لا تتطلب منها جهدا على الاطلاق •

لكن الاعجب من هذا كله أن رجالا طوال القامة ، ثابتي القوام ، يرتدون ثيابا بنية فضفاضة وعمامات زرقاء خفيفة ، كانوا يقفون على مسافة خمسين ياردة من بعضهم بعضا في دائرة كبيرة تضم جانبي مجرى النهار ، وقد جمدوا جميعا في وضعية الاستعداد وبنادقهم الى جانبهم • هؤلاء هم حرس عبد الكريم الخاص ، وهم يشكلون قوة منتقاة ومدربة بصورة مخصوصة تعدادها خمسمائة رجل ، جميعهم بطول ست أقدام ورماة مهرة لا يخطئون • كانوا يقفون جامدين مثل التماثيل ، تتجه انظارهم جميعهم الى داخل الحلقة ، في مظهر مسرحي لكنه مؤثر ، يضفي المهابة على الرجل الاقرب الى القصر الضخم الجسم ، المرتدي ثوبا بنيا بسيطا وعمامة خضراء ، الذي كان ينتظر عند طاولة بسيطة أقيمت على الحصى الجاف لمجرى النهر •

كانت الخطوط الاسبانية تمتد على مسافة أقل من ميلين ، وقيل لي ان الامير يستقبلني هنا بحيث يقل خطر ازعاجنا من جانب الطائرات الاسبانية •

كان لعبد الكريم ، البالغ الثانية والاربعين ، محيا أحمر مليء ولطيف قد لوحه الطقس وغطته التجاعيد ، بعينين طارفتين ولحية العربي القصيرة المعهودة • وكانت يداه مليئتين وظريفتين ، وصوته خفيفا وسريع النبرات

ولقد سمعت أن الاسبانيين عزوا الى زعيم الريف أعمالا تتصف بالقسوة والوحشية ، لكن شيئا في مظهره أو تصرفاته لم يكن يوحي بأي استعداد همجي عنده • كان الانطباع الذي يعطيه هو بالاحرى انطباع

البديهة الحاضرة ، وكان في تصرفه الهادىء ، البعيد عن الادعاء والتكلف ، الشيء الكثير من الثقة بالذات •

وكان يصحبه شاب أقل تجهما في مظهره من معظم أعراب الريف ، وكان يتكلم بعض الفرنسية وقليلا من الانكليزية ، وأخبرني أن عبد الكريم أرسل في طلبه من أجدير ، على بعد ست ساعات ركوب ، كي يقوم بالخاصة بدور المترجم في حديثنا •

وكان السؤال العاجل والحائر الذي افتتح عبد الكريم الحديث فيه هو : « كيف تدبرت أمرك للوصول الى هنا ؟ » وأصر على التفاصيل جميعا ، ومن ثم خاطبني المترجم قائلا : « ان الامير في غاية السرور لرؤيتك، لانه يعرف أن **ديلي ميل** هي كبرى الصحف الانكليزية ، وهذه هي المرة الاولى التي تسنح له الفرصة فيها لاستقبال مراسل بريطاني » •

واستأنف عبد الكريم الحديث عن طريق المترجم بالعربية ، لكنه كان يشدد من حين لآخر على احدى العبارات بأن يكررها بالاسبانية •

وأعلن : « ان عرب الريف الذين اختاروني أميرا عليهم يدافعون عن استقلال أراضيهم ضد سيطرة أجنبية يحاول فرضها عليهم ، وهم لن يرضوا بها قط •

« اننا جميعا سيئو العدة بالمقارنة مع الاسبانيين ،لكنقوتنا الاخلاقية تعدل الفارق في السلاح • ومع ذلك فاننا لا نريد الحرب ، وقد أبلغت الحكومة الاسبانية قبل سنتين بواسطة الجنرال كاسترو جيرون في مليلا أنه اذا اعترفت اسبانيا باستقلال الريف فاننا سنوافق على أن يكون لها المركز الاقتصادي المفضل في استثمار موارد بلادنا الغنية • ولقد رفضوا هذا العرض ، ومنذ ذلكالحين تحسنوضعنا العسكري وتقوى أكثر فأكثر •

« ومهما يكن من أمر ، فاننا لا نبرح على استعداد للتفاهم مع اسبانيا• على اننا لم نطلب اخلاء البلاد بكاملها ، واذا ما انتهى الامر ، كما نود ، الى تحديد الحدود الاقليمية بينناقسوفيتبينأنهليس ثمةمصاعب تعترض هذا الاتفاق • بيد أن هذه الجبال كانت منذ الازمان المغرقة في القدم ملكية أسلافنا ، ولسوف ندافع عنها حتى القطرة الاخيرة من دمائنا •

« واذا كانت اسبانيا راغبة في حرب دائمة في الريف فانه يمكن أن تكون لها مثل هذه الحرب • ان قرارنا حازم ، ولقد اتحدت البلاد تحت حكمي كما لم تتحد من قبل قط •

« وحتى حين لا تجري أية أعمال حربية خاصة ، فان ١٠٠ ــ ١٥٠ جندي اسباني يقتلون كل اسبوع في هذه الجبهـــة ، في حين أن الجيش الاسباني لا يلحق بنا الا أذى ضئيلا جدا ، باستثناء قصفه لقرانا من الجو وقتل نسائنا واطفالنا •

« ويخيل الي ان قـــادة الاسبانيين يفكرون انطلاقا من المصـــالح الشخصية بالاحرى من المصالح القومية • واني لاتلقى أحيانا رســـائل غامضة منهم ، وان تكن من ذلك النوع الذي لا استطيع الوثوق به مطلقا • ولقد أرسلوا الي مؤخرا عميلا مسلحا يدعى تيرجيني ، مع رسالــة تنص على أنهم يتهيأون للقيام « بحركات عسكرية لا تتضمن أي تقدم » ، لكن الرسالة كانت مغفلة من التوقيع ، بحيث ما كنت أستطيع أن أعيرها أي اهتمام •.

« ان مصالح العالم بأسره تخدم بتسوية سلمية بيننا ، لانـــه مـن الكذب الادعاء ، كما يقول الاسبانيون ، بـأن شعب الريف معاد لجميـع الاجانب • واذا ماضمن استقلالنا ، فاننا سنفتــح البـلاد عـلى مصراعيهـا للتعاون الاجنبي • ان لدينا مناجم من النحاس ، والرصاص ، والفحم ، تنتظر الرأسمال الاجنبي من أجل تطويرها •

« ولسوف نرحب بالمساعدة الاوروبية في تحديث أراضينا • ولسوف تتحسن أحوال جميع الناس اذا ما وقع السلم ، وهذا هو السبب في أنني أرسلت عام ١٩٢٢ الى لندن ممثلين أحدهما سيدي بوجبار (وأشـار الى العربي الشاب الذي يترجم لنا) لاحث وزارة الخارجية البريطانية على اقناع الحكومة الاسبانية بمحسنات التسوية •

« ولقد بقيا هناك خمسة أشهر ، لكن اللورد كورزون (وزير خارجية حكومة المحافظين) لم يستقبلهما ، وهكذا لم تؤد مهمتهما الى أية نتيجة • وان لديكم الآن حكومة جديدة (الحكومة العمالية الاولى التي كان رامسي

ماكدونالد يشغـل فيها منصبـي رئيس الوزارة ووزير الخارجية معا) في انكلترا ذات مثل عليا سلمية، وسوف أطلب منك ان تحمل باسمي الاقتراح نفسه اليها • فلتعطنا أوروبا الاستقلال الذي هو حقنا الموروث غير المتازع ، وسوف يحل السلام وتتوفر الفرصة لجميع الناس في الريف • لكنه بينما تثابر اسبانيا فيمحاولاتها العديمة جرويلاخضاعنا،فان هذه الحرب العقيمة ستستمر دونما انقطاع • »

وسألتعبد الكريم عن نوع الحكم الذي يفكر فيه اذا ما ضمن استقلال الريف فقال :

« ان الدين الاسلامي لا يعترف الا بشكل واحد من الحكم ، ألا وهو حكم الامير • ان الحكم بمجالس تمثيلية يناقض المبادىء المحمدية • ومع ذلك فان نظامنا ديموقراطي جدا ، لان الامير ينتخب بحرية من قبل رؤساء القبائل ، ويمكن خلعه اذا لم يرض الناس وانتخاب أمير آخر يحل مكانه • وكذلك فان خلفه ينتخب بالاقتراع بعد وفاته » •

وكان سُلطان مراكش ، وفقا للاتفاق الفرنسي الاسباني ، هو بعد سيد الريف الاسمي ، وهو يطالب نفسه بالخلافة على المسلمين الاعراب هناك ، فاستفسرت عن طبيعة العلاقة التي ستقوم بين دولة ريفية مستقلة والسلطان ، فقال عبد الكريم :

« اننا لا نستطيع ان نعترف بسلطان مراكش في حال من الاحوال ، اذ أن الحقيقة هو أنه ليس سلطانا البتة ، بل هو باق على اعتباره رئيسا صوريا مناسبا » •

ذلك هو البيان الذي أعطاه أمير الريف عن موقفه في هذه الفرصة الاولى التي سنحت له منذ زمن طويل للاتصال بالعالم الخارجي على نطاق واسع ، وقد نقلته بقدر طاقتي من الامانة • ان بلاده هي من تلك المناطـق المضطربة القليلة في العالم حيث ليس للبريطانيين مصالح ، بحيث يمكن عدم الانحياز بكل سهولة في هذا الموضوع •

وان في حجته لقدرا كبيرا من المنطق • فقد اخفقت اسبانيا طوال اثني عشر عاما في جعل « محميتها » صالحة ، واذا هي قاتلت عشرين عاما آخر ،

فانه لن يكون من المرجح مع ذلك أن تتوصل الى اخضاع تلك الجبال التي تكاد أن تكون غير سالكة مطلقا. ومن جهة أخرى، فان الريفيين لا يستطيعون أن يأملوا في طرد الاسبانيين من مراكزهم القائمة في السواحل، حيث تستطيع مدافع الاسطول الاسباني أن تدعم المقاومة .

والنتيجة هي مأزق لا خروج منه ، يكلف اسبانيا حيوات كثيرة ، ومالا كثيرا ، وأزمة سياسية مقيمة في الداخل ، بينما يبقي داخل الريف في انعزال بدائي ويعوق مناجمه الغنية من المشاركة في ثروة العالم .

واذا ما امكن الوصول بفضل العمل الدولي الى تسوية مناسبة تحفظ كرامة اسبانيا ، فان المنفعة العامة ستتعاظم اذن . « لكن لعل بعض الدول الكبيرة » ، كما قال عبد الكريم في شيء أقرب الى بعد النظر في ختام حديثنا، « غير عازفة عن مشاهدة اسبانيا وقد أضعفتها حربها في الريف بصورة مزمنة » .

وأعطى عبد الكريم وارد برايس رسالة الى رئيس الوزراء البريطاني ترجمها له أحد الطلاب العرب وقد سلمها الى صاحبها لدى عودته الى انكلترا ، وكانت تنص على ما يلي :

الى وزير الخارجية المحترم في الحكومة البريطانية .

سيادة الوزير المبجل ،

ان حكومة الريف تبذل في الوقت الحاضر كل جهودها للدفاع عن استقلالها في الحرب الدائرة الرحى بينها وبين اسبانيا . وان هذه الدولة الاخيرة لتمزق في هذه الحملة حقوق الانسان .

اني اتوجه اليك باسم الانسانية كي تدعو اسبانيا الى وضع حد لهذه الحرب الوحشية التي دمرت حيوات كثيرة حتى الآن .

وأقدم اليك اني الامير المعترف به لدولة الريف ، وأني مستعدلارسال السفراء لمناقشة شروط الصلح بشرط ألا تسيء الى شرف بلادي أو تؤثر في استقلالها .

والا فان السيف هو الذي سيقرر هذه القضية ، وسوف يكون النصر بين يدي الله ، الذي يمنحه لمن يشاء .

محمد بن عبد الكريم

(كان الله في عونه !)

وحين يعلق وارد برايس على هذه الرسالة ، فانه يقارن بين عباراتها الواضحة المقتضبة والاسلوب البليغ لمعظم المراسلات الشرقية ، ويجد أن ذلك من خصائص تصرفات القائد الريفي الوطني وطرائقه ، هذا القائد الذي كان ذهنه « في مظاهر عديدة حديثا تماما وجيد الاعلام » .

وأخبر عبد الكريم وارد برايس أن ١٢٠٠٠٠ من أصل المليون نسمة الخاضعين لحكمه هم مقاتلون ، وهو تقدير سخر منه الاسبانيون ، كما تبين لبرايس فيما بعد ، قائلين انه ليس لدى عبد الكريم سوى ٤٠٠٠٠ رجل مسلح لم يكن يتوفر منهم في جبهة القتال في أي وقت أكثر من ٣٠٠٠ رجل . والحقيقة أن ذلك تقرير يستلفت النظر ، اذ كانوا هم انفسهم يتباهون بأن لديهم ٦٠٠٠٠ جندي عند الطرف الغربي من المنطقة فقط .

* * *

أعطى وارد برايس ، في المقالتين اللتين نشرتا في **ديلي ميل** في ٢٤ و ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٢٤ ، انطباعاته عن الريفيين ، قائلا ان مقالتيه يجب أن تدمرا أحد الاوهام الاكثر رومانطيكية عند الرأي العام البريطاني . ولقد ظل الروائيون طوال سنوات يحصلون الثروات من وراء هذا الوهم الذي ينتشر احساسه الزائف عبر ما يكفي من « بكرات السينما كي يمتد من لندن الى مراكش » . وكان برايس يقصد خديعة الشيخ ، « هذا الشخص القاسي ، المتهور ، العاشق ، العنيف الاغراء ، الانيق اللباس ، الواثق من نفسه ، المتصف بالرجولة ، الزائف والوهمي كليا ، الذي يختطف فتاة انكليزية جميلة ، متكبرة ، ذكية ، على جواد أصيل حاملا اياها الى خيمة تغص بالبسط الحريرية والاشربة المحلاة ، ويكسب هناك حبها المرغم بجلدها المرة تلو الاخرى بسوط ذي قبضة ذهبية مرصعة » .

لقد عاش طوال عشرة أيام بين شيوخ الريف الحقيقيين غير المفسدين ، هؤلاء الذين لا تستطيع حتى الكاتبة الاكثر اثارة أن تعاند في حقيقتهم . وكان كل رجل يحمل بندقية تتدلى على كتفه وغدارة على وركه . ولقد جلس على الارض ، يغرف الطعام بيده من نفس الوعاء مع « قائد شاب قتل بالامس عدوه وجاء برأسه لاطلاع زوجاته عليه » . ويقول برايس انه صادف نساء جميلات في الريف ، « ولم يكن هؤلاء النساء انكليزيات طبعا ، لكنهن كن في أغلب الاحيان يضارعن الانكليزيات جمالا ولطفا ، لان هؤلاء البرابرة القاطنين الريف هم عرق ابيض وليسوا أفريقيين أصلا » .

ولقد وجد برايس ان « مقام الشيخ اغنى مما قرأت في أية رواية عـن الصحراء أو شاهدت في أفضل الافلام عن البدو • ومع ذلك فان حب الفتاة الانكليزية الوحيدة لآسرها العربي الذي لوحته الشمس ،والاستسلام العاطفي الذي تنتزعه من قلبها المتكبر شخصيته القاسية الرومانطيقية ومحيطه ، قد ازداد استحالة بكل وضوح في كل لحظة • »

وانه ليمكن اعطاء السبب في كلمة واحدة ألا وهي « البراغيث » • فعلى الرغـم من عشرين سنة من المساعي الاسبانية ، فقد كانت قوة واحدة تملك الريف بصـورة فعلية ، « البراغيث في كتائب لاحصر لها » • ان الحب ولدغ البراغيث لايمكن بكـل بساطة أن يتعايشا • وحين كان برايس يضطجع ليلا يتلوى على حصيره المجدول من القش ، يدلك يائسا مسحوق الحشرات في جميع مسام جسده ، كان يسمع الشيوخ من حولـه يحكـون جلودهم • وكتب يقول : « لا اعتقد رغما عن عيون النسر في وجوههم ،ولحاهم السوداء المتموجة ، وتصرفاتهم الحرة على الطبيعة ، ان حب أية فتاة انكليزية يمكن أن يصمد لهـذا الاختبار » • وكانت البراغيث تحيا حياة فاتنة في الريف كما علم ، اذ لاحـظ مـرات عديدة واحدا من رفاقه يبحث بين طيات ثوبه الكبيرة عن عدو مزعج بصورة مخصوصة فاذا ما عثر عليه أمسكه بأصابع متمرنة « ووضعه بكل حرص دون أن يؤذيـه على الارض فيما بيننا » • كانت عاداتهم تمنعهم عن قتل الحيوان دونما سبب • ولقد رأى برايس رجلا واحدا فقط يغتسل حين كان في الريف ،وكان هذا الرجل اسود اللون: كان الماء شحيحا جدا • ولقد رأى برايس النسوة يأتين به على ظهور الحمير في جلود غير مدبوغة من البرك البعيدة والمجاري الهزيلة في الهضاب •

وزار وارد برايس من جديد ، في طريق عودته الى انكلترا ، مدريد حيث استقبله بريمودي ريفيرا ووزير خارجيته • ولدى مناقشة رسالة عبد الكريم الى رئيس الوزارة البريطانية لخص الدكتاتور الاسباني جوابه في جملة واحدة غير مؤهلة : « ان السـلام على الاسس التي يقترحها عبد الكريم أمر محال • » وخاطب بريمودي ريفيرا بـرايس قائلا : « ان هذه الرسالة من عبد الكريم تدعو الحكومة البريطانية الى تحريض اسبانيـا على وضع حد لذلك النزاع المسلح في الريف • لكن الامر يتوقف على عبـد الكريـم ، لانه هو الذي يقوم بالهجوم باستمرار ، ونحن نقاتل كي نرد هجماته فحسب • اننـا لانطلب افضل من اقامة حمايتنا في الريف بالوسائط السلمية • »

وقال بريمودي ريفيرا : ان عبد الكريم يدعي انه « أمير الريف المعترف بـه » ،

ثم عقب على ذلك مستوضحا : « من الذي اعترف به ؟ ان الفئة المناصرة له في الريف هي وحدها التي اعترفت به ٠» واكد بريمودي ريفيرا ان الاستقلال الذي يطالب به عبد الكريم لايملك اي وجود قانوني ٠ لقد كان الريفيون على الدوام رعايا اسميين لسلطان مراكش الذي أناب سلطته الى اسبانيا ، فوضعهم القانوني اذن هو وضع العصاة وليس وضع الامة المستقلة ٠

واستطرد يقول : « ان اسبانيا تنجز في الريف مهمة دولية ٠ فقد اعترفت الدول الكبرى بحمايتها على مراكش الشمالية ٠ ان فكرة قيام دولة همجية صغيرة مستقلة على الساحل الجنوبي من البحر الابيض المتوسط فكرة غير واردة ٠ أما بخصوص «شرف بلاده» الذي يتحدث عبد الكريم عنه ، فان شرف الشعب العربي سوف يحترم كليا في ظل حمايتنا ٠ ان سكان المنطقة التي نحتلها بصورة فعلية يتمتعون بالحرية التامة فيما يتعلق بأشخاصهم أو بديانتهم على حد سواء ٠ انهم يعاملون كالاوروبيين تماما ، وشروط حياتهم افضل بكثير من شروط حياة أنصار عبد الكريم ٠»

وصرح بريمودي ريفيرا قائلا : « اذا كان عبد الكريم يطلب الاستقلال ، فانه يستطيع الحصول عليه تحت حمايتنا » ٠ فاذا استسلم فان اسبانيا ستكون مستعدة لان تسند اليه قدرا كبيرا من السلطة المحلية ، كما فعلت مع ريسولي ٠

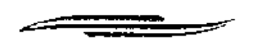
كان من الواضح ، كما حسب واود برايس ، ان بريمودي ريفيرا وعبد الكريم على طرفي نقيض ٠ كان كل منهما في ذلك الموقف الخطير الذي يوحي بأن قضية المرء قضية عادلة ٠ كان الاسبانيون يعتقدون انه لهم الحق الاخلاقي المكتسب في احتلال وادارة أية بلاد متخلفة يستطيعون أن يضعوا ايديهم عليها من دون ان يتعثروا في حرب أوروبية ٠

كانوا يقفون على اسس مواثيق دولية موقعة ومختومة ، وكان موقفهم يقسو بفعل النفور الذي تحس به أمة متكبرة من الاعتراف باخفاقها في قهر خصم تافه بالمقارنة معها ٠ وبالمقابل ، فان عبد الكريم قد توجه الى المقاييس الجديدة في التفكير الاممي التي نشأت منذ نهاية الحرب العظمى ، وكان يطالب في شمالي افريقيا بتحقيق المثل الاعلى لحق الاختيار فيما يتعلق بالولاء السياسي ٠ وكان اهل الريف لايقلون كبرياء عن الاسبانيين ، وكانوا لايقلون عنفوانا عنهم في مواطىء اقدامهم ٠ ويعيد

برايس الى الاذهان ما قاله محمد أخو عبد الكريم : « سوف نقاتل حتى الرجل الاخير ضد النير الاسباني ، تماما كما تفعل اسبانيا لو غزت دولة اخرى اراضيها » ٠

وفي انتهاء المقابلة مع بريمودي ريفيرا ، أطلعه برايس على الصورة الفوتوغرافية التي أخذها لعبد الكريم ، فلاحظ بريمودي ريفيرا : « من المؤكد انه ازداد سمنة منذ كان في خدمتنا في مليلا ٠ لقد كان شديد النحول يومذاك ٠»

واخبر وارد برايس قراءه البريطانيين والاميركيين بأن الحرب في الريف يمكن أن تستمر طوال سنوات ـ وكانت تلك هي المرة الاولى التي يطلع فيها هؤلاء القراء على حقائق صحيحة عن القائد الريفي ٠



انسحاب في الشرق

أرسل عملاء عبد الكريم في طنجة نسخا عن الصحف التي أوردت بيان بريمودي ريفيرا العلني عن خططه الخاصة بمراكش • ان الجيش سيخلي تافرسيت وتيزي عزة في الشرق وشفشاون في الغرب في ايلول (سبتمبر) ١٩٢٤ • ان في نية الاسبانيين أن ينسحبوا من داخل منطقتهم وان يتجمعوا حول تطوان ومليلا • وكانت الصحف تشير الى ان الرأي العام في البلاد ساخط من جراء التشويش والاخطاء المرتكبة في مراكش ، فكل رغبته منصبة على ان يرى الحملة منتهية • وكان الرأي العالمي يميل في مصلحة الريفيين • فلم يكن البريطانيون والاميركيون يضمرون اي حب لاسبانيا ، وكانوامغتبطين بمصابها ساخرين من عجزها عن قهر عرق بدائي صغير • وكانت مجلة بانش الساخرة تدافع عن الريفيين بكل قواها ، هذا اذا كان هؤلاء الريفيون قد شاهدوا اعدادها قط • وكانت رسومها تمثل الاغنية الشعبية في قالب من الهزل ، فتصور بريمودي ريفيرا يغني : « أجل ليس لدينا أي حظ اليوم » •

وأفرحت الانباء عبد الكريم وأخاه محمدا • ان في نية الاسبانيين أن ينسحبوا وأن يتركوا لعبد الكريم السيطرة على الريف • ولقد كان نفوذه في الريف هائلا منذ الآن ، وكان التصريح بالنوايا الاسبانية سببا في زيادته أكثر فأكثر • ورسم عبد الكريم وأخوه خططهما •

وفي زمن زيارة برايس في نيسان (ابريل) ١٩٢٤ ، كان الريفيون يسيطرون على السلسلة الجبلية الوسطى من الريف • وفي الشرق ، في اعقاب انسحاب الريفيين من مليلا ، استرد الاسبانيون الارض حتى نهر القرط وتقدموا ما وراءه كي يؤمنوا قريتي تيزي عزة وتافرسيت كنقاط استناد من اجل أي عمل هجومي مقبل • وفي‌الغرب كانوا يسيطرون على شفشاون ومناطق غمارة والجبالا حيث لاذ ريسولي بالهدوء لمدة من

الزمن • كانت خطوط الاسبانيين اذن ، كما كانت حالها عام ١٩٢١ ، متمادية بصورة خطيرة ، وكانوا يسيطرون على الارض بفضل سلسلة من المواقع المنعزلة والمبعثرة ، المكشوفة حتى درجة بعيدة من جراء افتقارها الى الماء وحاجتها الى التموين المتواصل • وكان عدد كبير من هذه المواقع عرضة للهجوم المستمر من جانب الرماة الريفيين • وكانت القبائل في الغرب ، هذه القبائل التي تقطن مناطق غمارة والجبالا ، ريفية بصورة جزئية فحسب ، وكان لابد لعبد الكريم ، كي يكسب هذه المناطق ، أن يكسب قبلا تعاون رجال القبائل معه •

وكان هؤلاء القبليون الجباليون ، كما يمكن تسميتهم بصورة مناسبة ، « سريعي الهيجان سلسي القياد » على حد تعبير د•ب• هارليس ، ويمكن أن يتبنوا أية قضية جديدة وينضووا تحت لواء أي زعيم جديد أو يتخلوا عن كليهما بسهولة محيرة اذا ماطاب ذلك لهم • ولقد دعموا ريسولي بكل حمية ذات يوم ، وهؤلاء هم يتبنون اليوم عبد الكريم بما لايقل عن ذلك حماسا •

وكان ريسولي قد حكم هؤلاء الرجال القبليين سنوات عديدة ، تحت السيادة الاسبانية بصورة تزيد أو تنقص • ولقد قطف ثمارا من كل حركة في اللعب ، وهو يلعب دور المتعاون تارة ، ودور الثائر تارة اخرى • وفي عام ١٩٢٤ كانت السن قد تقدمت به وكانت همته رديئة جدا ، فقد كان يشكو داء الحبن ، وكان لابد من حمله حيثما أراد الذهاب • واما كان على استعداد دائما للقضاء على الضعيف وتأييد القوي ، فقد رحب بصعود بريمودي ريفيرا الى السلطة في رسالة سمجة اذ أبرق الى مدريد يعبر عن « اخلاصه ، وصداقته ، ورغبته الصادقة في مساعدة الامة النبيلة ، واعدا بالمحافظة الى الابد على السلام وسلطة اسبانيا وحكومتها ، وجيشها الظافر في القسم الخاص به من مراكش ، وبدعم سمعة الحماية في هذه الايام العصيبة » •

وحققت تمنيات ريسولي النتيجة المرغوبة ، اذ ان المدفوعات التي كان يقدمها الاسبانيون اليه ، والتي كانت متأخرة منذ بعض الوقت ، قد استؤنفت من جديد • وسعى ريسولي كذلك الى الاستفادة من الخلاف المؤقت في السلطة في تطوان ، في اعقاب قيام النظام الجديد ، فأرسل قوة غزو الى ناحية وادي لو ، وكانت بأمرة قائد شاب يدعى احمد هريرو • وحين رجعت العصابة الى مقرها ، انكر ريسولي على هريرو نصيبه العادل من الغنيمة ، فما كان من هريرو الحانق الا أن هرب الى الريف •

ورحب عبد الكريم بالقائد الشاب ، فقد كان هذا هو الرجل الذي يحتاج اليه من اجل استنهاض القبائل الغربيةضد الاسبانيينوضدريسولي ·ولقد كان هريرو ،كما وصفه عبد الكريم بالذات « حسن المنظر ،سريع البديهة ،ذكيا ،شجاعا ، جنديا وقائدا»· واعطاه سلاحا ومالا وأرسله الى الجبالا كي ينظم المقاومة ، فريسولي سيفتقر الى كل تأييد حين ينسحب الاسبانيون · ولم يكن لريسولي أي نفع لدى عبد الكريم ، فهو خائن ، ومتسلط شرير ، يجمع بين أسوأ صفات الزعيم المراكشي ، وهو مسؤول عن النجاحات التي حققها الاسبان في الغرب · ويقول عبد الكريم في مذكراته : « كان ريسولي أنانيا ، جشعا ، لصا لايهمه الا شخصه وحده » · ولقد عرض عبد الكريم باحجام ، عام ١٩٢١ ، على ريسولي قيادة المغرب ضد الحكم الاسباني ، فرد عليه ريسولي بالاهانات ، ووصف عبد الكريم بالعاصي ، والوصولي ، والتافه · كان ريسولي حاقدا على نجاح عبد الكريم ، وقد جعل منه النصر الذي حققه الريفيون في انوال حليفا مطلقا لاسبانيا اخيرا ·

وسعى الاسبانيون الى مساعدة مراكشي بارز آخر ضد عبد الكريم · فقد عينوا عبد المالك ، رغما عن احتجاجات الفرنسيين الذين اتهموه بالخيانة ، قائدا لقوة من الجنود المولدين وأرسلوه الى مليلا · وخطط مالك للتخلص من عبد الكريم ودعاه الى مؤتمر ، فذهب عبد الكريم الى الاجتماع بحماية جماعة من الرجال المسلحين ، اذ أنه ارتاب بأن ثمة خديعة وغدرا · ووجد مالكا يحيط به بعض أصدقائه · وأصغى مالك الى عرض عبد الكريم بتسليمه قيادة في الريف ولم يقل شيئا ردا عليه · وحين انتهى عبد الكريم من كلامه خرج مالك من المكان في صمت · ويعتقد عبد الكريم أن مالكا قد اغتاله الاسبانيون انفسهم ولم يقتل في المعركة مع الريفيين كما زعموا · ويصف عبد الكريم في مذكراته مالكا على اعتباره خائنا ، ويتهمه بأنه حرض الاسبانيين على سجنه في مليلا عام ١٩٢٥ ·

وحاول الاسبانيون في ذلك الحين أن يغتالوا عبد الكريم وأرسلوا الى الريف عميلا مسلحا ببندقية وقنبلة يدوية ورزمة من السم · وأخبر الرجل عبد الكريم بمهمته ، فجرب السم في كلب نفق في الحال ، وكافأ الرجل ·

واما قدر عبد الكريم ان الحرب تتطور على جبهتين ، خارج مليلا وفي منطقة شفشاون ــ تطوان ، واما أدرك ان الانسحاب الاسباني سيوفر الفرصة من اجل

توجيه ضربة قاضية ، فقد أعاد تنظيم جيشه • لن يسمح الريفيون للاسبانيين أن ينسحبوا بسلام ، بل يجب أن يلقنوا درسا اخيرا ، درسا يؤمن الى الابد استقلال الريف • ولم يكن عبد الكريم يطلب ثأرا ، وكان مستعدا للقبول باحتفاظ الاسبانيين بمليلا وسبته • وحين ينسحبون الى أماكن اقامتهم القديمة ، فانه على استعداد لان يصبح صديقا لهم •

احتفظ عبد الكريم بالقيادة العامة لنفسه ، وعين أخاه قائدا للجبهة الغربية ، مع هريرو مساعدا له • كان محمد الخطابي في الثانية والثلاثين ، وقد برهن على انه اداري كفؤ وقائد ممتاز • ولقد كان من المحتم أن يحتجب محمد في ظل أخيه الاعظم شهرة؛ ولعله كان يفتقر ، كما يقول هو نفسه ، الى رؤيا عبد الكريم واقدامه • ومهما يكن من شيء ، فان تعاونه القلبي واخلاصه التام كانا عاملا عظيم الاهمية في النجاحات الريفية • وجال في خاطري حين تحدثت الى محمد الخطابي عام ١٩٦٤ أنه يمكن أن يكون « رئيسا للاركان » مثاليا ؛ فقد كان هادىء الطبع ، عميق التفكير ، وأظهر في مناقشاتنا اهتماما مدهشا بشأن التفاصيل الدقيقة • ولقد فهمت من بعض الاشياء التي رواها لي عن الحملة التي قادها شخصيا أنه كان يحاول على الدوام أن يقدر بصورة مسبقة عواقب اعماله • ولقد رسم خطة مفصلة من أجل ضرب الانسحاب الاسباني من شفشاون ، ومن المؤكد ان الاسبانيين أسهموا في تحقيق الكارثة التي حلت بهم ، وقد أحال محمد الانسحاب الى هزيمة شنعاء •

وقد عين عبد الكريم قائدا لجبهة مليلا زعيما شابا من عشامان يدعى يعقوبي ،وهو شاب برز في معارك وادي أقرموس • وقد أوضح عبد الكريم ليعقوبي أن مهمته هي أن يندفع جنوبا من سيدي ادريس على الساحل الى تيزي عزة ، بينما يندفع حدو أمازان ، وهو قائد من بني ورياغل ، شمالا من اكنول • ان الحركتين ، اذ تتلاقيان على جناحي الاسبانيين ، ستقطعان مواصلاتهم مع مليلا ، وتجبرانهم على التقهقر من تيزي عزة وتافرسيت • وكان ذلك تحركا يتطلب تنسيقا كبيرا ، وقد أشرف عليه عبد الكريم شخصيا بواسطة هاتف الميدان من مقر قيادته في أية قمرة ، على بعد ثلاثة عشر ميلا جنوبي أجدير ، وأرسل عبد الكريم قائدا آخر من تمسامان ، شائب غوح ، ليراقب الحدود الفرنسية على طول نهر ورغلا • ولقد أوجد هرما قياديا آخر با نربط بنفسه شابا آخر من بني ورياغل ، محمد شيدي ، عينه قائدا عاما في الشرق والجنوب

الشرقي . وأصدر عبد الكريم تعيينين آخرين ، اذ شكل كتيبة مدفعية منفصلة وضعها تحت قيادة محمد بدبرنوسي ، وهو رجل في متوسط العمر يتحلى بكفاءة ميكانيكية عظيمة، وقد اكتسب خبرة كبيرة في المدفعية في جيش السلطان ، كما عين القائد بحوت ، وهو ضابط فذ من التابعين الاسبانيين ، انضم الى الريفيين ، ضابطا مسؤولا عما يمكن أن نسميه « المخابرات المضادة » ، وحين قرر بحوت الانضمام الى الريفيين كان على رأس فصيل احتياطي من الجنود الاسبان ، وقد قادهم القهقري الى خطوطهم قبل ان يلتحق بالعدو . واما كان على اطلاع على الاساليب الاسبانية ، فقد كان في قدرة بحوت أن يتنبأ بسلوك الاسبانيين في بعض الظروف المحددة ، ولقد خدم هؤلاء الرجال عبد الكريم بكل كفاءة ، وكان لهم سهم كبير في الانتصارات الكبرى التي حققها عام ١٩٢٤ .

ولقد حقق عبد الكريم هذا التنظيم المرموق بمساعدة أهل الريف وحلفائهم فقط . وكان دور جندي الفرقة الاجنبية الالماني السابق ، جوزيف كليمس ، مقتصرا على رسم الخرائط والتصوير . أما الاشياء الباقية جميعا ، فقد أنجزها الريفيون بمهارتهم الخاصة وحدها . لقد تعلموا سريعا كيف يستعملون ويشغلون المدافع والرشاشات المعقدة ، والشاحنات الثلاث ، وهاتف الميدان الذي ابتاعه عبد الكريم في الجزائر . وكانت الطائرة وحدها تتجاوز امكانياتهم . واذا كان عبد الكريم قد فكر في خلق قوة جوية ، فاني أعتقد أن غرضه المباشر كان أقل طموحا من ذلك . لقد قاسى الريفيون كثيرا من القصف الجوي الاسباني لقراهم ؛ فالمئات من النساء والاطفال قد اختنقوا، واحترقوا ، أو لفحوا ، بقنابل الغاز السام التي ألقتها الطائرات الاسبانية . ولقد أضعف سلاح الارهاب معنويات أهل الريف ، ولعل عبد الكريم عقد العزم على تقوية هذه المعنويات بشراء القوة الجوية التي كان الكثيرون من رجال القبائل يعتقدون ، كما يقول البروفسور كون ، أن في مقدورها أن تحلق فوق مليلا ، بل تجتاز البحر الى اسبانيا وتنسف مدريد ، « بحيث يعرفون ماتشعر به النساء في الاسواق حين تسقط القنابل وهي تصفر » . وقال أحد رجال القبائل محدثا كون : « اذا كان في قدرتنا أن نذبح المسيحيين بأسلحتهم الخاصة ، فاننا لن نصادف اذن متاعب كبيرة معهم » .

وكائنة ما كانت آمال عبد الكريم في الجو ، فقد كان يملك حاليا أسلحة أفضل بكثير مما كان في حوزته عام ١٩٢١ . ان الفدية التي دفعت لقاء الاسرى الاسبانيين مكنته من شراء البنادق والذخيرة والرشاشات وقطع من المدفعية من الفرنسيين الذين لم

يشعروا قط بأي وخز ضمير وهم يجهزون أهل الريف في حربهم ضد الحليف الاسباني• ماكان في وسع الفرنسيين أن يقاوموا فرصة الكسب على حساب الاسبانيين الذين كانوا السباقين الى السخرية من اخفاقهم في مراكش • وكانت هذه الاسلحة الفرنسية أشد فعالية حتى درجة بعيدة من تلك الاسلحة التي استولى أهل الريف عليها من الاسبانيين أنفسهم • وكانت تضم بنادق من طراز شنيدر ، ورشاشات هوتشكيس ، والمدفع الفرنسي الشهير من عيار ٧٥ مم • ولقد ابتاع عبد الكريم ، فضلا عن هذه الاسلحة الفرنسية ، كميات قليلة من الاسلحة من المهربين الدوليين الذين كانوا يجلبون بضاعتهم الى الساحل الريفي على متن مراكب تجارية ويخوت شراعية •

وان أحد هؤلاء الانتهازيين ، النقيب الانكليزي غاردنر ، قد جلب أسلحة ألمانية من هامبورغ في يخته سيلفيا • ويقول الاداري الفرنسي غبرييلي ، الذي سنسمع من أخباره في وقت لاحق ، أن غاردنر جلب ١٦٠٠٠ بندقية من طراز ليبل من هامبورغ وانزلها الى الساحل عام ١٩٢٤ في مكان ما الى الغرب من خليج الحسيمة • وبالمقابل فان أقرباء عبد الكريم يقولون أنه لم يتم تهريب أكثر من ٤٠٠ بندقية • ويبدو أن غاردنر حسب أنه يتعامل مع شعب بدائي جدا ، اذ عرض أن يبيع عبد الكريم آلة لاصدار الاوراق المصرفية لقاء كل مايملكه الريفيون من نقد حقيقي •

* * *

كان الجيش الريفي عام ١٩٢٤ قوة مجهزة بصورة جيدة ، شديدة الفاعلية ومنظمة بحيث تخوض حرب الغوار ، وهو التكتيك المجرب الذي أصر عبد الكريم على وجوب الاستمرار فيه • لقد أصدر أوامره بأن على الريفيين أن يستغلوا ميزتهم المخصوصة ، ألا وهي قدرتهم على الحركة ، ومهارتهم في الرماية ، وامكانيتهم الكبيرة على التخفي التي كانت اراضيهم الجبلية مناسبة لها على أفضل وجه • واخبر قادته قائلا انه يجب أن يعاملوا كل جندي ريفي على اعتباره فردا ، وان يوضحوا لجنودهم حقيقة الامر القائم ، وأن يطلعوهم على الوضع على حقيقته ، بحيث يفهم الرجال جميعا الستراتيجية العامة للمعركة • ان القادة يستطيعون بهذه الطريقة أن يحصلوا على أقصى مايمكن تحصيله من رجالهم الذين لايبرح الاسبانيون يتفوقون عليهم في العدد كما ذكر عبد الكريم ضباطه • ولقد أكد عبد الكريم أن كل جندي ريفي هو ند لستة

اسبانيين ، ورفض أية فكرة بشأن التنظيم في كتائب منفصلة ، باستثناء ارتداء عمامات مختلفة الالوان لتمييز المشاة الذين يعتمون بعمامة حمراء ، ورجال المدفعية الذين يعتمون بعمامة سوداء ، وحرسه الخاص الذين يعتمون بعمامة زرقاء مخضرة • وكان كل جندي يرتدي جلابيته البنية المألوفة المحاكة في بيته ، ويحمل طعامه الخاص وذخيرته • ومهما يكن من أمر ، فقد قرر عبد الكريم اتخاذ راية ريفية ، وهي علم أحمر قان طرزت عليه نجمة بيضاء وهلال أخضر • وكان هذا العلم يخفق فوق مقر قيادته الخاصة وقيادة أخيه • وكان يقول ان خفقان الاعلام في المعركة هو عادة قديمة بليت ، وهي تخلق احساسا خطيرا بالبطولات الشخصية •

ولما كان عبد الكريم عارفا بصورة مسبقة بالخطط الاسبانية الخاصة بالانسحاب، فقد ركز كل اهتمامه على الجبهة الشرقية أولا ، تاركا لمحمد أمر الاستعدادات من أجل مضايقة الاسبانيين في الغرب • كانت الجبهة الشرقية أقرب الى داخل البلاد وكان الاحتلال الاسباني لتافرسيت وتيزي عزة يطرح تهديدا اعظم من احتلال المنطقة الغربية حيث كانت القوات الاسبانية في وضع سيء وفي آذار (مارس) ١٩٢٤ ، ضرب الريفيون في افران وتيزي عزة وتافرسيت وميدار •

ويقول البروفسور كون في لحم الثور المتوحش أن الهجوم على تافرسيت تم بقيادة القائد الذي ينتسب الى بني تادموت ، بقيش ، وهو الرجل الذي سماه هارت بغيش ، ونسبه الى قبيلة كسيبايا •

وسدد بقيش ضربته الى المدينة قبل الشروق ، يقود صفا من الرجال الزاحفين الذين كانت ألوان ثيابهم تمتزج بالصخور التي يختفون مابينها • وحين باشر الريفيون اطلاق النار ، ولى الحرس الاسباني الادبار الى المدينة • وتقدم الريفيون ، وكل واحد منهم يفكر في الجنة التي سيكسبها اذا هو قتل في المعركة ضد الكفار • ويقول كون : « ولم يصب الريفيون بأية خسائر حتى أصبحوا في متناول خط الرشاشات المقام عند البيوت • وكانت دمدمة هذه الاسلحة ، المطلقة نيرانها بكل خراقة من خلال الكوى الضيقة للطوابق الثانية ، تبين أن المهاجمين كانوا حكماء اذ تبعثروا وراحوا يقاتلون بطريقتهم المعهودة » •

كان الريفيون المنبطحون ، المتقدمون ، يطلقون النار بدقة قتالة • كانت تلك رياضة رائعة ، وسرعان ماتعرت جدران المدينة من المدافعين عنها • « كان اسكات

الرشاش أمرا أصعب ، اذ كانت الكوة في الجدار شديدة الضيق • ومهما يكن من أمر ، فان هذا الضيق قد حدد من امكانية دوران الرشاش بصورة جانبية ، ولم يفقد المهاجمون وقتا كيما يتعلموا قدرة السلاح على الدوران » • وزحف بقيش ورجاله خلف الصخور ، محافظين على أنفسهم بعيدا عن مدى نيران الرشاش ، والتفوا دائرين كي يطبقوا على المدافعين من الخلف • واتخذالاسبانيون مركزهم فيالحفر ، وخلف اكوام التراب ، ودارت رحى معركة فردية حامية الوطيس • بيد أن ضوضاء صاخبة ارتفعت فوق أصوات انفجارات طلقات البنادق ، وراحت تزداد ارتفاعا شيئا فشيئا •ورفع الريفيون أبصارهم ، فشاهدوا طائرة تقترب من ناحية الشرق ، وهتف أحدهم : « انظروا ان لها جناحا واحدا ! هذه أسوأ الانواع ، فهي تطير بسرعة أعظم وتحمل قدرا أكبر من القنابل »•

نظر الريفيون الى الاعلى ، وكانت مواسير بنادقهم أشد حرارة من أن تتحمل اطلاق النار بحيث لابد من معاملتها بكل حذر ، وشاهدوا الآلة الرهيبة تنقض عليهم في دوائر عريضة ، فوق رؤوسهم على وجه التقريب • وكانت الطائرة تطلق النار وهي تنقض من رشاش في مقدمتها ، وتلقي قنابل تنفجر بضجيج يفوق كل ضجيج ارتفع من قبل • وحين أدرك الريفيون عدم جدوى اطلاق النار بينما الطائرة تحوم فوقهم ، فقد تراكضوا يبحثون عن ملجأ من نيرانها • وزحفوا من خلف الصخور والاجمات ، وراحوا يصوبون بنادقهم نحو الطائرة التي جعلت الآن تطير على انخفاض شديد بصورة بالغة الخطورة ، تحفر في الارض أخدودا متموجا بنيران رشاشاتها المنحرفة • وأمسك رجل ببندقيته ذات الصوان ، وعبأ نصف ماسورتها بالبارود ، ووضع كرة حديدية فوق البارود • وأسند البندقية الى حجر وأطلق النار ، فكانت اصابة مباشرة • توقف المحرك على حين غرة ، ولم تمض برهة خاطفة حتى اشتعلت الطائرة ، وسقطت حسب الزاوية التي كانت تطلق النار وفقا لها ، متألقة مثل صاروخ ، وتحطمت أمام جدران المدينة •

انطلق الريفيون الى الامام وهم يطلقون صراخا عنيفا ، وصيحات ظفرهم ترن بصورة رهيبة فتطغى على أصوات نيران البنادق•ان صدمة الطائرةقدطيرت الحجارة فوق كوة الرشاش ، وحين وصل الريفيون المتقدمون الى الجدران شاهدوا الاسبانيين يتراكضون في فوضى عظيمة خارجين من بوابة في مؤخرة المكان • وأسرع الريفيون الى

تلك البوابة ، وطارد بعضهم اولئك الذين كانوا يولون الادبار ، مشتبكين معهم في معارك جسدية ، وقاتلين الكثيرين منهم بسكاكينهم • وشاهدوا ثمانية اسبانيين مستلقين في حماية جانب من الجدار فأجهزوا عليهم • وأخرج بعض الريفيين الآخرين الرشاش من فتحته القديمة ، وحفروا ثغرة في الجدار المقابل من الغرفة بسكاكينهم ، ودفعوا فوهته التي كانت حتى لحظة سابقة هدفهم من خلال الشق الجديد وباشروا اطلاق النار على الاسبانيين المتحصنين فوق الاسطحة المجاورة • ولقد أخــــرج فريق آخر من الريفيين الرشاش من الطائرة المحترقة ، واذ تبينوا أنه لا يبرح صالحا للاستعمال فقد نصبوه على أحد الجدران قريبا من البوابة •

وأخلى الاسبانيون المدينة ، تاركين قوة صغيرة لحماية تراجعهــم • ان الغالبيــة العظمى منهم قد هربوا في فوضى عظيمة ، رامين بنادقهم جانبا ، بله ستراتهم وقبعاتهم • ولم يسلكوا أية طريق معينة ، بل ركضوا مثل اناس أصابهم الجنون ، عبر الصخور الحجرية والاجمات الشائكة ، مخلفين وراءهم قطعا من أرجل سراويلهم ، وبقعا من الدماء•

وطاردهم الريفيون الظافرون • ان فريقا منهمبقيادة رجل يدعى موح أو مزين ، يركضون خببا ويتصببون عرقا ، قد بلغوا حقلا تنتصب عند حافته كومتان كبيرتان من القش قد لفتا وثبتتا بحبال تتدلى بعض الحجارة منها • ويواصل هنا البروفسور كون القصة التي سمعها من أفواه بعض شهود العيان :

نظر موح أو مزين الى هاتين الكومتين من القش ثم ألقى أبصاره الى الخلف من جديد • كانت قمة أحدى الكومتين منحرفة ومتدلية الى جانب واحد ، وكان الحبل المتدلي فوق تقعرها يترنح بلطف الى الوراء والامام ، وحجره النهائي يمر عبر قوس صغيرة •

واستل موح أو مزين خنجره ودار حول كومة القش ، يغمد حده حتى المقبض من كل جانب ، مركزا على المواضع حيث يبدو القشمضطربا ، وهي تشكل منطقة في ثلث المسافةمن القمة •وحينطعن التقعر ، انطلقت صيحـة ألم حادة من القش ، وتحركت قمة الكومة •

وأبعد القبليون القش بفوهات بنادقهم ، وسرعان ما أصابوا جسما حيا فتصاعدت صيحات أشد ارتفاعا من ذي قبل • وتعثر اسباني صغير الى الارض واستلقى عليها باكيا • وزحف حتى قدمي موح أو مزين، فأمسك به الرجل من ياقته وشده بحيث أوقفه على قدميه •

كان الاسباني صبيا لم يبلغ سن المراهقة • وانطلقت من شفتيه الصبيانيتين صيحات حادة مجنونة تنم عن التوسل ، بينما كانت الدموع تتدفق على وجنتيه • وكانت ثيابه مهلهلة ، والدم ينصب من أحد وركيه حيث طعنه موح أو مزين • وكانت قدماه داميتين أيضا ، وقد تقرح أخمصاهما من جراء الحجارة الحادة التي كانت تخترق صندليه المهترئين •

ونظر اليه سي ألوش (معلم المدرسة) في اشفاق عظيم ، وقال :

« سآخذه الى الدار وأرسله الى المدرسة في الجامع• انه لم يتقدم كثيرا في السن بحيث يمكننا تخليصه من عقيدته المسيحية ؟ »

وأخذ موح أو مزين وجه الصبي في يده ، ضاغطا على الخدين النديين بين ابهامه وسبابته • أدار رأس الصبي نحو الشمال ، وأشار بيده الاخرى في ذلك الاتجاه ، وصاح :

« أركض ! »

لم يكن هذا الهتاف يتطلب أية ترجمة • واما انطلق الصبي ، شاهد موح أو مزين طرف حبل يتدلى من جيبه ، فمد يده وتناوله • وهذا هو يجد نفسه ممسكا بمجموعة من الخياشيم والآذان ، متعفنة قديمة ، فألقى بها أرضا على عجل •

وقال سي الوش :

ـ أيها الصبي الخبيث !

وانطلقت رصاصة ، فسقط الاسباني أرضا •

وتقدمت الحركة في اتجاه دار دريوس • وتبين لبقيش أن الاستيلاء على المدينة لن يكون سهلا الا اذا أدى الهلع في تافرسيت الى«تليين عظام المدافعين عنها » •ويستطرد البروفسور كون في روايته :

ان عساكر الصف الاسبانيين ، وهم بطبيعتهم رجال شجعان على الرغم من سوء تغذيتهم وصغر سنهم ، قد لاقوا ما يكفي في هذه الحرب مع الريفيين بحيث كان معظمهم يرغبون في العودة الى بيوتهم • وهكذا فان

منعة أسوار دار دريوس وقوة سلاحها ما كان يمكن أن تؤثرا مطلقا في نتيجة المعركة العتيدة • لقد كان النهار نهار بقيش ، ولسوف تكون تلك الليلة ليلته • وكان يبدو في نظر رجاله وفي نظر الاسبانيين على السواء أنه مقدر له أن ينتصر • وركض المهاجمون يجرفهم الحماس وترتفع عقيرتهم بالصياح حتى سور المدينة نفسه وهم يطلقون عليه النار • أبدا لم يسبق لمثل هذه النيران من الايمان أن اندلعت ، ولمثل هذا الاعراض المطلق عن الحياة أن شوهد منذ أيام النبي محمد نفسه ، هذا الذي كان الجميع يهتفون باسمه • وظلت رحى المعركة من أجل المدينة دائرة طوال الليل •

رجال يجهدون كي يرفعوا حجارة ثقيلة ويلقوا بها على الجدار الطيني مرارا وتكرارا حتى يفتحوا فيه ثغرة ، ورجال يتسلقون قمة هذا الجدار كيما يسقطوا عنه على قفاهم وآثار الطعن في وجوههم ، ورجال يتسلقون أكتاف بعضهم بعضا ويقفزون من فوق الجدار ، يطعنون ما يصادفهم بسكاكينهم حتى يسقطوا ـ ليس على الارض مدافعون يمكن أن يقاوموا وقتا أطول • وحوالي الساعة الثالثة صباحا فتحت البوابات الخلفية للسور الكبير وخرج قطار منها ، منطلقا بكل قوة البخار في اسطواناته ، مقعقعا على طول السكة الضيقة الى تسطوطن • وعلى الرغم من أن عددا من الرجال الذين استلقوا متكومين فوق العربات المسطحة قد قتلوا برصاص الرماة قبل ان يبتعد القطار بهم عن مدى الرماية، فان القطار نفسه ومعظم الراكبين فيه قد أفلتوا •

وصاح بقيش ، حزينا لانه لم يتهيأ لمثل هذا الامر : « لن يفعلوا هذا مرة اخرى • اقطعوا السكة وارموا بالقضبان بعيدا • فلنجتذبهم الى الخارج مرة اخرى ولنفتح البوابات مرة اخرى • اهبطوا الطريق بعيدا عن الابصار • واقطعوا السكة هناك • لاتثيروا ضوضاء كبيرة ، بحيث لايعرفون أننا فكرنا في الامر • » واختفى عدد من الرجال على طول القضبان ، وكان رنين المعدن يسمع من وقت لآخر في فواصل طلقات البنادق •

وحوالي الخامسة صباحا ، حاول الاسبانيون الخروج مرة اخرى من المدينة التي اصبحت محاصرة تماما ، فانفتحت البوابات بزعيق حاد ، واندفع قطار آخر خارجا منها • وتنحى الريفيون جانبا فكأنهم في حالة ذعر عظيم ، وتركوا القطار يمر دون أن

يصاب بأذى • واندفع القطار فوق المنحدر الخفيف بسرعة عظيمة ، لكنه ما ابتعـــد حوالي نصف ميل حتى وثبت القاطرة الى اليسار ودفنت ضوضاءها في رمال السهـــل الطرية • وتراكمت العربات المسطحة ما وراءها فوق بعضها بعضا ، مقرقعة مثل خشب الصنوبر في النار ، وانقذف الرجال في الهواء في كل حدب وصوب • وفي الوقت نفســه انطلق سد من النيران من كل جانب ليكمل الدمار • وقبل أن يجد المدافعون الـــوقت لاغلاق البوابات من جديد ، كان عدد من الريفيين قد اقتلعوها من مفصلاتها ، ثم اندفع الجمع عبرها ، يصيحون ، ويطعنون ، ويطلقون النار ، ويضربون بأعقاب بنادقهم حين تصبح المواسير حامية جدا ، ولم تمض ساعة أو أكثر على هذا الالتحام حتى وجـــد المدافعون القليلون الباقون على قيد الحياة أنفسهم أسرى في ايدي الريفيين •

هكذا تم الاستيلاء على دار دريوس ، لكن الاستيلاء على تسطوطن ، المدينة التالية في الشرق ، كان يتطلب رجالا جددا • وبعث بقيش يطلب الامدادات ، وفي انتظار ذلك أقام مستشفى قبل فيه الريفيون والمسيحيون على حد سواء • وحين دخل الدار شاهد بعض الاسبانيين جلوسا ، يدخنون ويقدمون اللفائف لجيرانهم الريفيين • ولقد تناول عدد من الريفيين هذه اللفائف ، وما كانوا يعرفون كيف يدخنـــون ، وكان سرور الاسبانيين والريفيين على السواء عظيما حين شاهدوهم يشرقون ويسعلون •وقبل الظهيرة ارتفعت سحابة صغيرة من الغبار في الشمال ، وما مضت ربع ساعة حتى انحلت السحابة في هيئة عدد من الرجال يسيرون بسرعة ونشاط • ووصل عبد الكريم بعد دقائق قليلة، يرافقه اثنان من مساعديه وقوة كبيرة من الرجال •

ورحب بقيش ، قائد احدى « القبائل الهامشية » الصغرى ، بعبد الكريم مقدما اليه اقداح الشاي المغلي فوق نار متأججة من الفحم ،وأعلن أنه لاداعي لاقامة شعائـــر التحالف ، مشيرا الىأنه لايملك «ثورا يضحي به ، كما اني لم اشاهد اي ثور فيموكبك»• ان كلمتي رجلين يخوضان حربا مشتركة لتشكلان ضمانة كافية •

ورد عبد الكريم قائلا : « هذه كلمة حق ، ولسوف نقاتل الاسبانيين معا » •

واستولى يعقوبي ، قائدقوات عبدالكريم في الشرق ،على تيزي عزةوطردالاسبانيين الى مليلا • وحوالي منتصف شهر آب (أغسطس) ، كان الاسبانيون قد انسحبوا الى مكان إقامتهم القديم . وأصبح في مقدور عبد الكريم الآن أن يمنح كل انتباهه الى الحرب في الغرب حيث كان يعلم أن الاسبانيين ينوون الانسحاب في ايلول (سبتمبر) • واما كان

ينتظر الاخبار في أجدير لاحظ ظاهرة طبيعية غير مألوفة • ففي اليوم الاخير من آب (اغسطس) تلاحمت السحب قادمة من البحر الابيض المتوسط وصبت امطارا غزيرة ، وذلك قبل شهرين كاملين من بدء موسم الامطار • واستمر المطر ينهمر يوما بعـــد يوم ، محولا غبار الصيف الى بحر من الاوحال • وتوجه عبد الكريم الى صهره بوجبار قائلا : « ان المطر سيجعل المسير في الغرب أمرا عسيرا » •

هزيمة في الغرب

في أيار (مايو) ١٩٢٤ ، هاجم الريفيون بعنف المراكز الاسبانية على طول وادي اللوكوس ، النهر الذي يشطر منطقة غمارة ، وهو طريق هام للمواصلات من البحر الى شفشاون ، الحصن الاسباني على حدود الريف الخارجية . ان ناحية وادي اللوكوس ارض صخرية وعرة ، والنهر غير القابل للملاحة يتلوى فيها عبر الجبال المرتفعة ، تحاذيه درب صعبة كانت تتلوى في تلك الايام صعودا وهبوطا مع التلال والمنحدرات الجبلية ، وتجتاز النهر هنا وهناك في عدة مخاضات . وكان الاسبانيون قد أقاموا سلسلة من الحصون فوق الذرى المشرفة على النهر والطريق ، وكانت حاميات هذه الحصون مجبورة على الزحف ذهابا وايابا الى النهر تحت نيران متصلة كيما تتمون بالماء . ولقد تفقدت أحد هذه المواقع ، ودلني القرويون على الدرب المؤدية الى النهر ، على مسافة ٤٠٠ قدم الى الاسفل . كانت الطريق الشديدة الانحدار بلا حماية بحيث لم يكن القرويون وحلفاؤهم الريفيون يلاقون أية صعوبة في تصيد الدوريات المتعبة . وأجبر نقص المياه الحامية على الانسحاب الى الموقع المجاور . وتكررت هذه العملية على طول الوادي برمته ، فما انتهى حزيران (يونيه) حتى كان الاسبانيون قد اجبروا على التمركز في بعض الحصون الكبرى ، وبذلك فقدوا السيطرة على الطريق .

وفي تموز (يوليو) ارسل فرنكو مع الفرقة الاجنبية من اجل تنظيم انسحاب منظم من المنطقة ، فوجد رجال الحامية في أحد الحصون يشربون الخل ، بينما كانت حامية أخرى قد جابهت حصارا استمر واحدا واربعين يوما ، وحامية ثالثة جابهت حصارا استمر ثلاثة وسبعين يوما . وقبل أن يسقط الموقع في شنتاقا ، كدس آمره ،

الملازم الاول فيشنته سان خوزيه ، الاكواخ والخيم في محرقة جنائزية ضخمة فضل أن يقضي عليها مع رجاله حرقا على الاستسلام لاعدائه ، بحيث لم يصادف فرنكو حين وصل ليغيث الموقع سوى بعض البقايا المتفحمة • وحضر بريمودي ريفيرا شخصيا كي يشرف على الانسحاب ، ولم ينج من الموت مع الجنرال سيرانو اثر سقوطهما في كمين ريفي الا باعجوبة • وحين تفقد المنطقة أعلن : « لاتستطيع اسبانيا الاستمرار في ابقاء جنودها على ذرى منعزلة » • ورجع الى تطوان حيث صادف معارضة عسكرية متزايدة لخطته الخاصة بالانسحاب الشامل • ويبدو أن هذا الاحجام عن الانسحاب قد نظم من قبل فرنكو الذي يقول انه اقنع دي ريفيرا بأن يعدل مخططه • وقد قبل بريمودي ريفيرا بادخال بعض التعديلات ، فشيد خط « استيلا » ، الذي سمي باسم لقبه الوراثي في النبالة ، حول تطوان وفقا لقوى اعظم عرضا •

وأطبق هريرو ورجاله الجباليون على تطوان يشددون الخناق عليها ، متسللين عبر بعض الفجوات في الخط الاسباني • ويقول ولتر هاريس : ان رصاص رجال القبائل كان يتساقط في الشوارع ، وكان في مقدور سكان المدينة أن يشاهدوا ، من نوافذ المنازل المشيدة فوق جدران المدينة ، المعارك الدائرة الرحى على بعد أميال قليلة من البوابات » • وغصت المشافي بحيث كان لابد من اخلاء المرضى والجرحى الى سبتة • وارسل الاسبانيون ، بدافع الانتقام ، قوتهم الجوية الكاملة المؤلفة من تسع عشرة طائرة للاغارة على القرى المجاورة التي كان معظم رجالها غائبين عنها • وكانت هذه المذبحة الشاملة للنساء والاطفال مناسبة انتهزها الريفيون للدعاية ضد هذه « الطرق المسيحية في الحرب » ، ومع اقتراب شهر آب (اغسطس) من نهايته ، أصبحت عاصمة المحمية الاسبانية تحت نيران متصلة ، وكانت زمجرة المدفعية الاسبانية تسمع على بعد خمسين ميلا من طنجة • وازدادت البلاغات الاسبانية كآبة يوما بعد يوم ، ولم يبذل بريمو دي ريفيرا أية محاولة لاخفاء خطورة الوضع • ان الريفيين يطبقون على شفشاون التي كانت ترتبط بتطوان بطريق وعرة هي عرضةللنيران المتصلة • وزيدت القوات الاسبانية في الغرب الى ١٠٠٠٠٠ رجل بوصول الجنديين الجدد من اسبانيا ، هؤلاء الذين لم يكن الكثيرون منهم قد اطلقوا رصاصة واحدة بعد • وعين يوم الثامن من ايلول (سبتمبر) لانطلاق رتل الاغاثة من تطوان ليحل مكان حامية شفشاون • وفي ٣١ آب (اغسطس) باشرت امطار الشتاء تهطالها •

وكان لا بد للاسبانيين ، وهم يخلون شفشاون ، من تأمين سلامة ريسولي في

الوقت نفسه ؛ اذ لم يكن مرغوبا فيه أن يقع في الاسار بينما الريفيون يحتلون الاراضي التي انسحب الاسبانيون منها • ورفض ريسولي أن يترك قلعته في تازروت ، حيث يملك مخزونات كبيرة من الحبوب والثروات ، وأعلن في كبرياء أن الريفيين لن يتمكنوا من ازاحته من حصنه المنيع •

ولم يبدأ تقدم رتل الاغاثة من تطوان حتى ٢٣ ايلول (سبتمبر) • ولقد أشرف بريمو دي ريفيرا ، الذي عين نفسه مفوضا ساميا ، شخصيا على العملية التي كلف بقيادتها الجنرال ايزبورو • وسحبت حاميات المواقع المتبقية في وادي اللوكوس الى الساحل ، ونقلت من هناك بواسطة المراكب التي أغرقت احداها ، **كاتالونيا** ، بمدفعية الريفيين • وقبل مغادرة الرتل تطوان ، أرسل بريمو دي ريفيرا الطائرات فوق المنطقة لتسقط منشورات طبعت بالعربية تعلن أن الاسبانيين لا ينوون مطلقا مغادرة مراكش ، وتهدد القبائل المتمردة بعقوبة صارمة • وأصدر أمرا الى الريفيين ينص على ما يلي : « لا يجوز أن يؤخر شرف اسبانيا دقيقة واحدة ، أو يؤجل انقاذ القوات الاسبانية التي ارسل الرتل لاغاثتها » • وكان الامر يهدد بعقوبة قاسية أولئك الجنود الذين يمكن أن ينسوا واجبهم بفعل الكسل أو الاهمال ، أو بفعل الافتقار الى الطاقة • وكان الامر يكلف الجيش بانزال القصاص بالعدو ، واحراق القرى ، ونهب الماشية •

وتشاور محمد الخطابي ، القائد الريفي في الغرب ، مع هريرو بشأن أفضل ستراتيجية يتخذها من أجل مضايقة انسحاب الاسبانيين من شفشاون التي تقع على بعد خمسين ميلا من تطوان • وأرسل عبد الكريم القائد بحوت ، الضابط السابق الشهير في المرتزقة الاسبانيين ، لينصح أخاه • واما استكشف بحوت الارض ، فقد ارتأى أن الاسبانيين سيقسمون قواتهم الى ثلاثة ارتال يسير الرتل الاوسط منها على طول الطريق الوعرة الى شفشاون ، بينما يسير الرتلان الآخران على جناحيه كيما يسيطرا على الهضاب التي يتوقع أن يتربص الريفيون فيها • ولقد لاحظت أن الطريق من تطوان الى شفشاون لا يخضع عن قرب لسيطرة الجبال المجاورة ، فهو لا يمر عبر مضايق ضيقة الا في بعض الاماكن فقط • واقترح بحوت أن الخطة الصحيحة هي السماح لرتل الاغاثة بالوصول الى شفشاون ومهاجمته في طريق العودة ، وحين يكون مثقلا بالاحمال وبجرحى الحامية ومرضاها • وقبل محمد الخطابي هذه الخطة ، مع تحفظ وحيد : فكيما يضايق رتل الاغاثة الاسباني ويضعضع صفوفه ، وكيما يؤخر وصوله الى شفشاون بينما الطقس يسوء أكثر فأكثر ، أمر الريفيين بمحاصرة قرية سوق العربة التي تقع في منتصف الطريق بين شفشاون وتطوان •

لان التراجع من شفشاون قد خطط له بكل تلك الدقة التي كان الجيش الاسباني عاجزا عن تنفيذها ٠ ان ٤٠٠٠٠ جندي حشدوا تحت قيادة الجنرال ايزبورو ٠ وأرسل الجنرال ريكلم كي يحتل سوق العربة ، حيث حوصر في الحال من قبل الريفيين الذين قطعوا الطريق بخطى واسعة وأطبقوا عليه من الخلف ٠ وكان لا بد من اغاثته واعادته الى تطوان بعدما تكبد خسائر فادحة ، وانطلق الرتل مرة أخرى ، منقسما كما تنبأ بحوت بالضبط ٠ وكان الجنرالان ريكلم وكيبودي لانو يأمران الرتـــل الاوســـط ، والجنرالان كاسترو جيروما وسيرانو الرتل الموازي الى اليسار ، والجنرال فريديريكــو بيرنجر ، أخو المفوض السامي السابق ، الرتل الموازي الى اليمين ٠ وكان الكولونيل أوفيلو يأمر قوة النقل التي تتبع الرتل الاوســـط ٠ وحمــى كاسترو جيرونا وبيرنجر المرتفعات القائمة على جانبي الوادي ، ووصلت الارتال مجتمعة أخيرا الى سوق العربة في ٢٨ ايلول (سبتمبر) ٠ واكتفى الريفيون بمهاجمة القوافل والشاردين ، تاركين المجال للقوة المتجمعة بالوصـــول الى شفشاون التـــي دخلهـــا الجنرال سيرانو في ٣٠ ايلـــول (سبمتبر) ٠

ووصلت القوة الرئيسية من الرتل في ٢ تشرين الاول (اوكتوبر) ، ومن ثم عمد الاسبانيون الى جلب الحاميات من المواقع المحيطة والى تنظيم اخلاء المدينة ٠ لكنهم ، على عادتهم المتمهلة ، قضوا زمنا طويلا في انجاز ذلك ٠ ان العملية التـي خطط لهـــا بحيث تنتهي في ستة أيام قد استغرقت ستة اسابيع ، بينما كان الريفيون يضايقون عمليـــة اخلاء المواقع ويهاجمون القوافل القادمة من تطوان والعائدة اليها ٠وكان المطر يهطـــــل يوما بعد يوم ، مجمدا العربات في التربة الطينية ومفاقما من مصاعب الاسبانيين ٠

ويبدو أن بريمو دي ريفيرا قد شك في قدرة الجيش على انجاز مهمته ، اذ أصدر في ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) هذا الامر :

> من المؤسف أن تستسلم القوات في هذه البرهة للتشاؤم الذي يدمر معنويات الجيش ٠ اني آمر جميع الضباط القادة والضباط والجنـــــود ، بغرض معالجة هذا الضعف المذل ، أن يمتنعوا عن أي نقد أو جدال في هذه المسائل ، وأن يعتقلوا في الحال كل مأمور عسكري أو مدني يمكن أن يعصي أمري ٠ ويجب أن يرسـلوا هؤلاء العصـــاة الي ليحـــاكموا أمـــام المحكمـــة العسكرية ، فاذا ما ثبت جرمهم نفذ فيهم حكم الاعدام ٠ ان قيادة الجيش

العليا مخولة بهذا الامر أن تنفذ هذه العقوبة بالاشخاص ، كائنا من كانوا، الذين يقاومون التوقيف أو يبدون علامات العصيان في الميدان .

ولقد هدد الدكتاتور الاسباني بأنه سيعمل بأقصى الشدة في جميع حالات التهاون والعصيان .

وخرج الاسبانيون من شفشاون في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) وهم يعتقدون انهم يفعلون ذلك في سرية مطلقة ، مخلفين وراءهم جنودا من القش يحرسون الحواجز . ولم يخدعوا الريفيين الذين امتنعوا عن مهاجمة الاسبانيين في شفشاون لانها مدينة مقدسة، بحيث كان استردادها وهي سليمة أمرا على غاية الاهمية بالنسبة اليهم . وقدم عبد الكريم شخصيا كي يسترد المدينة . نزل عند بوابتها عن حماره ، وخلع نعليه ، وسار عاري الرأس حافي القدمين الى الجامع . لقد أصبح لعبد الكريم الآن ذخيرة اسلامية يشير فنسنت شيبان ،المراسل الصحفي الاميركي ،من طرف خفي الى انها كانت تعوض عن افتقاره الى المحتد .

كان الجنرال كاسترو جيرونا يقود طليعة الرتل المنسحب ، وكان فرنكو ، الذي أصبح عقيدا ، يقود المؤخرة مع الفرقة الاجنبية . وسارت المسيرة على خير وجه طوال خمسة أيام ، باستثناء بعض المضايقات البسيطة ؛ كان الريفيون مشغولين في شفشاون. ووصل حرس المقدمة الى سوق العربة في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ، تاركين القسم الرئيسي من الجيش الى الخلف في حالة من التشتت ، والجنود يسيرون ، على حد تعبير فرنكو ، « وخطواتهم مثقلة بالوحل ، وطوفان من المطر يلسعهم ، والبنادق مغروزة في الطين ، والعربات غارقة فيه حتى محاورها » . وكانت عربات الاسعاف المحملة بالمرضى المحمومين عاجزة عن شق طريق عبر هذا الخليط من الرجال والمدافع والشاحنات والبغال . وذكره المشهد بخروج بني اسرائيل من مصر . ان العواصف الحانقة من الامطار ، والاعصارات ، والسيول ، قد حولت الطريق الى مستنقع ، وكانت كل ساقية قد تحولت الى سيل عات . وانتهى الانسحاب الى التوقف ، وقد غاص في لجج من الوحل لا نهاية لها . وهبط الريفيون من التلال ، وزحفوا عبر الوادي ، وصبوا رصاصهم في ملء الاسبانيين الضائعين في الزحام . أما فرنكو فقد قاد مرتزقته في عدة معارك مع رجال القبائل الذين سرعان ما كانوا يتلاشون في الضباب .

ان المراسل الاميركي الخاص ويب ميللر ، الذي أعاره بريمو دي ريفيرا سيارته الخاصة المترفة ، الزرقاء اللون ، من طراز هيسبافورسويزا ، كما أعاره أحد مساعديه، وهو كونت انيق الهندام من برشلونة ، قد توجه من تطوان الى سوق العربة وما وراء المدينة • « كانت السيارة تغرز مرة بعد مرة في حفر الطين ، فكان لابد لنا أن نخرج منها كي ندفعها ، أو ننتزع بعض الاغصان من الادغال القريبة ونحمل الحجارة كي نعطي العجلات الخلفية قوة على الجذب » •وسأل ميللر الارستقراطي الشاب لماذا لايستخدمون السلاسل ، فأجابه الرجل بأنه لم يسمع بها قط • ويقول ميللر : « كان الطريق الغارق عدة بوصات في الطين ، يتلوى بين جبال عابسة نصف قاحلة • وكانوا يحاولون أن يسيروا عليه في اتجاهين، وهولايتسع سوى لاتجاهوحيد ،من دون ان يحضروا ،عمليا، أي مواضع للعبور • وسألت رفيقي : لماذا لا تمهدون طرقا جانبية ، وتضعون مرشدين على الهضاب ، وتسمحون بالمرور في اتجاه واحد لمدة من الزمن ، ثم تطلقون المرور في الاتجاه الآخر لدى تلقي الاشارات من المرشدين في مواقع التلال؟ فأجاب الضابط الذي يقودني: اوه ، ان الريفيين سيقتلون المرشدين اذن » •

وبقدر ما كان احتقان الطريق يزداد فوضى واضطرابا ، كانت جرأة الريفيين تتعاظم ، فيزحفون عبر الوادي ، بينما رجال المدفعية الريفية يصبون من الهضاب قنابلهم على العربات والشاحنات المزدحمة • وكان الريفيون الخفاف الاقدام يطلقون النار وينسحبون قبل أن تتمكن القوات البطيئة السير المرسلة لطردهم من الوصول اليهم • وكانوا يرمون اعداءهم على هواهم ، وهم مختبئون بين الصخور والادغال • ويقول ميللر : « كانوا يصيبون رجلهم دائما على وجه التقريب ، اذ كانوا رماة مهرة »• ويروي أحد الضباط الاسبانيين الذي ظل على قيد الحياة بعد الانسحاب الذي سرعان ما تحول الى هزيمة : « كنا نقاتل أشباحا ، وكنا نخسر ثلاثين رجلا لقاء رجل واحد منهم » • وقتل الجنرال سيرانو برصاصة أحد الرماة • ان البقعة التي قتل فيها مع ألف جندي آخر معلمة حتى هذا اليوم بقاعدة من الحجر نصبها الاسبانيون عام ١٩٢٦ ، ولا يزال الريفيون يحتفظون بها على اعتبارها نصبا يشير الى المكان الذي بدأ نصرهم فيه • ولقد جرح الجنرال فريديريكو بيرنجر في الموضع نفسه ، كما أن الضابط الذي أرسل على جناح السرعة ليأخذ محل سيرانو قتل حين سقطت سيارته الفورد في كمين • وناضلت المؤخرة ، وهي تعاني البرد والجوع والمطر وانهيار المعنويات ، تشق طريقها القهقرى الى سوق العربة ، مخلفة الطريق من شفشاون مرشوشا ببقايا مدفعيتها وشاحناتها •

ويقول ويب ميللر : « ان الجيش المؤلف من ٤٠٠٠٠ رجل ، المتراجع على طول تلك الطريق الجبلية الوحيدة ، قد شارف على التمرد والهلع » • ان الالوف منه لم يأكلوا عمليا أي طعام طوال يومين ، والسبب في ذلك صعوبة جلب المؤن بصورة مضادة لتيار الجيش المنسحب • وكنا نسمع بين الفينة والفينة الصوت الاجش لبندقية أحد الرماة الريفيين » •

وتحدث ميللر في سوق العربة مع ضابط يعسكر مع فصيلة على جرف صخري على عطف الجبل •

كان وجهه ، الذي لم يحلق منذ أيام ، محفورا بخطوط طبعها القلق ، وكانت بزته موحلة ومهترئة ؛ وكاد ينفجر باكيا وهو يريني الاكواخ المتداعية التي تدلف سقوفها والتي نام رجاله تحتها ، في بوصة من الوحل حرفيا ، طوال أيام • ودلني على كوخ كان يمكنني أن أقسم بأنه لا يتسع لاكثر من خمسين رجلا ، وقال ان ١٦٠ رجلا قد ناموا هناك ، مغطين الارض العارية مثل سجادة ، دون أي فاصل ما بينهم على الاطلاق • وقال لي ، وصوته يجهش بالبكاء : ان هؤلاء الرجال المساكين لم يأكلوا شيئا الا بضع سردينات لكل منهم طوال اليومين الماضيين • وانهم لينامون على الارض العارية في ذلك الطين • اننا لانستطيع أن نحصل على أي غطاء للارض أو طعام في هذا المكان ، ولا بد لنا أن نبقى هنا كي نقاتل الرماة ونحمي جناح الانسحاب •

وكان الرماة المختبئون في جانب الجبل يطلقون النار على الجنود كل بضع دقائق • واستدعى الضابط مفرزة من حوالي عشرين رجلا لطردهم ، بينما راح ميللر يراقب الموقف •

لم أر قط جنودا في مثل هذه الحال من الاعياء ، والغم ، والقذارة ؛ وكان الكثيرون منهم حفاة ، لان نعال أحذيتهم قد أهترأت • ولم يحيي أي واحد منهم ضابطهم، والتحقوا جميعا بالصف في نفور ، يهمهمون باللعنات• وحسبت أني سأشاهد عصيانا ، لكن المفرزة تشكلت ببطء ، وراحت تتسلق بحذر جانب الجبل في تشكيل المناوشة • وتوقف الرمي في الحال ، واتبع الريفيون خطتهم المألوفة في مثل هذه الظروف واختفوا في الجبال ، كيما

يظهروا في وقت لاحق في مكان آخر · وحين أخذني الضابط لتفقد المعسكر لم يرفع اليه التحية جندي واحد ، اللهم الا ضباط الصف · وفي بعض الاحيان ، كان لا بد له أن يبعد الجنود من طريقه كي نستطيع المرور ·

وفي المساء ، اصطحب ضابط آخر ميللر الى موقع للمدفعية يشرف على قرية صغيرة · وأعلن الضابط : « سوف نقصف القرية من أجلك » · واحتج ميللر قائلا انه لا يرغب في أي قصف لمصلحته ، فأجاب الضابط : « سوف نقصفها على أية حال » ، ذلك أن القنابل ستصطاد القرويين عند الغروب وهم راكعون للصلاة · وفتحت المدافع النار ، واستطاع ميللر أن يشاهد من خلال منظاره الناس يركضون بجنون في كل حدب وصوب ، هاربين الى الهضاب ·

وشق كاسترو جيرونا طريقه الى كاريش ، الواقعة في منتصف الطريق بين سوق العربة وتطوان ، مخلفا القسم الاكبر من الجيش مقطوعا في سوق العربة · وحاولت بقية الجيش ، وقد هجرت مستودعاتها ووسائط نقلها ، أن تلحق به · وراح الريفيون ، وقد ازدادت ثقتهم بأنفسهم ، يشددون الخناق على الاسبانيين · وحين عاد فنسنت شيان من زيارته لعبد الكريم ، واجتاز خط الانسحاب بعد ذلك التاريخ بحوالي شهرين صادف (انظر كتابه **مغامرات بين الريفيين**) استحكامات مهجورة وعربات مقلوبة وأكداسا من الجثث · وكانت الطريق في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥ لاتبرح تروي قصة الانسحاب الرهيب · وكانت رائحة الموت الباعثة على الغثيان تهب من ناحية دار القبة ، بينما كانت الطيور السوداء المتخمة تحط فوق الادغال · وكانت قرية زيروتا تعرض مشهدا اشهد رهبة · فقد كانت الجثث المسودة ، وبعضها نصف ملتهمة والاخرى مجرومة على انظف وجه ، متراكمة فوق بعضها البعض ، وقد عد شيان ٦٠٠ جثة في بقعة لا تزيد عن باحة وزارة الحرب في مدريد · وكان يرى في كل مكان قصاصات من البزات العسكرية وبنادق مهجورة ·

وكانت الطريق من زيروتا تجتاز سهلا عريضا ، بحيث لم توفر للريفيين أية حماية ، الامر الذي مكن الاسبانيين من اجتيازها دونما مضايقات كثيرة · ولم يشاهد شيان طوال اميال عديدة سوى جثث متفرقة ، وهي على الارجح جثث الجرحى الذين كانوا يتساقطون من المسيرة · وكان كلب منهمكا في التهام احدى الجثث ، فقال دليل شيان : « يأكل الكلب الاسباني ، يموت الكلب في وقت قصير » ·

وكانت المخاضة عبر وادي حيانا ، وهي ساقية تجتاز الطريق عرضا ، محاطة بالجثث ، بعضها مستلق نصفه في الماء ونصفه خارج الماء حيث فاجأ الرماة الريفيون الهاربين الاسبانيين الذين ارتدوا عن الطريق ليشربوا • وتفقد شيان في سوق العربة مقبرة دفن فيها ٨٠٠ اسباني قتيل • كان كل قبر معلما بصليب خشبي صغير باعث على الاسى من تلك الصلبان التي وضعتها هناك « نساء الموقع ، هؤلاء التابعات المتدينات الجموحات اللائي يتعقبن كل جيش اسباني » •

وكان وادي نقله ، آخر ميدان قتال قبل أن يصل الهاربون الى تطوان ، يعرض المظهر الرهيب نفسه ويفوح بالروائح القاتلة نفسها • ان القتال الذي نشب عند المخاضة هو قصة شهيرة في الاسطورة الريفية كما علمت • لقد ترك الاسبانيون وراءهم هناك عربات مصفحة لتغطية انسحابهم ، وقد أمر الجنود الاربعة عشر الذين يشغلونها بالثبات حتى يعبر آخر جندي النهر ويختفي عن الانظار • ولقد استطاعوا ، بنيران رشاشاتهم وبنادقهم ، أن يجمدوا قسما من الريفيين طوال ثلاثة أيام • ولم يكن لديهم طعام ، كما أن نيران أعدائهم قد منعتهم من الحصول على الماء من النهر • وفي اليوم الرابع من القتال جر الريفيون مدفعا الى مكان القتال • وانفجرت القنابل بين العربات المصفحة ، فقتلت ثمانية رجال وجرحت رجلين آخرين بصورة خطيرة • واستسلم الباقون الاربعة ، وقد كانوا أضعف من أن يستطيعوا المشي • وحين هبط الجنود الاربعة وهم يترنحون من عرباتهم ، حياهم الريفيون بالتحية العسكرية ، تنفيذا لامر نقيبهم حسن ، الباشا كما يسميه شيان ، وهو من تاركحزورت • وأخذوا الى مقر القيادة الريفية حيث أمر محمد الخطابي أن يصنفوا الاوائل في قائمة الاسرى الذين ستجري مبادلتهم •

ودخل الهاربون الاخيرون ، مترنحين اعياء ، الى تطوان في ١٣ كانون الاول (ديسمبر) • وأعلنت الخسائر رسميا كما يلي : القتلى ، جنرال واحد ،ستة عقداء ، ثمانية رواد ، ١٧٥ ضابطا آخر ؛ الجرحى ، ٦٠٠ ضابط • وكان عدد الجنود القتلى أو الغائبين ١٧٠٠٠ رجل • ان الانسحاب من شفشاون قد انتهى بكارثة تضاهي كارثة أنوال • ووعد بريمو دي ريفيرا الشعب الاسباني بأن « عقاب الريفيين سيكون عاجلا وأكيدا » •

وأخبر دي ريفيرا ويب ميللر بكل صراحة : « لقد هزمنا عبد الكريم • انه يملك تفوقا هائلا بخصوص الارض وأتباعه المتعصبين • أما جنودنا فقد سئموا الحرب ، وهم

يخوضونها منذ سنوات • وهم لا يرون سببا يدعوهم الى القتال والموت من أجل هذا الشريط من الارض العديمة القيمة • اني أنسحب الى هـذا الخط (ورسـم خطـا على الخارطة امامي) ولن اتمسك الا بهذا الطرف من الارض •وانا شخصيا أؤيد الانسحاب الكلي من أفريقيا وتركها لعبد الكريم • لقد صرفنا ملايين لا حصر لها من البيزوتات في هذا المشروع ولم نكسب فلسا واحدا منه • ولقد فقدنا عشرات الالوف من الرجـال القتلى من أجل أرض لا تساوي هذا الثمن » •

ووضع دي ريفيرا يده في درج مكتبه ، وأطلع ميللر على قبضة من الخرطوش قال انها استخرجت من أجساد الاسبانيين القتلى ، قائلا انها من صنع فرنسي • وأضاف : « سجل كلماتي ، فحين ينتهي عبد الكريم منا سيهاجم الفرنسيين ، مستخدما ذخيرتهم الخاصة ضدهم » •

ولم تكن متاعب الاسبانيين في الغرب قد انتهت بعد ، اذ أن قبيلة الانفيرا ، التي تقطن الارض الواقعة بين تطوان وطنجة ، قد ثارت في مؤخرتهم • واضطر الاسبانيون الى بناء خط من الاستحكامات من أجل حماية الطريق والسكة الحديدية البالغ طولهما خمسة وعشرون ميلا الى سبته ، والى وضع ١٠٠٠٠ جندي في المؤخرة •

* * *

ترك الانسحاب الاسباني من الجبالا ريسولي تحت رحمة الريفيين • ولقد رفض أن ينسحب الى قلعة في أرزيلا وأصر على البقاء في تأزروت في قلب الجبالا • وبينما كـان الريفيون ينتشرون في المنطقة ، رفض ريسولي دعوة عبد الكريم الى الاستسلام والانضمام الى الريفيين ضد الاسبانيين • وقطع أذن أحد الرسل ، وحلق رأس رسول آخر ، وهي اهانة رهيبة بحق المسلم •

وكان ريسولي يعتقد انه لا يبرح الرجل القوي في الجبالا • واستنجد بغريزة رعاياه الدينية ، واعتمد على الخوف الذي خلقه خلال السنوات الثلاثين لحكمه ، فجمع ٤٠٠ رجل من بني أروس للدفاع عن معقله وحماية كنوزه التي ما كان يطيق انفصـالا عنهـا •

وأعطي فرصة أخيرة للاستسلام • فقد ارسل هريرو الى ريسولي رسالة يطالبه فيها بأن يعلن عن نفسه مسلما حقيقيا بالانضمام الى عبد الكريم ، أو يموت كافرا وخائنا للقضية الوطنية • وسلم هريرو الرسالة الى قائد قبيلة بني ليت ، الـذي كان ذات يوم أسير ريسولي وكان عدوا قديما له • وأخفى القائد الرسالة ، بحافز الانتقام ، وأخبر هريرو بأنه سلم الرسالة ، لكن ريسولي لم يتنازل فيرد عليها • وكان يبدو أن ذلك مغاير لطبيعة ريسولي الذي لم يكن يفوت فرصة الا وينتهزها كي يهدد ويتباهى • وبعدما اعتقل هريرو ريسولي استوضحه عن الرسالة ، فأجاب بأنه لم يتلقاها • وحين استجوب القائد بهذا الشأن ، اعترف بأنه لم يسلمها ، وقد حوكم لانه كان سببا في حرب لا ضرورة لها بين المسلمين ، وجرم ، وأعدم •

وحاصر هريرو تأزروت في ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥ على رأس قوة من المجندين الجباليين والنظاميين الريفيين • وكان ريسولي يحسب أن معقله منيع على أي هجوم ، وكانت مؤونته من الطعام تمكنه من الصمود لحصار لا نهاية له • ولم يـكن يحسب لمدفعية الريفيين حسابا • لكن هريرو جلب مدفعية وقصف جدران القلعـة • إستمرت المدافع تزمجر طوال الليل ، وما آذنت الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي حتى كانت الاسوار خرابا متراكما • واندفع الريفيون فوق الجدار ، فاستسلم ريسولي بخسة • وتوسل الى هريرو أن يتوسط لدى عبد الكريم من أجل حياته ، وأرسل ابنه الصغير ، وهو صبي في السادسة عشرة من العمر ، الى شفشاون حاملا رسالة الى أخي عبد الكريم يعلن فيها أن مرضه الشديد هو السبب الوحيد الذي منعه من القدوم شخصيا ويسأل الزعيم الريفي أن يأتي الى تأزروت لمناقشة شروط استسلامه • وبينما كـان الرسول في طريقه الى شفشاون ، أرسل الاسبانيون ، الذين كانوا يحسبون أن ريسولي لا يزال صامدا ، عددا من الطائرات للاغارة على الريفيين • وأمر هريرو ريسولي بصورة جازمة أن يبعث برسالة الى تطوان ، فتوقف القصف •

وكان فنسنت شيان شاهدا على الاذلال الاخير الذي تعـرض له ريسولي • ان المراسل الاميركي الخاص قد جيء به الى تأزروت من قبل باشا كمزورت الذي التحق بهريرو في حصار القلعة • كان ريسولي عاجزا عن مغادرة فراشه خلال ليلة الهجوم • وحين توقفت النيران ، جر نفسه الى قبر جده ، المولى عبد السلام بن باشيش ، وظـل مستلقيا على الارض ، عاجزا عن الوقوف أو المشي • ودخل هريرو المدفن وطلب سيف

ريسولي ·فرفع الرجل العجوز نفسه، اذ لا بد أنه كان يبلغ السبعين من العمر على أقل تعديل، وأشار الى المخصي الاسود الواقف الى جانبه · وتناول هريرو السيف وسلمه الى معاونه، القائد حسن · عندئذ غطى ريسولي وجهه باحدى طيات عمامته · ويزعم هاريس انه رفع التماسا أخيرا طلبا للرحمة ، قائلا انه اذا تركت له الحياة فسوف يطيع أوامر عبد الكريم كائنة ما كانت · وكشف تفتيش زنزانات قصر ريسولي عن جثث الاسرى الذين احتفظ بهم ريسولي لقاء الفدية والذين قبروا أحياء عندما تأخر المال ·

وأمر عبد الكريم أن يؤتى بريسولي الى الريف · وقد سمح له بأن يصطحب النساء الاربع اللائي يختارهن ، وثلاث جواري شخصية ، وما شاء من الحلى والثياب والوسائد والبسط · ويقول شيان ان ريسولي اختار ، كما هو متوقع ، النساء الاربع الاصغر سنا من حريمه البالغ عددهن احدى وأربعون ؛ وكانت احداهن دون الرابعة عشرة على الارجح ، وكانت كبراهن في الثامنة عشرة تقريبا · وكن أربع نساء رائعات ، « لكن احداهن كانت أكثر حسنا من الباقيات : فتاة ناحلة براقة العينين ، يتدلى على ظهرها موجة من الشعر الاسود · وكان في وجنتيها ذلك اللون المورد الخاص بأزهار اللوز ، كما كانت نظرتها تثير في القلب خفقانا شاردا مثلما تثير الريح أوراقا ميتة » · وكان اسمها ليلى عيشه ، الفتاة التي كانت أسطورة الجبالا تروي عنها أشياء كثيرة ، ومثال ذلك ان الشريف « على استعداد للتنازل عن بقية حريمه جميعا في سبيلها ، وأن شعرها الثقيل جدا كانت تحمله أربع جاريات سود حين كانت تتنزه في حدائق القصر · لقد كانت فاتنة ، من دون كحل أو حنة ، وهذه هي الآن تتوجه الى السجن مع اللص القديم الذي كان سيدها » ·

ويصف شيان كيف اضطجع ريسولي على مصطبة في حمأة من الوسائد والبسط ، المشغولة بألوان غنية عديدة من الحرائر ·

كان جسده كتلة ضخمة عديمة الشكل في أثواب قطنية بيضاء ، فقد كان يرتدي ثوبين أو ثلاثة أثواب منها · وكانت عمامته لا تبرح تلتف حول وجهه بثبات ، وكان رأسه غارقا بين يديه · واستند بالقسم العلوي من جسده الى مرفقيه وشخص الينا بعينيه الخرزيتين الصغيرتين اللتين تشبهان عيني أوزة متوحشة في هضابها الاصلية · وكانت أصابعه تتلوى أحيانا مبتعدة عن وجهه المغطى الى النهايات البارزة من لحيته المصبوغة بالحنة ·

كانت يداه تستوليان على المخيلة ، فقد كانتا طويلتين ، بيضاوين، دقيقتين ، مثل سيدة عربية ، وقد صبغت أظافرهما بالحنة ·

وانفجر بحنق في وجهنا حين جلسنا القرفصاء على الارض أمامه · سأل: لماذا جئتم الي ؟ لقد قلت اني لا أريد أن أرى كائنا من كان · لست أريد شيئا سوى الموت · لقد طلبت أن أموت ، فأنا لا أريد أن أكون أسير الكلاب وأبناء الكلاب ·

واستفسر شيان ، بواسطة المترجم ، ما اذا كان لدى ريسولي أية رسالة الى العالم الخارجي ، فلم يقل شيئا ، بينما كانت يداه القاسيتان ، النسائيتان ، تلعبان بنزق بطرف لحيته · وتطلع في الغرفة في قلق · ويلاحظ شيان : « لم يكن هناك عبيد يقتلوننا من أجله ، لكنه كان من الواضح أنه كان يأمر بكل طيبة خاطر باعدامنا »·

قال أخيرا ، قاذفا كلماته بعربية سريعة متكسرة : « يستطيع العالم الخارجي أن ينسى ريسولي ، ولا يريد ريسولي سوى أن ينسى العالم الخارجي · لقد طلبت أن أموت وأنا أريد أن أموت · لماذا لم يقتلوني في الحال ؟ لن يكون ريسولي أسيرا قط وعبدا للكلاب في المكان حيث كان ريسولي يسود · لقد أخذوا جوادي وسرجي ، فليأخذوا ماتبقى · ان النبي سيستقبلني في السماء » ·

وخاطب سيدي حسن ريسولي قائلا : « ليست ارادة الله أن تموت · يجب أن تخدم ارادة الله »· ورفض ريسولي أن يشرب أو يأكل ، وكرر رجاءه في أن يموت · ويلاحظ شيان انه كان شريرا بصورة تتجاوز كل حسبان ، وهو ما كان يستطيع أن يتطلع الى أصابعه الدقيقة الناعمة دون أن يفكر في ضحاياه ، الاسرى وزوجاتهم ، ويقول الناس انه خنق بعضهم بذات يديه حتى الموت ·

وأخذ ريسولي من قصره ، محمولا على محفة مصنوعة من الخشب القاسي رفعت بواسطة القضبان على اكتاف أربعة عشر حمالا قويا · كان يضطجع على كومة من البسط والوسائد ، مستلقيا على جانبه بصورة نصفية ، ومرفقاه يسندان القسم العلوي من جسده ، منتفخا بالحبن « بصورة تتجاوز أي شبه بالانسان » على حد تعبير شيان · وكان ريسولي يحتفظ بوجهه مخبأ تحت طيات عمامته ، وعيناه الخرزيتان الحانقتان تشبان من جهة الى أخرى · وكانت النساء الاربع من الحريم يتبعنه على بغال، يحرسهن ثلاثة مخصيين عبيد · ووراءهن كانت تسير سبعة عشر من البغال الكبيرة محملة بكنوز تأزروت ·

وحين مر ريسولي ، محمولا على ارتفاع الاكتاف عبر جمهرة المشاهدين الصامتين، رفع نفسه على مرفقه وصاح : « اضحكوا لسقوط ريسولي • اغتبطوا بذلك • لكنهسيأتي اليوم الذي تعطون فيه مسرورين كل ما تملكون كيما يعود من جديد • وسيكون الاوان قد فات اذن • ولقد فات الاوان منذ الآن ، فأنا ذاهب قدما الى الموت » •

ولم يضايق عبد الكريم ريسولي ، احتفظ به أسيرا في الريف حتى قضى من الداء بعد بضعة أشهر من أساره •

وأصبح عبد الكريم الآن ، على حد تعبير شيان ، « ملكا على كل الاراضي التي يشرف عليها » • لقد كان الحاكم غير المنازع للريف من أبواب مليلا حتى حدود تطوان• ولقد لاقى نجاحا كبيرا ، لكن خلقه لدولة ريفية مستقلة على حدود مراكش الفرنسية قد أقلق الفرنسيين أيما قلق • وكتب الماريشال ليوتيي من الرباط الى باريس يقول : « لايمكن أن يكون هناك شيء أسوأ بالنسبة الى نظامنا من اقامة دولة اسلامية مستقلة محدثة على هذا القرب من فاس ، دولة تجعل من كريم مركز جذب ليس بالنسبة الى المنشقين عنا فحسب ، بل بالنسبة الى جميع تلك العناصر المراكشية ، وعلى الاخص الشبان منهم ، الذين اتسعت نظرتهم بنتيجة الاحداث الجديدة في الشرق والذين نشأت في أذهانهم مطامح قائمة على بغض الاجنبي » •



أمريكيان في الريف

في أوائل عام ١٩٢٥ قام بزيارة عبد الكريم مراسلان صحفيان امير كيان شابـان هما فنسانت شيان وبول سكوت مورر اللذان اصابا فيما بعد شهرة عالميـة · وكرر شيان الزيارة مرتين ، في كانون الثاني وايلول ، وقد دخل الى الريف في المرة الاولى من الجنوب الشرقي ، واجتاز ميدار في طريقه الى مركز قيادة عبد الكريم في آية قمرة · وبعد أن تحدث شيان الى رجال القبائل بواسطة أحد التراجمة ، عرف بالانتصار الكبير في أنوال ، حيث راح الاسبانيون « يهربون ويهربون وهم يلقون ببنادقهم على الارض »· وتابع شيان رحلته ، فشاهد الطائرات الاسبانية تلقي قنابلها على الصحارى الجرداءيوما بعد يوم · ولم تكن تلك الغارات الجوية الاشبه بـ « أوبرا هزلية » لتوقع أية أضرار على الاطلاق ، رغم انه يذكر أن الصحف الاسبانية كانت تتباهى بأن تلك الغارات كانت تقتل خمسين ريفيا كل يوم · وقد لاحظ شيان ، مثله مثل الزوار الآخرين ، عـددا كبيرا من الريفيين أصحاب العيون الزرق ، والشعر الاحمر ، والملامح « الشبيهـة بالايرلنديين » ، وقد وجدهم ، على خلاف العرب الآخرين ، نظيفين ، سعداء ، مرحين ، أتقيـاء ·

وما أن وصل شيان الى آية قمرة حتـى استقبله وحيـاه بلغة فرنسية صحيحة سيدي محمد مهدي حاج حتمي ، صهر عبد الكريم وأمين سره الخاص · وأخبره حتمي قائلا ان الامير ، أو « السلطان » كما كان شيان يلقب عبد الكريم ، لا يستقبل أحدا ، لان محاولات عديدة بذلت لاغتياله · وتابع حتمي حديثه قائـلا انه طار الى لنـدن في محاولة لجمع رأس مال يكفي لاستغلال ثروات الريف الطبيعية ، لكن أصحاب الثروات هنالك رفضوا التفاوض مع الثوار على الرغم من احتجاجاته بأن الريفيين أسسوا دولـة وغـدوا أمـة ·

وأخبر شيان أن جيش الريف يعد خمسة وعشرين ألفا من المحاربين المدربين الذين يناصرهم رجال القبائل بحيث يبلغ المجموع النهائي حوالي خمسة وسبعين ألف جندي • وخطر له أن هذا العدد مبالغ فيه وخامره الشك في أن عدد أفراد الجيش المسلحين تسليحا كاملا لايمكن أن يصل الى اكثر من ثلاثين ألف رجل • وكان الجنود النظاميون يحاربون تحت أمرة ضباط معينين وليس تحت أمرة رؤساء قبائلهم ، وكان هذا فيما يبدو تطويرا جديدا لعزم عبد الكريم على الغاء التنظيم القبلي • ووجد شيان أنه ليس ثمة ضرورة لفرض التجنيد الالزامي في بلد « لا يرغب سكانه الا في أن يكونوا جنودا » • وقد شاهد أسلحة فرنسية كثيرة،على الرغم من أنه لم يجد «أي أثر للمشاركةفي الجريمة» في بيع هذه الاسلحة من قبل الحكومة الفرنسية • وقد دحض اسطورة مألوفة عن أبناء الريف : « ليس ثمة شيء أكثر سخافة من فكرة أوروبا عن رجال قبائل الريف وهم ينطلقون الى ساحات القتال بوحشية تامة أشبه برجال البدو في الصحراء ، ممتطين صهوات فحول الخيول العربية ، وهم يطلقون نيران بنادقهم »• وأفاد أن هدف استراتيجية أهل الريف كان حمل العدو على الظن أنهم أكثر قوة مما هم عليه في واقع الحال ، وخلق حالة من الحصار ، النفسي والمادي معا ، يكون حافزا الى الاستسلام •

كانت حكومة عبد الكريم بسيطة فعالة : فقد أعتق العبيد وقضى على الاتجار بالحشيش • ولم يعثر شيان على أي دليل يؤيد التهم التي أشاعها الاسبانيون ومفادها أن الروس أو الشيوعيين الفرنسيين يمولون عبد الكريم بالاموال ، وقد كان الريفيون يقولون عنهم : « انهم يكثرون من الوعود ولا يعطون شيئا » • وكان شيان تواقا الى لقاء عبد الكريم ، أول رجل في التاريخ يحكم المغرب الشمالي ، فرافقه حتمي من أجدير الى حيث جعل الامير مركز قيادته في آية قمرة •

وفي الطريق وقعت أبصار شيان على عدد من الاسرى الاسبانيين يمهدون الطرق ويعملون في كسل تحت أنظار حراسهم • وتحدث الى عدد من هؤلاء الرجال ، المكتئبين، غير الحليقين ، الذين يسيطر اليأس عليهم • ويقول شيان ان بيوتهم وطعامهم لا تختلف في شيء عن بيوت الجنود الريفيين وطعامهم • واجتاز شيان حقولا مزهرة قام بزرعها بعض الهاربين من الفرقتين الاجنبيتين الفرنسية والاسبانية الذين لم يجدوا لانفسهم أعمالا افضل من الاشتغال بالزراعة ، واستئصال الاعشاب الضارة من الحقول ، وزراعة البطاطا •

وما أن وصلا الى أية قمرة حتى اقتاد حتمي شيان الى غرفة مربعة الشكل بسيطة

الاثاث ، وضع فيها ثلاثة مقاعد وطاولة مغطاة بالصحف جلس خلفها عبد الكريم الذي كان يرتدي ، كما لاحظ شيان ، ثيابا عادية بسيطة جدا • ورفع عبد الكريم عينيه الثاقبتين البنيتين وجعل يتفحص الزائر المسيحي • وترجم حتمي ملاحظات عبد الكريم الى اللغة الفرنسية لمصلحة شيان الذي كان قد هيأ ستة اسئلة مدونة خطيا •

رد عبد الكريم على سؤال شيان الاول قائلا : « ان الحركة الاسلامية الشاملة لاوجود لها بعد » ، ثم أضاف ملاحظا : « ان الحديث عن الحركة الاسلامية الشاملة لايحمل اكثر من هدف واحد هو اخافة الفرنسيين والانكليز الى درجة يرغمهم فيها على معارضة حكومة الريف في صراعها مع الاسبانيين • وليس ثمة أية صلة قائمة بيننا وبين أية حركة أخرى في مراكش الافرنسية ، أو الجزائر ، أو تونس ، أو مصر ، وليس لدينا أية نية في خلق مثل هذه الصلات• ان نضالنا قومي محض، وعدونا الوحيد هو اسبانيا• وهذا العداء ناجم عن ارادة الاسبانيين أنفسهم وليس بسبب منا على الاطلاق ، وليس ثمة ما يناسبنا أكثر من السلام مع الاسبانيين والعالم أجمع » •

وكان سؤال شيان الثاني يتعلق بشروط الصلح ، فأجابه عبد الكريم قائلا :

ـ اننا نطلب أولا وقبل كل شيء السلام والحرية في العمل •واننا نتمنى لاسبانيا، قبل أية أمة أخرى ، أن يعم السلام بيننا وبينها ، وأن تتصرف معنا ، اذا أمكن ، تصرف الصديق والحليف • لكن لنا بعض المطالب الجازمة كشروط للصلح • وأول هذه الشروط وأكثرها أهمية هو وجوب انسحاب جميع الجنود الاسبانيين في المغرب ، من حدود الاطلنطي حتى تخوم الحدود الشرقية ، الى مركزي الحاميتين الموجودتين في سبته ومليلا ، أو الى اسبانيا مباشرة • ولن يرضينا شيء أقل من استسلام الحماية الاسبانية المطلق • ونحن نطلب ذلك باسم الامة المغربية بأسرها ، لان الحماية الاسبانية قد حملت الينا،ولم يعد في ميسورها أن تحمل الى شعبنا،غير الشقاء والخراب• والحماية لاتحمي شيئا ، حتى انها لاتحمي الجنود الاسبانيين أنفسهم •فاذا ماتنازلت اسبانيا عن مناداتها بهذه الحماية الزائفة غير الشرعية ، فاننا على استعداد للدخول في مفاوضات السلام وفق الاسس التالية •

وشرح عبد الكريم أن هذه الاسس تستدعي الاعتراف باستقلال الريف وسيادته القومية ، هذا الريف الذي تمتد اراضيه من مليلا الى سبته وطنجة • وانهم لايطلبون

السيادة القومية على الاقليم الساحلي الواقع جنوبي طنجة . وتابع عبد الكريم كلامه قائلا : « سوف لن نقبل أبدا بالحماية الاسبانية على أي جزء آخر من مراكش ، فلقد أثبت الحكم الاسباني مدى قسوته وعدم صلاحيته لشعبنا ، وأنه لايحمل اليه سوى الخراب » .

واسترسل قائلا : ان اسبانيا مفوضة بالحفاظ على حصني سبتة ومليلا اللذين امتلكتهما طوال قرون عديدة ، لكن من دون أي شيء آخر على الاطلاق . وكان عبدالكريم يتحدث على مهله ، وكان في مقدور شيبان أن يدون كل كلمة تخرج من بين شفتيه . « كان لدي متسع من الوقت لدراسة ذلك الوجه المرموق وهو يتحدث . شاهدت فكرا ثاقبا ، وذكاء حادا متحدين مع بعض الاحتراس المعافى، وهو ما كان يجعل محمدا يشابه، الى حد ما ، سيدي محمد المهدي؛ ليس هذا السلطان همجيا أو أحمق. ولكنني أحسست أنه ليس بالعبقري أيضا ، ليس عبقريا بالمعنى التقليدي الصرف : فهو لم يكن مخلوقا ناريا أو نبويا كما يمكن أن يتوقع بعض الناس . لقد كان عقلا متفوقا ، يهاجم قضية وطنية شائكة : ولم يكن اكثر من ذلك على الاطلاق » .

وكان السؤال الثالث يتعلق بالشكل النهائي للحكومة التي يقترح تشكيلها في الريف ، فأجاب عبد الكريم انه ينوي الاستمرار في الحكم وفق مبادىء « الملكية المطلقة» هذه المبادىء التي ظهر أنها أفضل نظام يتناسب مع معتقدات الشعب الريفي . ويمكن لهذه المبادىء أن توسع مع الزمن على أسس اكثر ليبرالية . وأعلن عبد الكريم أن أهل الريف لايعترفون بسلطة سلطان مراكش ، فمولاي يوسف لعبة في يد الفرنسيين ، وشعب الريف لايمكن أن يخضع لسيادة رجل أسير .

وكان سؤال شيبان الرابع اكثر الاسئلة صعوبة : ماهو موقف عبد الكريم تجاه الفرنسيين ؟ وقال عبد الكريم في رده :

ـ ان موقفنا حيال فرنسا هو موقف ودي حتى الدرجة القصوى ، فنحن لم نرغب قط سوى في علاقات سلمية مع فرنسا ، وليس في نيتنا مهاجمة مراكش الفرنسية . وان الحرب مع فرنسا ، في نظري ، قضية أبعد من أن أتصورها ، مالم تهاجمنا فرنسا نفسها . فاذا ما كنا ضحية هجوم ، فلسوف ندافع عن أنفسنا ، لكن هذه الامكانية بعيدة جدا بحيث

لايمكن التفكير فيها٠فمما لاريبة فيه انه ليس من مصلحة فرنسا أن تهاجمنا٠ ونحن نمد الى فرنسا يدا ودية ، وانا لنأمل باخلاص أن تقبل فرنسا صداقتنا ٠ ومهما يكن من أمر ، فلا بد من انجاز بعض الشروط الاولية قبل أن تدخل هذه الصداقة مرحلة الممارسة الفعلية ٠ فمصاعب الحدود لايمكن تجنبها في الظروف الراهنة ٠ ولكنني أؤكد اننا لم نهاجم بعد مطلقا أية دورية فرنسية أو قبيلة صديقة ، وأن أي جندي ريفي نظامي لم يجتز الحدود الفرنسية التي تحددها المواقع الفرنسية المتقدمة٠انه ليمكن اجتناب مناوشات الحدود بطريقة وحيدة ـ ألا وهي تخطيط الحدود بشكل نظامي٠

وأعلن عبد الكريم انه « اذا ما اقيمت حدود قومية وعملية تخططها الانهار والجبال، فأنا أضمن أنه لن يكون هنالك أية صعوبات مع فرنسا من جديد »٠

ويقول شيان : ان هذا البيان قد أدلى به رجل يتحمل ضغطا مستمرا من جانب فريقين من ناصحيه ، الفريق الواحد الذي لايريد سلاما على الاطلاق ، مع أي من اسبانيا وفرنسا ، والفريق الآخر الذي يطلب احلال السلام بأي ثمن كان ، هذا السلام الذي سيحافظ على وحدة الريف الوطنية ٠ وجال في خاطر شيان أن عبد الكريم اتخذ الطريق الاوسط بين هذين الطرفين ، حيث أنه « يمكن اجتناب المشاكل مع فرنسا بتخطيط الحدود بشكل منطقي ، ولا يمكن اجتنابها على الاطلاق فيما اذا لم تتبدل هذه الحدود »٠

وما ان انتهى الجانب الرسمي من المقابلة حتى رجع عبد الكريم الى منظور السلام مع اسبانيا ٠ فاذا كان الاسبانيون يريدون الحرب ، فان أهل الريف على استعداد للقتال طوال سنوات مديدة ٠ فقد تدربوا على القتال جيدا وحصلوا على كفايتهم من الاسلحة والذخيرة طوال السنتين المنصرمتين ٠ وكان تراجع الاسبانيين في الغرب قد رفع قدرة القتال لدى الريفيين الى ثلاثة أضعافها ٠ وختم عبد الكريم ملاحظاته قائلا : « ان مستقبل بلادنا غير محدود ٠ وان لنا ملء الثقة في قدرتنا الصناعية وفي مدى قابليتنا على مفاضلة أنفسنا في السلم كما في الحرب ، واننا لنسأل العالم الخارجي ، باسم العدالة ، أن يتيح لنا هذه الفرصة ٠ واذا لم يعطنا العالم الآن السلام الذي نبحث عنه ، في الوقت الذي أعددنا العدة له ، فلسوف نخوض غمار القتال الى أن نحصل عليه بسيوفنا ومشيئة الله » ٠

ويقول شيان: لم يكن يمكن أن يكون مظهر عبد الكريم اكثر ملكية منه عندما صرفنا٠

فقد نهض سيدي محمد المهدي ، ونهضت أنا بعده على مضض • ومد السلطان يده مرة أخرى ، وافتر ثغره عن ابتسامة ، وأخبرني أنه أمر بتهيئة جميع متطلبات رحلتي المقبلة • ولم ينهض عن كرسيه ، بل غرق في قراءة الاوراق الموضوعة أمامه قبل أن نغادر الغرفة • ولم تتح لي أية فرصة لأرى مقدار جسامة أو ضآلة تأثير العرج المصاب به على نشاطه الجسماني •

وما أن قفل شيان راجعا الى أجدير، حتى استغرق في التأمل بخصوص ذلك الرجل الذي تحدث اليه :

« ياله من رجل ، خرج من ذلك المكتب المظلم الصغير الذي يمارس المحاماة فيه الى المركز الفريد في تاريخ بلاده ! أتراه دجالا باركه الحظ ، أو انه أحد ابطال الملاحم ، أو سيف الاسلام المسلول ، تلهبه حمية الفاتحين الاولين الذين خرجوا من الجزيرة العربية ؟ لعل فيه شيئا من هذه الخصائص الثلاث ، لكنه قبل كل شيء ابن اريب للقرن العشرين ، ورجل ذكي كفؤ ، وواسع الحكمة فضلا عن ذلك • ليس ثمة عبقرية هنا ، بل ثمة ما هو أفضل من العبقرية : القدرة على تقدير القوى الجماعية وتوجيهها » •

وخلص شيان الى أن عبد الكريم رجل حصيف حذر • ولم تكن طلعته على شيء كثير من النبالة ، أو ملامح خاصة من العظمة ، أو الاخلاق ، أو حدة الذهن • واما قارن شيان بين قائد الريف ومحمد الخطابي الذي التقى به في الجبهة الغربية ، فقد وجد أن الشقيق الاصغر رجل بالغ الكرامة ، فقد كان « سيدا شهما ووطنيا » ، لكن شيان يتساءل ما اذا كان هذا الرجل يستطيع ، مثلما فعل شقيقه الآخر ، أن يهب طاقات البربر الهاجعة من رقادها ! ويقول شيان أن عبد الكريم ، « بكل مايعتور حذره وفكره من نقائص » ، كان يملك الشيء الاساسي — ألا وهو القدرة على التركيز وبعد النظر » • وكان الاخ الاكبر يقدم الاسطورة ، في حين كان الاخ الاصغر يقدم الواقع من أجل الحفاظ عليها •

وفي أجدير التقى شيان الفتاة الاسبانية ، أسيرة الريفيين ، والمشهورة بلقب« لاروبيا (الشقراء) ، وهي « صبية خليعة تعمل في أحد مقاهي الضباط ، كانت شكواها الوحيدة أن قادة الريف لايبدون متأثرين بفتنتها واغرائها » • ولقد وقعت أسيرة بيد أحد القادة ، فاحتفظ بها في حريمه طوال سنة كاملة ، ثم باعها لعبد الكريم بمبلغ عشرين ألف بيزيتو • وقد اتبعت تلك الصبية ، منذ شرائها ، حياة مثالية ، الامر الذي كان مدعاة لنفورها •

كان شيان قد سمع ، قبل دخوله الى الريف ،شائعات خيالية عن الجنود المغامرين، الفارين من الفرقة الاجنبية ، الذين اشيع انهم سيعملون على تنظيم جيش عبد الكريم وتدريبه • ولكنه وجد أن هذه الشائعات لا أساس لها من الصحة • وكان الانسان الوحيد الذي يشغل مركزا له أهميته هو الالماني المدعو جوزيف كليمس • كان يعمل رساما للخرائط، ومصورا، ومترجما • وقد سرد كليمس تاريخ حياته على مسامع المراسلين الصحفيين ، وأوضح لهما أنه قدم من دوسلدروف وسجل في الفرقة الاجنبية في المغرب عام ١٩١٢ • وقد حارب باخلاص تحت لواء فرنسا وكان رئيسه يطلق عليه لقب « السافل » • وقد عمد الى الفرار ، وانضم في جبال الاطلس الى احدى القبائل ، واشترك مع افرادها في غارات على الحدود الفرنسية • وتزوج من ابنة قائده ، «وهي مخلوقة صغيرة فاتنة في الخامسة عشرة من عمرها » وعام ١٩٢١ جاء الى الريف وانضم الى صفوف عبد الكريم •

ولقد قضى المراسل الصحفي مورر عدة أيام برفقة كليمس ، يأكلان من القصعة ذاتها وينامان على أرض واحدة • وكان كليمس الشخص الوحيد الذي يستطيع مورر التحدث اليه ، كما كان مورر الشخص غير الافريقي الوحيد الذي يجتمع به كليمس منذ اربع سنوات • وكان يصبو الى الحديث ، اذ انه كان ثمة أشياء كثيرة في ذهنه يود الافضاء بها ، وكان عبئا أثقل من أن يتحمله وحده • وشرع مورر يجمع التفاصيل بعضها الى بعض شيئا فشيئا • كان قد جرح مرتين أثناء اشتراكه في المعارك باعتباره أحد أعضاء الفرقة الاجنبية الذين حاربوا رجال القبائل الاشداء • ورفع الى رتبة عريف، ثم الى رتبة رقيب • ولقد نهب حسابات كتيبته ، فألقي القبض عليه ، وفر الى جبال الاطلس وانضم الى احدى القبائل • واراد رجال القبيلة قتله أول الامر ؛ وأدرك كليمس أن أمله الوحيد في الخلاص هو اقامة صلات ودية مع الاهالي • فادعى كذبا أنه حج الى مكة وان طموحه الوحيد هو أن يقود الغارات ضد الفرنسيين • وحملت اليه هذه الغارات مكاسب مادية ، وأعادت اليه اعتباره • واما قنع رجال القبائل بنياته الحسنة فقد قبلوا انضمامه اليهم اخيرا • وأعيد عماده من جديد ، وذبح خروف بهذه المناسبة تضحية، وجرى احتفال كبير بختانه ، وغدا اسمه الحاج الالماني •

وذات ليلة ألقى رجال القبيلة القبض على ملازم شاب أشقر ، فقيدوه الى وتد طويل وأشعلوا نارين ، ليس عند قدميه ، بل على جانبيه ، فراح يتلوى في حين وقف

الاهالي يتمتعون بالنظر اليه • واحتج الحاج على ذلك ، وشرع الفرنسي الاسير، وقد استشعر وجود صديق له ، يصيح مهمهما : « اقتلني ، اقتلني » • ورفع الحاج بندقيته ليطلق منها النار علانية ، غير أن أحد المولدين ضرب ماسورتها ، فأخطأت الرصاصة هدفها • وصاح الاهالي قائلين : « ماذا تراك تفعل ؟ أنت مجرد اوروبي بعد كل شيء !» وطردوه • وفي مرة اخرى ، ألقى الاهالي القبض على جندي ألماني ، ودفنوه في الرمل حتى عنقه ، وسكبوا حوله العسل ، وتركوه طعمة للنمل والحشرات ، رغم احتجاجات الحاج وتهديداته •

واما شعر كليمس بالضيق في جبال الاطلس فقد هرب الى الريف • واستقبله عبد الكريم استقبالا حسنا وعينه ترجمانا رسميا لترجمة الرسائل التي ترده من الشيوعيين الفرنسيين والمعارضين الانكليز • وأخبر مورر قائلا : « ان السلطان يعاملني معاملة لطيفة ، فقد اعطاني حصانا ، ووعدني بالزواج • وأعطيت رتبة ملازم أتقاضى راتبها كاملا ، وآكل كثيرا وأشرب كثيرا وليس ثمة عمل مرهق • وقبل أيام ، بينما السلطان يمر بي توقف وحياني ونفحني بدولار اسباني » • وقد وصف مورر الالماني كليمس بهذه الكلمات : « كان رجلا بني العينين يغازل الثلاثين من العمر ، لاترتسم على وجهه ملامح القتلة الدهم غير خلاعة طفيفة وشيء من النداوة على شفته السفلى • وكان رأسه حليقا لفحته الشمس ، وقدماه عاريتين قاسيتين ، مثله مثل المولدين تماما • وكان يحيا ويصلي ، ويلبس اللباس الوطني المؤلف من طربوش وجلابية من الصوف »•

واسترعت أقاصيص كليمس التي رواها شيان ومورر انتباه الموسيقار سيغموند رومبرغ ، والكتاب أوتو هارباخ وأوسكار همرشتاين وفرانك ماندل ، فعمدوا الى تصويره بصورة « الشبح الاحمر » في روايتهم «انشودة الصحراء» ،هذه الملهاة الموسيقية التي خلبت ألباب الجمهور اللندني عام ١٩٢٧ •

وزار شيان ، بعد مبارحته أجدير ، الجبهة الغربية حيث وجد شقيق عبد الكريم يحيا في خيمة كبيرة بيضاء في داخلها طاولة تعج بركام من الاوراق ومجموعة من نماذج الصخور التي جمعها محمد من مختلف أرجاء الريف • كان ضليعا في علم المعادن ، ومهندسا عسكريا ، وقد أعلن أن هذه النماذج تدل على وجود الحديد والنحاس فيها • وشاهد شيان عرض الاسرى الاسبانيين الذين وقعوا في الاسر أثناء انسحابهم من شفشاون ، وأطلعوه على رسالة مرسلة الى عبد الكريم من احدى نساء اشبيلية كتبت

تستفسر فيها عن مصير ولدها البالغ من العمر تسعة عشر عاما • ولم يكن هذا الابن في عداد الاسرى • ويقول شيان أن عبد الكريم ارسل اسماء الاسرى الاسبانيين الى جميع عملائه في طنجة لاعلام السلطات الاسبانية المسؤولة بذلك •

واجتاز شيان ، بعد حضوره واقعة اسر ريسولي ، هذا الذي كان محمد الخطابي يعتبره « قاطع طريق عتيق كريه » ، طريق تطوان ــ طنجة الذي كان الاسبانيون يفاخرون انه « جدار من الفولاذ » ، حيث تبين له أن الخط الاسباني لم يكن غير مجموعة من النقاط المبعثرة • واختلط برجال القبائل المحليين واجتاز الدرع الاسباني زاحفا في الليل عبر الخطوط للوصول الى طنجة ، حيث أبرق منها قصة زيارته لعبد الكريم الى مجلة **شيكاغو تريبيون** •

* * *

أما مورر ، وكان يراسل صحيفة **الديلي نيوز** الصادرة في شيكاغو ، فقد نظم له رحلته الى الريف السيد غابرييلي ، حاكم تأوريرت الذي سرد عليه مورر قصة هذه الرحلة بعد عودته • وقد كتب ادريس ، ابن عبد الكريم ، بعد أن قرأ كتاب مورر، يقول ان وصف المراسل الصحفي لوالده وللريف يبعث على السخرية ويدل اما على جهل مورر المطلق ، أو أن كليمس قد استهزأه حينما قام بأعمال الترجمة ــ والامر الاخير هو الارجح ، لان كليمس أخبر مورر ان عبد الكريم هو « سلطان » الريف على الاغلب كي يؤثر في الضيف الاجنبي •

ومهما يكن من أمر ، فقد حصل مورر على بعض المعلومات المفيدة • وذات عشية ، بعد مغيب الشمس ، حين اقترح كليمس القيام بنزهة ، قال له الجنود الريفيين : حتى هذه الايام لا يخرج أحد بعد مغيب الشمس • وحين استفسر مورر عن السبب في ذلك ، نهض الرجل ، وأشار بيده الى قرية تجثم على قمة التلة على بعد قرابة نصف ميل واحد ، وأضاف : لقد كانوا أعداءنا • فقاتلناهم وقاتلونا زمنا طويلا بحيث لايذكر أحد السبب في هذا القتال وتاريخ حدوثه •وان كل من يخرج بعد مغيب الشمس يعرض نفسه للقتل بالرصاص •

ــ أرى ذلك • وكيف أنهيتم القتال ؟

ــ أنهاه السلطان • لقد أنهى جميع الحروب في الريف • وجعلنا جميعا أخوة

ضد الاسبانيين • واذا ما حاول ريفي أن يقاتل ريفيا آخر على مألوف عاداتنا السابقة،فان الجنود يقدمون ويلقون القبض عليه ويزجونه في السجن أو يضربونه • اننا لنسمح الآن لنساء تلك القرية بورود نبع مائنا كل يوم •

في اليوم التالي قدم مورر الى عبد الكريم ، فصافحه على الطراز الغربي • واما تمعن مورر في عبد الكريم فقد وجده ابيض اللون حتى لم تلفحه الشمس • وكانت يداه نظيفتين ، شاحبتين ، ثقيلتين قليلا • وكانت لحية قصيرة سوداء تزين خديه المدورين • وكان فمه ممتلئا لكن حازما ، وعينان سوداوان تطلان من تحت جفنين نصف مغلقين بنظرة ثابتة »•

وما أن دعي الى اعلان شروطه للصلح مع الاسبانيين حتى أعلن عبد الكريم انه يختصر هذه الشروط في الجلاء التام عن مناطق الريف ، ماعدا سبتة ومليلا ، ودفع الاسبانيين التعويضات عن الدمار الذي سببوه ، وتبادل الاسرى •

وعند انتهاء تلك المقابلة التي استمرت طوال ساعتين ، سأل مورر عبد الكريم أن يوجه رسالة الى الشعب الاميركي • وهذا هو مضمون تلك الرسالة :

من السلطان ابن عبد الكريم الى الشعب الاميركي في اميركا الشمالية

أحييكم ، أيها الشعب العريق ، باسم الشعب الريفي ، هذا الشعب الذي لايبرح يعاني ويلات الحروب في سبيل الحرية • وان الشعب الريفي ليأمل أن يحرز ذات يوم ما أحرزتموه أنتم – النجاح الذي حصلتم عليه بتكاتفكم وتضحياتكم التي استدعاها طموحكم في زمن كنتم فيه ، مثل أبناء الريف الآن ، في سن الشباب •

ان شعبي ، مستوحيا مبادئكم المقدسة ، يناضل منذ سنوات في سبيل استقلاله ، وهو على أتم استعداد لبذل كل تضحية ممكنة ، لأن كل من يثابر في الدرب التي رسمها لنفسه لابد وان يبلغ الهدف الذي يسعى اليه •

ايه أيها الشعب الاميركي ، انني انتهز الفرصة التي أتاحتها لي زيارة احد صحفييكم (هذا الذي بدا في عيني رمزا لعظمة الروح والحرية مثلما بدا في عيني رمزا للمروءة والسخاء) لأبعث اليكم بتحياتي • مع أخلص ودي !

وذكر مورر أنه في اليوم التالي بدا المنزل الحكومي في أجدير في حركة دائمة غريبة

الشكل • فقد « انتشر الحراس لمنع الناس من الاقتراب • وهنالك عند الشاطىء ، في مكان بعيد عن العيون ، كان ثمة خيمة بيضاء في داخلها طاولة وبعض المقاعد • وهبط عبد الكريم ووزراؤه الرئيسيون على صهوات الجياد المزركشة يحوطهم حرس مؤلف من حوالي مائة جندي الى الشاطىء ودلفوا الى الخيمة • وعلى الفور ، قدم من الحسيمة ، الجزيرة الصغيرة الواقعة في الخليج ، قارب يرفع علما أبيض اللون • كانفي القارب مفوض اسباني وعدد من الضباط ، جاؤوا يطلبون السلام من عبد الكريم فيما اذا كانت شروطه مناسبة • كانت العزة الاسبانية تتمرغ في غبار سيد الريف » •

ولم تصل مباحثات السلام الى نتيجة • ورجع عبد الكريم الى مركز قيادته في آية قمرة حيث وجد وفدا في انتظاره • كان الوفد مؤلفا من أفراد من قبيلة بني زروالالذين يقطنون احدى المقاطعات الواقعة جنوبي الريف ، عند الضفة الشمالية لنهر ورغا • قال القائد ورجاله ان الفرنسيين يجتازون حدودهم ويبنون القلاع عند سفوح تلال الريف ، وطلبوا الى عبد الكريم أن يمد اليهم يد المساعدة لطرد الفرنسيين الى ما وراء حدود النهر • وأعلن القائد : « ان اعضاءنا في مجلس الشورى يضحون الآن ثورا عند باب مسجدكم في أجدير » •

ان عبد الكريم يواجه الآن قرارا كان يخشاه دائما • انه لايريد ان ينشب القتال بينه وبين الفرنسيين ، غير أن الليف ، نظام التحالف الريفي ، يوجب عليه مساندة قبيلة بني زوال •

والتفت عبد الكريم الى مستشاريه قائلا :

ـ لسوف أرتكب حماقة ، ولكنه لابد لي منارتكابها •

* * *

قضيّة شرف

يدعي الكتاب الفرنسيون الذين كتبوا عن حرب الريف أن كريما ، كما كانوا يسمون عبد الكريم دائما ، قد ارتكب خطيئة قاضية حين قاتل الفرنسيين ، ويقولون انه أثار الحرب ولم يحصد منها غير الاعصار • وانهم ليصورون عبد الكريم على أنه انتهازي متحجر دفعته العزة بانتصاره على الاسبانيين وتعطشه الى مزيد من القوة الى محاولة سحق الفرنسيين في أضعف أوقاتهم • ويقول شارلز ميرسر الذي دون سطورا عادلة عن عبد الكريم في كتابه « **الفرقة الاجنبية** » انه « ارتكب الخطيئة الكلاسيكية التي يرتكبها جميع الغزاة العسكريين ، ولم يفقه انه قد انتصر بما فيه الكفاية » • ويعترف **عبد الكريم نفسه بغلطته في كتابه « قصة الحرب »** • لم يكن ثمة خيار أمامه ، لانه لم يكن يستطيع أن يرفض التماس الليف اللازب الذي قدمه رجال قبيلة بني زروال • وهكذا كان ضحية اخلاصه وشرفه ، وهذا مالم ادركه الا بعد حديثي مع محمد بوجيبار في الدار البيضاء ومحمد الخطابي في القاهرة •

أما لماذا سمح عبد الكريم لنفسه بالتورط مع فرنسا ، وهي أعظم قوة عسكرية في أوروبا وقتئذاك ، فهذا ما يحيرني ويدهشني • أما التعليل بأنه « ما كان يستطيع امتناعا » وانه « لم يكن أمامه اختيار في الامر » فتفسير لا يرضي • وقد أخبرت أقرباءه بأن تفسيره غير كاف وغير مناسب • فمن المؤكد ان عبد الكريم كان في حاجة الى الحفاظ على شروط طيبة مع حكومة الانتداب الفرنسية بأي ثمن كان • كان قد ربح الحرب مع الاسبانيين ، وكان اعداؤه ينسحبون انسحابا تاما • ولم يكن الفرنسيون ليجتاحون الريف ، فقد تم الاتفاق بينهم وبين الانكليز على عدم احتلال شاطىء البحر الابيض المتوسط • وكان يمكن للريف أن يبقى هادئا لا يعكر صفو عزلته انسان ، أمينا من الغزو الفرنسي •

كانت اسئلتي اللجوج قد أتت لاول مرة على ذكر نظام التحالف القبلي في الريف، الليف ، وآلية فعله الغريبة ، العار ، أي الاكراه المشين • وقد أوضح لي شقيق عبد الكريم انه كان ملتزما بتنفيذ الليف ، ولم يكن ليستطيع تجاهله حين استنجد به بنو زروال • وكان عبد الكريم نفسه قد استخدم الليف لجمع كلمة شعبه ضد المعتدي الاجنبي • ولا ريبة انه كان ، هو نفسه ، يعيش بقوة الليف • ولقد كان ملزما بقتال الفرنسيين عندما استنجدت به قبيلة بني زروال لصد الغارات عن اراضيها القبلية • وكان بنو زروال احدى قبائل البربر المستعربة ، ولم يكونوا من قبائل الريف ، وقد ناصروا عبد الكريم في هزيمة الاسبانيين ، وهؤلاء هم عام ١٩٢٥ يطلبون مكافأتهم الحقة •

وسألت محمد الخطابي ، فقلت : لقد أصبح الليف ، بكلمات أخرى ، مخلوقا شنيعا أوجده عبد الكريم نفسه ؟ ولم يخف مضمون هذا التلميح عليه • فضحك وأوضح لي أن « ذلك ليس الا خطأ تفكيركم الغربي » • ولم يقصد « الخطأ » بأي معنى مشين بالكرامة ، لانه كان رفيع التهذيب حقا • وقد فهمت قصده • فنحن الغربيين معتادون على الانتهازية والنفعية بحيث نخفق في التعرف على معاني الشرف الحقيقي • وعلى الرغم من أن عبد الكريم كان يدرك مضامين القرار الذي يواجهه ، وكان يخشى عواقبه على ذاته وعلى شعبه ، فقد أصر على مراعاة شرف تحالفه مع قبيلة بني زروال • كانت الحرب مع فرنسا ستؤدي الى الهزيمة والعار ، كما يمكن ان تقضي نهائيا على استقلال الريف الحديث ، هذا الاستقلال الذي حصل عليه اقتدارا وبصورة تبعث على الذهول •

وجلست طوال لحظات أتساءل عن مضامين بيان محمد الخطابي • وانتقلنا من الحديقة الى البيت وجلسنا في غرفة مطالعته أو مكتبه ، وهي غرفة أعتقد أن فنسانت شيان ما كان يجدها تختلف في شيء عن خيمة القائد التي زارها عام ١٩٢٥ • كان أحد جدرانها يعج برفوف ملأى بمجلدات ثقيلة ؛ في حين وضعت على بعض المقاعد أكوام من الصحف وكميات من نماذج للصخور ، هذا الدليل القاطع على ثروة الريف المعدنية الذي جمعه الشاب المتضلع في علم المعادن قبل أربعين سنة كاملة • وكان من الطبيعي ألا نكون وحيدين • جلست الى مقعد الشرف الى جانبه ، وقد أحاط بنا منفيو الريف — اثنان من أولاد عبد الكريم ، وامين سر محمد الخاص ، وثلاثة أصدقاء آخرون قدموا ليساعدوا في الترجمة وليظهروا مدى تعاطفهم الحار مع الاجنبي الذي سعى لمعرفة الحقيقة عن عبد الكريم •

واما أدرك محمد الخطابي حيرتي وارتباكي ، فقد بحث عن تشبيه ليشرح لي به ،

بلغة فرنسية رائعة ، وابتسامة خفيفة تتخايل على شفتيه ، ماهية القرار الذي اضطر وشقيقه عبد الكريم الى اتخاذه عام ١٩٢٥ ، فقال :

ـ انه لايصعب على رجل انكليزي أن يفهم • ان قراركم بقتال النازيين بمفردكم عام ١٩٤٠ لم يكن قرارا « ملائما » الا بصعوبة بالغة •

واستطرد في لطف :

ـ وقد قاتلتم بمفردكم لان شرفكم كان في الميزان • وقد قاتلنا الفرنسيين عـــام ١٩٢٥ لان شرفنا كان في الميزان ايضا •

وقد تبين لي أن « القرار المشؤوم » الذي اتخذه عبد الكريم كان « أروع ساعات حياته » • ولعله تساءل ، كما فعل حين اتخذ قراره بالابقاء على مليلا ، ما اذا كان قتال الفرنسيين أمر لا غنى عنه ، ولكنه لم يأسف البتة على اتخاذه مثل هذا القرار • ولقـد حطم القرار كيان الدولة التي خلقها ، ولكنه حمى روحه وخلق لشعبه نبالة لايمحوهـا الزمان •

وسألت محمد الخطابي ، فقلت :

ـ وهل قبل أهل الريف بالقرار الذي اتخذه قائدهم ؟

كنت جالسا على متكأ بالقرب منه ، تتنازعني الرغبة في اشـــعال سيكارة • كان المجتمع الريفي يحظر على الشباب التدخين في حضرة من يكبرونهم سنا • ورد محمـد الخطابي على سؤالي قائلا :

ـ لقد فهم أهل الريف القضية فهما كاملا ووافقوا على القرار الذي اتخذه شقيقي•

لقد عقدوا في شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٢٥ اجتماعا قبليا كبيرا في أجدير للاحتفال بذكرى الانتصار على الاسبانيين • وأصغى القادة المتحلقون في احدى ساحات دار الحكومة الى شرح عبد الكريم لسياسته ومشاريعه للايام المقبلة • وكان قائد قبيلة بني زروال قد أطلع المجتمعين على أن الفرنسيين تقدموا خلال عام ١٩٢٤ عبر نهر ورغلا ، وشيدوا عدة حصون في سفوح تلال الريف • وقد شقوا طريقا عسكرية كبـيرة بين فاس وعين عائشة ، حيث أنشأوا معسكرا أساسيا ، ثم تابعوا تقدمهم عـلى طـول النهر صوب توناط وبدأوا ينتشرون في شرقي المنطقة وغربها •

ان الاوضاع الغريبة التي وجد بني زروال انفسهم فيها عام ١٩٢٤ تتطلب بعض

الايضاحات . ان الاتفاق الفرنسي الاسباني الموقع عام ١٩٠٤ قد حدد أوضاع الحدود بين مناطق مراكش الفرنسية والاسبانية . وقد رسم خط غامض الملامح على الخارطة عبر منطقة مجهولة لم يدخل اليها انسان من قبل ، وذلك دون اعتبار لارادة المواطنين الاصليين ومن دون علمهم . وكان ذلك الخط يفرق بين القبائل ، ويجتاز القرى ويقسم البيوت الى نصفين . ويصف و.د. موريل ذلك التحديد على النحو التالي :

كان الخط المذكور سيمتد من حيث يتدفق نهر مولايا الى البحر الابيض المتوسط ، متتبعا سرير ذلك النهر الى أن يصل الى الخط الذي يشكل قنة المرتفعات القريبة من الضفة اليسرى لنهر وادي دفلا . ومن هذه النقطة ، ومن دون أن يقطع على الاطلاق نهر مولايا سيمتد خط الحدود بأقصى قدر من الاستقامة الى الارض المرتفعة التي تفصل بين حوضي مولايا ووادي عيناون وحوض وادي القرط . ومن هنالك سينطلق في الاتجاه الغربي ، متتبعا الارض المرتفعة التي تفصل حوضي نهر وادي عيناون ووادي سبو ، وحوضي وادي القرط ووادي ورغلا الى أن يصل الى جبل مولاي بوختة عند القنة الاقصى الى الشمال . ومن هنالك يعود الخط فينطلق في اتجاه الشمال ، محافظا على مسافة تبعد على الاقل خمسة وعشرين كيلو مترا عن شرقي الطريق الممتدة بين فاس والقصر عبر وزان الى ان يلتقي بوادي اللوكوس أو وادي الكوس . ومن هنالك يتابع الخط انطلاقه على طول سرير هذا النهر الى مسافة تبعد خمسة كيلو مترات الى الاسفل من النقطة التي يقطع النهر فيها الى الطريق المذكورة أعلاه من القصر عبر وزان . ومن هذه النقطة يتابع الخط انطلاقه بأقصى استقامة مستطاعة الى شاطىء الاطلنطي فوق مستنقع الزرقاء .

ان ايا من هذه المسالك النهرية لم يوضح رسميا على أية خارطة حتى في عام ١٩٦٤. ومهما يكن من أمر ، فان من الضروري بمكان التأكيد على أن الحدود الجنوبية بين فرنسا واسبانيا قد حددت في حدود عشرين كيلو مترا الى الشمال من نهر ورغلا ، على طول الحدود الجنوبية لجبال الريف . وبكلام آخر ، فقد كان الفرنسيون يعملون بموجب حقوق معاهدتهم ، اذا كان يمكن استعمال هذه العبارة لوصف اغتصاب أرض الناس الآخرين ، حين تقدموا عبر نهر ورغلا عام ١٩٢٤ .

أما فيما يتعلق بتعدي الفرنسيين على الحدود الواقعة شمالي نهر ورغلا ، فقد كتب والتر هاريس الذي أتيحت له فرصة رائعة لتفهم وتقدير الاوضاع في مراكش يقول : « ان النقد الوحيد الذي كان يمكن الادلاء به لم يكن يتعلق بقانونية هذه الاعمال لان الفرنسيين كانوا يتصرفون ضمن حقوقهم بصورة لاجدال فيها • أما اذا أخذنا الاوضاع الفعلية المتوترة بعين الاعتبار ، فان تلك الاعمال كانت تعد في نظر أهل الريف تحديا للاشتباك المسلح باعتبار أنها اغتصاب غير مشروع لاراضيهم »•

ويتابع السيد هاريس قائلا : ان الفرنسيين احتلوا اراضي كان عبد الكريم ينادي بسيادته عليها ، كما يعلن انه لايمكن أن نتوقع من أهل الريف أن يعرفوا ، ويمكننا أن نضيف ألا يخلصوا ، لبنود الاتفاقية الفرنسية الاسبانية • ويقول هاريس انه ليس مما يبعث على الدهشة أن تعمد قبائل الحدود ، وقد أقلقها تقدم الفرنسيين المستمر، الى ارسال الوفود الى عبد الكريم ، مطالبة معونته لطرد الغزاة •

وقد أدخلت بعض التعديلات الطفيفة عام ١٩١٢ على نصوص اتفاقية عام ١٩٠٤ ، فوافق الاسبانيون ، بناء على طلب حكومة الانتداب الفرنسية ، على ادخال الاراضي التي تغمرها روافد نهر ورغلا ضمن الحدود الفرنسية • وقد فشل الاسبانيون في الوصول الى نهاية الحدود الجنوبية لمنطقتهم ، في حين كان الفرنسيون قلقين على حماية فاس وتازة ، والطريق الوحيدة المؤدية الى الجزائر ،وذلك بدفع حدودهم خمسين ميلا على الاقل الى الشمال من هاتين المدينتين • وكما أعلن رئيس الوزراء البريطاني ستانلي بالدويل عام ١٩٣١ أن الحدود البريطانية تقع على نهر الراين ، أصر الفرنسيون عام ١٩١٢ على أن حدودهم ينبغي أن تقع الى الشمال من ورغلا ، تاركين منطقة فسيحة « من الاراضي المحرمة » فيما بين مواقعهم الامامية ومواقع الريفيين •

وقد وصفت هذه الاوضاع ، بحسب وجهة النظر الفرنسية عام ١٩٢٤ ، من قبل ليون غابرييلي الذي كان في ذلك الحين حاكما مدنيا لحدود مقاطعة تاريرت ، على النحو التالي :

> كان غموض الحدود بين المنطقتين الفرنسية والاسبانية ، حيث كان يعمل الزعيم الريفي ، مشجعا على انفجار تلك الاحداث • كانت تلك الحدود قد رسمت وعينت في مكاتب الدبلوماسيين على خرائط قديمة العهد • ودون ان تأخذ بعين الاعتبار اية حقائق عرقية • وكان مجرى نهر

وزغلا يشكل الاساس من اجل تحديد حدود للمناطق التابعة لكل من الطرفين ، وكان يفترض في جميع القبائل التي تشرب أغنامها من مياه نهر ورغلا أن تقع ضمن السيطرة الفرنسية في حين أن القبائل التي لا ترد قطعانها الى نهر ورغلا تقع ضمن السيطرة الاسبانية ! ومما يؤسف له أن عددا من القبائل المنتشرة في المنطقتين المحددتين على هذا الغرار ـ اذا جاز هذا التعبير ـ وحدت كلمتها تحت قيادة زعيم واحد • من هنا كان المنطلق الاساسي للحلف الهام الذي عقد مع بني زروال وطالب بتحقيقه عبد الكريم نفسه ، على الرغم من أن عددا من هذه القبائل كانت تبعث قطعانها لورود نهر ورغلا •

وأخبر عبد الكريم علال الفاسي عام ١٩٥٠ قائلا : « لقد خلق تقدم الفرنسيين في وادي ورغلا نقمة هائلة في صفوف قبائل الريف » •

وتابع الامير شارحا الاوضاع للفاسي قائلا : « كان هذا الشريط من الارض يقع تحت اشراف الريف المباشر حينما تقدم الفرنسيون عليه • ولا يهمني كثيرا أن تعتبر اسبانيا أو فرنسا أن هذا الشريط يقع ضمن سلطتها الانتدابية ، باعتبار أن حكومة الريف لم تقبل قط أو تعترف بتجزئة مراكش الى محميات مختلفة تقع تحت السلطان الاجنبي »•

ويقول والتر هاريس أن عبد الكريم كتب اليه في عدة مناسبات خلال هذه الفترة ، محتجا على عداوة الفرنسيين ، ومؤكدا على نفوره من الانجرار الى الحرب على هذهالجبهة• ويتابع هاريس كلامه قائلا :

> ليس من الحكمة أن نصدق كلام عبد الكريم بكامله ، لأن مراسلاته كانت تخدم اغراضا أخرى اكثر منها أن تكون مجرد اعطاء ايضاحات يركن اليها ، غير أنه اشار بكل وضوح الى المساوىء التي تلحق به شخصيا نتيجة أية حملات ضد الفرنسيين بحيث لايمكن في حال من الاحوال اتهامه بأنه عميل عن طيبة خاطر • وقد اعلن صراحة أيضا أن الاسبانيين هم اعداؤه الحقيقيون ، وأنه ليس ثمة أية خصومة بينه وبين الفرنسيين ،وان تكن لديه شكاوى عديدة ضدهم • وقال انه لايجد سببا لنشوب الحرب بينه وبينهم مالم يكن لدى الفرنسيين بعض الدوافع الخلفية الخاصة •ولم

يكن الريف ليمتد الى حدود الانتداب الفرنسية ، التي ينفصل عنها كليـا بسبب من العرق ، واللغة ، ووضعه بالذات ، وطبيعته ٠ ان رغبته ونيته هما طرد الاسبانيين من افريقيا ، ولن يعوقه شيء عن تنفيذ ذلك حتى ولو لم يبق في الريف حجر على حجر ٠ ولم يكن لديه أي سببلقتال الفرنسيين، رغم انه كان يبدو أن الفرنسيين يرغبون في اثارة الخصام معه في كل فرصة ممكنة ٠ ولم يكونوا ليتركونه وحيدا ، الامر الذي أثبتته عداوتهم لـــه شخصيا وقضيته مع بني زروال ، حيث كانوا يدسون ويتآمرون عليـه باستمرار ٠ كما انه لم يكن ليقبل بالحدود التي استولوا عليها ، ناهيـك عن الحدود التي يطالبون بها ٠ وأشار الىانه لم يكن طرفا في اتفاقية عـام ١٩١٢ أو أية معاهدة أخرى ، هذه الاتفاقية التيكان ينظر اليها على اعتبارها مثالا مريعا للتدخل السافر في قضايا وشؤون شعب بريء نزيه ٠ وكـانت أية تسوية يمكن أن يصل اليها الفرنسيون والاسبانيون في موضوع حـدود بلد لم يقم بزيارته أحد منهم على الاطلاق ، ولا يعرفون عنه شيئا ، وحيـث فشلوا جميعا في فرض سلطتهم ، وحيث ليس ثمة أية رعايا أو اهتمامـات مادية أو معنوية لهم ، يعد عملا منافيا للعقل يرتكبه استعمار جائر لا مبرر له على الاطلاق ٠ وكانت حكومات أوروبا تتحدث على الدوام عن محاسـن اعادة السلام وتعميم القانون والنظام ٠ ولقد ادخل كلا القانون والنظـام الى البلد موضوع البحث فاذا هم الان يهددونه بالغزو والحرب جـــزاء لذلك ٠ وانه يضيف انه كان من حقه أن يتلقى آيات الشكر لمنجزاته ٠وهو لم يكن ينكر حقوق الفرنسيين في العمل الى الجنوب من ورغلا ، ولكنهـــم نكثوا عهودهم باجتيازه واعتدوا على منطقته وراحوا يهدمون ويحطمـــون جميع الاعمال الطيبة التي قام بها ٠ وليبدو أنهم عازمون ، في الحقيقـة ، على اعادة فرض الفوضى في منطقة استطاع أن يجعل السلام يسودها حقـا وفعلا بنجاح وبكل عناية ٠

ويقول هاريس أن عبد الكريم لم يكن منظما جيدا ومقاتلا رائعا فحسب ، بل كان منشيء مراسلات ممتازا بارعا ٠ وقد تعلم أن يتخذ اللهجة التي كانت أوروبا قدألفتها في البرقيات المتعلقة بالانتدابات وما شابه ذلك – الدحض الجريح الكبرياء للمواعثالخاطئة الاحكام ، والاحتجاج المداهن بالنيات الخالية من الاثرة ٠

وقد أكد لي كل من بوجيبار ومحمدالخطابي (وهو ماتثبته الوثائق الفرنسية)ان عبد الكريم أرسل عددا من المندوبين المفوضين الى الفرنسيين يطلبون اليهم تحديـــد الحدود الريفية تحديدا ثابتا • وقد ذهب بوجيبار نفسه ، لدى عودتـه من رحلته الى انكلترا عام ١٩٢٣ ، الى فاس وتحدث الى المسؤولين الفرنسيين فيهـــا • وقد شرح الفرنسيون له في السر ، وفي اسلوب ودود ، المأزق الذي يعانون منه • ان حكومـــة الانتداب الفرنسية مرتبطة باتفاقية تنص على دعم سلطان مراكش الذي كان يعتبر أهل الريف ثوارا • • وتبعا لذلك لم يكن في مقدور الانتداب الدخول في اي اتفاق مع عبـد الكريم ، كما صرح الحاكم القطري الاداري شاستناني • ولكنه اقترح قائلا ان الحكومة الفرنسية يمكن اقناعها ببحث قضية تحديد الحدود بصورة غير رسمية ، فيما اذا ألقى عبد الكريم القبض على عبد المالك وسلمه الى الفرنسيين الذين يطالبون به بعد نظــرا لخيانته المرتكبة عام ١٩١٠ • (كان الاسبانيون قد عينوا عبد المالك لقيادة قواتهـــم الاحتياطية المرابطة حول مليلا) • وما أن أعلم بوجيبار عبد الكريم بهذا الشرك ، حتى رفضه عبد الكريم في اباء • ان عبد المالك قد يكون عدوه حقا ، ولكنه مراكشي في آخر الامر ، وتسليمه الى العدالة الفرنسية أمر غاية في الكراهة •

ويقترح هاريس قائلا انه لو لم يتصل عبد الكريم بالسلطات العسكرية في فاس بل اتصل بالسلطات الادارية في الرباط لكان يمكن أن يصل الى اتفاق يرضي الاطراف جميعا ، لانه كان مأثورا أن المارشال ليوتيي يرغب في تجنب النزاع • وان أي حـــل لهذه المشكلة ، في رأي هاريس ، يتفق معشرف فرنسا وسلامتها كان يمكنبالتأكيدأن يكون موضع ترحيب وقبول •

ورفض الفرنسيون عروض عبد الكريم المتكررة • وسمح المارشال ليوتيي ، هذا الذي كان يجهل الاوضاع الحقيقية ، أو ربما أساء فهم نيات عبد الكريم ، كمـــا كان يستخف بقوة أهل الريف وبأسهم ، سمح للجيش بزيادة حدة التوتر على الحدود • وقد يكون خطر للمارشال ليوتيي أن سيطرة أهل الريف على وادي ورغلا الخصيب يمكــن أن يضاعف من حدة قواهم بشكل يبعث على الخطر • وكان هيوبرت ليوتيي في السبعين من العمر ، واهن الصحة ، وقد قاربت فترة خدمته كمقيم عام في مراكش على الانتهاء ، وسرعان ما سيحال على المعاش ، فهويود أن يسلم الى خلفه انتدابا هادئا سلميا • كـــان قد أسس حكما مطلقامتسامحا ، محافظا على العادات الوطنية وعلى مؤسسات الحكـــم

الشريفي . وكان الزعماء الكبار يرون فيه رجلا قويا ،وكان الشعب يحترمه نظراً لاعتداله وأناته . وكانت الحكومة الفرنسية في باريس تدعم المارشال ليوتيي أو تتخلى عنه تبعا لتأرجح السياسات الحزبية . وكان الحذر مبدأ ليوتيي الاساسي ، وقد عمل على محاولة اكتساب أكبر قدر ممكن من التقدم السلمي بأقل قدر ممكن من الحرب . ويبدو أن ليوتيي فقد ثقته ولمسته الاكيدة في تعامله مع عبد الكريم ، فخلط بين الحذر والتهور . وهكذا كانت خميرة البيرة أقوى من أن يحتملها العجين كثيرا .

كانت انتصارات عبد الكريم المذهلة على الاسبانيين قد خلقت موجة من الاضطراب والقلق في مراكش . وألهبت دعاياته حمية القبائل التي تقطن جنوب الريف فراحت قوافلها تزور أجدير حيث كان رجال القبائل يراقبون الاسرى المسيحيين وهم يشقون الطرق . وأثار نجاح أهل الريف حفيظة ليوتيي . ان اقامة دولة اسلامية مستقلة على حدود الانتداب الفرنسي يشكل تهديدا مستمرا وأكيدا لأمن هذا الانتداب وسلامته . وكتب الى السلطات في باريس قائلا : ان قبائل الريف تخضع لاول مرة في تاريخها الطويل لرجل فرد وتعيره أذنا صاغية .

وأضاف قائلا : « ان كريما يرغب فيما يبدو في تمثيل دور مصطفى كمال » ، وقد انتفع من ثقافته الاوروبية ومن معرفته بالتقدم المعاصر . وينذر ليوتيي قائلا :

« ان امير الريف هو بطل الاستقلال المراكشي » ، تقال الصلوات باسمه ، الامر الذي لم يكن له مثيل في مراكش منذ زمن طويل ، كما أن صورا ملونة له تنتشر في شمالي أفريقيا ، بل في آسيا الصغرى . ولما سئل ليوتيي عما اذا كان في الامكان الوصول الى تفاهم مع كريم أجاب : « كلا » . وأضاف أن الريفيين « يهيئون علنا تغييرا للجبهة ضدنا » . فقد كانوا يشقون الطرقات ويمدون خطوط الهاتف ، ويقيمون مراكز للمدافع الرشاشة . وأكد ليوتيي قائلا : « طالما اننا لم نوطد مواقعنا شمالي نهر ورغلا ، فان سيطرتنا على فاس وخط مواصلاتنا الرئيسي تازه ـ فاس يبقى تحت رحمة غزو ينهال عليه من الشمال » . ان حدود بني زروال تشكل عش دبور يمكن أن يحدث فيه كل شيء . ويشدد ليوتيي في التماسه على اعادة تعزيز قواته قائلا : « اننا نواجه حقيقة حية تزداد تطورا يوما بعد يوم » .

وتابع ليوتيي كلامه قائلا انه ينبغي على الفرنسيين ألا يضعوا أقدامهم في الريف ، أو يتوغلوا في المنطقة الاسبانية ، أو يستفزوا عبدالكريم . ولم يكن يملك مايكفي من

القوة لصد أي هجوم يقوم به عبد الكريم ، ولذلك طلب احدى عشرة فرقة جديدة على الاقل ليستطيع الرد على أي اعتداء جدي يمكن أن يتعرض له وليمتلك زمام المبادرة في العمل ٠

كان الفرنسيون على اطلاع كاف على أوضاع الريفيين ، فقد جعل غابريبلي همه معرفة كل مايستطيع معرفته عنهم من جواسيسه ، ومن مشاهداته الشخصية الخاصة خلال رحلة قام بها في الريف ، ومن المعلومات التي زوده بهاالمراسلان الاميركيان شيان وموور اللذان قاما بزيارة عبد الكريم بتكليف ورعاية منه ٠ وشرع غابريبلي ، شيئا فشيئا ومنذ وصوله الى تأريرت ، ببناء شبكة من المخبرين كان من أبرزهم القائد مأمون الجلاوي ، أحد الملاك الريفيين لفندق هام أو مقهى في تأريرت ، وحيث كان ينزل عدد كبير من الريفيين في طريقهم الى الجزائر أو عودتهم منها ٠ وراح غابريبلي ، في محاولة منه لزيادة أهمية هذه المؤسسة ، يمون ذلك الملاك بالشاي ، والسكر ، والمواد الاخرى التي كان يندر وجودها في الريف ٠ وكان مأمون يجيء لرؤيته ليلا ويسرد على مسامعه الاحاديث التي استقاها من زبنه ٠

ولم تكن المعلومات التي حصل غابريبلي عليها صحيحة كلها ، ولكنه كان قادرا ، على أية حال، أن يزود رؤساءه بلوحة حسنة عن اعدائهم المقبلين ٠ واستطاع غابريبلي أن ينشىء في نهاية عام ١٩٢٤ مؤسسة استخبارات سياسية وعسكرية رائعة ، وجمع أضابير كبيرة عن عبد الكريم وشقيقه ومساعديهما ومستشاريهما ٠ وكان يقول أن محمدا الخطابي مخلص كل الاخلاص لشقيقه الاكبر ، وان عبد الكريم يصغي الى نصيحته ويتقبلها ٠ وكان عبد السلام ، عم عبد الكريم ، يؤلف معهما الثالوث الذي كان يحكم الريف فعلا ٠ وكان الزرقان ، وزير الخارجية ، يدين بمركزه لزواجه من شقيقة عبد الكريم الاثيرة لديه ٠ ولقد كان داهية كثير الشكوك ، وكان تأثيره على عبد الكريم عرضة للتبدلات ٠ « غير أن شقيقة السلطان كانت تجيد التدخل لمصلحة شقيقها وتعيد زوجها الى الحظوة » ٠ وقد أضاف غابريبلي الى اضبارة الزرقان ملاحظة نيرةمفادها أنه أقام في باريس عام ١٩٢٣ ، وانه لاينسى هذه الحقيقة »٠

كان محمد بوجيبار من المقربين الى عبد الكريم الذي أرسله الى باريس عام١٩٢٣ كمبعوث لجمهورية الريف ، وقد اقام في فرنسا ستة عشر شهرا ورجع « خائبا مغتاظا من رفض المسؤولين أن يحركوا ساكنا » ٠ وهو مايقصد منه غابريبلي على الارجح أن بوجيبار قد خاب أمله بسبب فشله في الحصول على أية مساعدة من الفرنسيين

لقضية الريف . ولم يكن وزير الحرب محمد بودرا ، البالغ من العمر ثمانية وعشريـن عاما ، يعدو كونه مساعدا لشقيق عبد الكريم ، وكان عمله استدعاء الاحتياطي ، وتوزيع الاسلحة . وكان عبد السلام ، الذي كان غابرييلي يطلق عليه اسم وزير الداخلية في حين كان يشغل منصب وزير المالية ، رجلا ثانويا على الرغم من اتزانه ، وكـان دوره مقتصرا على تنظيم القبائل . أما فيما يتعلق ببقية الرجال المحيطين بعبد الكريم ، فـان غابرييلي يشيد بمحمد شدي « وهو شاب في الخامسة والعشرين ، ذكي ومثقف ثقافـة رفيعة » . ودون غابرييلي لرؤسائه التفاصيل الكاملة عن التنظيم العسكري الريفي ، وذكر اسماء وأوصاف الضباط القائمين على العمل فيه : اليعقوبي هو آمر الجبهـة الشرقية ، ومحمد اميرزان هو آمر قطاع كيفان ، وشعب نمو هو آمر جبهة ورغـلا . وكان القائد بحوت الذي فر ليلتحق بالريفيين يعمـل مدربا رئيسيا للجيش النظـامي الريفي ويتمتع بمكانة محترمة نظرا لاطلاعه على نظم القتال الاوروبية .

ويذكر غابرييلي أن « المكتب الخارجي » الريفي يستخدم صحفيا جزائريا يدعى سي الحسن بن عبد العزيز التلمساني ، وهو « مناظر نشيط » ذو خبرة واطلاع واسعين في السياسة الاوروبية . وليبدو أن أغلب اعضاء الوزارة الريفية كانوا من أفراد قبيلة بني ورياغل الذين كان غابرييلي يطلق عليهم لقب « بروسيي الريف » . وقـد أتـى غابرييلي أيضا على ذكـر « عدد لابأس به من الاتباع » المستظلين في فيء مجـد عبـد الكريم ، وفي عدادهم القائد حديدان الذي كان رئيسا لحرس عبـد الكريم الخاص ، والذي كان « ولاؤه لعبدالكريم لايعرف الحدود » ، وسيدي محمد بن زيـان الامغـار « الذي يشغل منصب مدير التشريفات ويرافق السفراء الاجانب في دخولهم على الامير » ، وكان يتبع عبد الكريم مثل ظله .

وكتب غابرييلي معلقا على « نظم القيادة » الريفية مايلي :

هذه النظم مختلفة متباينة . وكقاعدة عامة ، فان جميع القبائـل تخضع لرقابة عسكرية محضة . وتخضع كل قبيلة ، تبعا لاهميتها ، لاوامر واحد أو أثنين من الباشوات يقسمان اولئك الخاضعين لادارتهما الى « مئة » واحدة او مئتين . وعلى رأس كل مئة قائد مئة يخضع لاشرافه قائد خمسين وأربعة قواد خمسة وعشرين . وفي حال التعبئة العـامة (دعـوة جميع الشبان) ، فان جميع القوى العاملة تخضع لقيادة واحدة أو توزع وفقـا لأوامر « كبير المحلة » . ويأتي كل رجل ببندقيته وذخيرته وبعض أرغفـة

الجراية التي يضعها في جراب جلابيته • أما عندما تكون التعبئة جزئية ، فان « الباشا » هو الذي يدعو الجنود النظاميين افراديا أو يعبىء القوى اجماعيا • ولم تكن وحدات النجدة لتتحرك بشكل جماعي – بل ان كل فرد من أفرادها يعرف مركزه وينطلق اليه في موعد محدد • ولم يكن يشدد في فرض الانضباط ، لان المحاربين يطيعون الاوامر الصادرة اليهم دون أن يطرحوا أية اسئلة حولها • وكان « كبير المحلة » يعاقب على الجنح وسوء السلوك الخفيف بحيث يصدر احكاما بالسجن مددا لاتتجاوز خمسة عشر يوما • وكانت العقوبة تنفذ فورا • وكانت أجدير تصدر أحكامها على الجنح الاكثر أهمية ، وكان المذنبون ينفذون عقوبتهم في أجدير أو تاخانوست •

أما فيما يتعلق بقوات عبد الكريم المسلحة فان غابرييلي يذكر أن عدد الجنود النظاميين الريفيين يختلف تبعا لمقدار مالية الخزينة • ويقول أن هذه القوات لم تكن تتجاوز ألفين وخمسمائة رجل ، وهي مؤلفة بكليتها من رجال قبيلة بني ورياغل • وكان في عدادها مايقارب ٣٠٠ الى ٣٥٠ مدفعي وحامل رشاش أغلبهم من رجال قبيلتي بني ورياغل وبوسكايا « الذين اشتهروا بالذكاء والقدرة على تكييف أنفسهم بسرعة مع جميع المعدات الميكانيكية » • وكان هؤلاء الجنود النظاميون يتناولون مرتبا مقداره بيزيتتان في اليوم الواحد ، أما اذا لم يكن ثمة حرب ما فيتسلمون رغيفا واحدا في اليوم الواحد • أما خلال العمليات العسكرية فقد كان طعامهم يقدم من قبل القبائل التي يدافعون عنها ضد الغزاة • وكان يتوجب على جميع الرجال القادرين على حمل السلاح ، فيما بين السادسة عشرة والستين من العمر ، أن يلبوا نداء التعبئة العامة دون استثناء اذا كانت هذه التعبئة عامة ، وكل بدوره اذا كانت جزئية • وكانت حالة التعبئة العامة تقرر من قبل كل قبيلة على حدة اذا كانت مضطرة للدفاع عن نفسها ، أو تغطية حاجة أي جزء من قطاعات الجبهة • وخلال فترات الهدوء التي تعم القتال يرسل الاحتياطيون المجندون الى أجدير لفترات من التمرين تبلغ أربعة أو ثمانية أيام • ويختم غابرييلي تقريره قائلا ان التجنيد في احوال التعبئة يصل الى ٦٠٫٠٠٠ رجل يبلغ عدد أفراد بني ورياغل بينهم حوالي ١٥٫٠٠٠ الى ٢٠٫٠٠٠ رجل • ومن بعد يعد أفراد تمسامان حوالي ٦٫٠٠٠ رجل ، وبني توزين حوالي ٥٫٠٠٠ رجل ، وبوكويا وكيزنايا ٤٫٠٠٠ لكل منهما • ويذكر غابرييلي أن « افراد قبيلة بني ورياغل هم من المقاتلين الذين يتمتعون بأفضل سمعة » ،على الرغم من قوله أن قبيلة بوكويا الجريئة « يعود اليها الفضل في كارثة أنوال »

ويعلن غابريلي « ان جميع الجنود الذين هم من أصل ريفي هم محاربون من الدرجة الاولى ، يلهمهم قبل كل شيء واقع أنهم يحاربون تحت سلطة شعبهم وفي سبيل عظمته وسلامته » .

أما بالنسبة الى « التنظيم العام للقوات الريفية المسلحة » فان غابريلي يعلن « ان عبد الكريم ، بكل معرفته العميقة بالرجال ، وعلى الاخص الريفيين منهم ، يعارض فكرة تجميع جنود من قبيلة واحدة في نقطة عسكرية واحدة . وكان يخلط بين أفراد فرقه في حكمة بالغة عندما يضطره الامر الى الزج بهم للصمود في وجه الصدمات أو القيام بهجوم » . كما كتب يقول ان الاوامر كانت هزيلة : «ينبغي على الجنود أن يتعلموا كيفية استعمال اسلحتهم وأن يطيعوا أوامر قادتهم » . أما فيما يتعلق بأنواع الاسلحة التي كان يملكها الريفيون فان غابريلي يقول ان المدفعية بأسرها تقريبا هي من اصل اسباني ويصل عددها الى حوالي ٢٠٠ قطعة من مختلف العيارات ، ولم تكن جميعها صالحة للاستعمال . ولم تكن لديه أية معلومات عن قابلية أهل الريف التقنية في امكانية اصلاح هذه المدافع . ولم يكن ثمة وجود « للطيران » ، على خلاف الشائعات التي كانت تدعي وجوده . أما بالنسبة الى التحصينات فان غابريلي يذكر ان الريفيين خبراء في فن الحفر ، « وما أسرع أن نقلوا جميع أساليب حفر الخنادق التي استطاعوا الحصول عليها من المناطق التي كان يحتلها الاسبانيون » . وقد درس أغلب الريفيين الذين كانوا يعملون في فرنسا « أساليبنا في اقامة التحصينات ونقلوها الى اراضيهم الخاصة . وقد أكمل ثقافتهم الالمانيون الآبقون من الفرقتين الاجنبيتين الفرنسية والاسبانية » .

ويقول غابريلي : ان جهاز الهاتف الريفي « كان من صنع شقيق عبد الكريم الذي كان طالبا في مدرسة المهندسين الاسبانية » . وكان عمال الهاتف ، وأكثرهم من الاحداث ، يتم تدريبهم على أيدي الجنود الآبقين ، وكان في مقدورهم التقاط رسالة مكتوبة والحفاظ على الآلات صالحة للعمل . وكانت الخطوط في حالة غير مستقرة ، مرقعة بمزيج من الاسلاك من مختلف الحجوم والاشكال . وكانت الاعمدة تدفن في الارض عميقا لتقاوم هجمات الرياح العنيفة وتصمد امامها . وكان الريفيون حريصين جدا على هذه الاسلاك بحيث لايلمسونها مطلقا . وكانوا يملكون ، فضلا عن الآلات التي حصلوا عليها من الاسبانيين أو ابتاعوها من الجزائر ، عددا من الاجهزة الصغيرة النقالة التي تعمل بواسطة بطاريات مازدا .

وحين يعالج غابريلي احتياطي الريفيين من المهمات الضرورية يقول ان الريف كان

يملك عام ١٩٢٤ بنادق موزر فقط حصل عليها من الاسبانيين ، ولكنه حصل منذ ذلك الحين على بعض « بنادق ١٨٨٦ اشتراها من المنشقين علينا ». كما حصلوا بواسطة عمليات التهريب على ١٦٫٠٠٠ بندقية من المانيا (يقول الريفيون انهم لم يحصلوا على أكثر من ٤٠٠ منها) . وكانت كميات الخرطوش « لايمكن حصرها » . ويخلص غابريبيلي في تقريره الى القول أن أهل الريف يملكون حوالي ٢٠٫٠٠٠ بندقية فرنسية و ٨٠٫٠٠٠ بندقية اسبانية .

كما بعث غابريبيلي الى رؤسائه بالمعلومات التي حصل عليها من قبل المراسلين الصحفيين الاميركيين مورر وشيان . وكانت اكثر معلوماته مستقاة من مورر الذي رجع الى المنطقة الفرنسية والذي يجب أن نرتاب في تقاريره . وقد اخبره مورر ان عبدالكريم كان مقتنعا بأنه قد وجه الى الاسبانيين الضربة القاضية ، وان اسبانيا كانت قد استنفدت طاقاتها وانه يأمل أن يملي عليها شروط الهدنة . وشرح مورر قائلا ان

> عبد الكريم كان متضايقا من عدم نجاح البعثات المتعددةالتي ارسلها الىالامم الاوروبية منذ عام ١٩٢٢ . ولم ييأس ، بل كان يأمل أن يستطيع ، بعد انهيار اسبانيا ، اقامة مؤتمر عالمي حيث يستطيع أن يعلن استقلال الدولة الريفية المطلق . وكان يعتمد اعتمادا كبيرا على انكلترا في تأييد مطالبه . ومن جهة اخرى ، فقد كان يعلم أن فرنسا ستعارض في الاعتراف بهذا الاستقلال ، وأنها لن تسمح بأي ثمن كان باقامة دولة الريف على حدودها ، هذه الدولة التي يمكن أن تعتبرها دولة ثوار ضد سيطرة السلطان . وقد عزم على الكفاح المرير في سبيل هذا الاستقلال ضد **أوروبا بأسرها اذا اقتضت الحال ذلك** » .

وقد أخبر عبد الكريم مورر قائلا ان موضوع جمهورية الريف لم يعد موضع بحث ، بل هنالك موضوع دولة الريف التي يرأسها سلطان . وكانت حدود هذه الدولة لاتبرح غير واضحة المعالم بعد ، « فلسوف تثبتها فرص الحرب وظروفها » . وقد تأثر مورر كثيرا بتلك الحيوية وذلك الحزم اللذين كانا يشعان من ملامح عبد الكريم الذي يتحدث عنه بوصفه « شخصية قوية » . وقد اخبر عبد الكريم مورر قائلا : «ثمة سلطةواحدة تسيطر على الريف ـ سلطتي » . وكان عبد الكريم مقتنعا تماما بجسامة رسالته : « استقلال بلاده . » وقد أعلن عبد الكريم في فخار قائلا : « ان الريف اليوم لأشد ثباتا من بعض الدول الاوروبية » .

وأخبر مورر غابريبيلي أنطموح عبدالكريم لم يكنأقل منخلع مولاي يوسفعنالعرش .

وقـــد اقترح أن يجعل من نفسه سلطانا مقبـــولا ـ باعتبار أنه ليس من سلالـــة الرسول ـ بدخوله الى فاس دخول الفاتحين ووضع يده على ضريح مولاي ادريس ·ويجب أن نلاحظ انه لم يكن لدخول فاس أو ضريح قديسها أي مغزى مخصوص بشأن قبـــول شخص السلطان · ان مورر وكليمس قد اخطآ فهم عبد الكريم ·

وتابع مورر كلامه قائلا ان عبد الكريم كان لايبرح مشغولا كليا بالاحداث التـــي تأخذ مجراها في المنطقة الاسبانية ، ولكنه كان يعتبر ان النضال سيدخل عاجلا مرحلـة جديدة ويتخذ مظهرا جديدا · وكانت اسبانيا تقاتل الامير في سبيل شرفها ، وقد عرضت بعض عروض الصلح التي رفضها ، لانه يريد ان يملي شروطه الخاصة لا أن يقبـــل بالشروط التي يعرضونها عليه · وأخبر مورر غابرييلي قائلا : « انه بعد اعلان الهدنة مباشرة ـ هذه الهدنة التي قال انها وشيكة الوقوع ـ سيتفرغ عبد الكريم لتهيئـــة مستودعات من الطعام والتجهيزات الاخرى ، ويعيد تنظيم جيشه ، ومن ثم ينقـــض عليكم في الربيع المقبل » ·

وبدت هذه المعلومات ، من حيث قيمة المصدر الذي استقيت منه ، والتفاصيـــل التي اعطتها عن نيات الزعيم الريفي ، بالغة الاهمية في نظر غابرييلي بحيث ارســـل على الفور خلاصة عنها ببرقية شيفرة الى المقيم العام في الرباط ·

وأعلن غابرييلي أيضا أنه استخلص أمورا كثيرة من ابحاث شيان المنشورة فـي شيكاغو تريبيون التي أرسل شيان نفسه اليه نسخا منها · وأضاف غابرييلي في كتابه قائلا : « ان عبد الكريم لم يعد يرغب في مقابلة أي صحفي آخر · وقد قال ان جميـــع أولئك الذين أتوا الى أجدير قد بدلوا وحرفوا في تصريحاته ·وكان مزعوجـــا بشكل خاص من مورر الذي أعلن أن الامير اخبره بعزمه على الذهاب الى فاس بل الى أبعد منهـــا· وانه لينكر ذلك » ·

وقابل مورر بعد لقائه مع غابرييلي الجنرال دوشانبران كما استقبله الرائـــد دومكور رئيس قسم المخابرات الفرنسية الذي عنفه على اطرائه الريفيين واثارته كوامن طموحهم : « لسوف تجعل عبد الكريم يعتقد ان العالم بأسره يصفق لمآثره · لقد أوحيت اليه أنه كمال باشا آخر » · فرد مورر قائلا : « ولكنه يعرف كل شيء عن كمال باشا، ومهما يكن من أمر فان العالم يراقب الاحداث الجارية »· فأجابه الفرنسي قائلا : « كان ينبغي عليك ان تشير الى قوة فرنسا وحتمية الهزيمة التي سيمنى بها »·

وسمح لمورر بزيارة المواقع الفرنسية الامامية في الريف · وما أن رجع الى فـــاس

حتى سمع ان المارشال ليوتيي يحب أن يتحدث اليه • وحين وصل الى الرباط في احدى سيارات الركوب اخبر المقيم العام انه يتوقع ان يهاجم عبد الكريم الفرنسيين حالما تنتهي الحرب مع اسبانيا • ولما طلب اليه ايضاح السبب في ذلك أعلن مورر قائلا : « انه منطق الاحداث » • لقد تقررت الامور حينما اعلن عبد الكريم نفسه سلطانا ، لأن ذلك يتطلب منه الذهاب الى فاس • واعلن ليوتيي ان مكتب الاستخبارات العسكرية أخبره بعكس ذلك ، وان الريفيين لايجرؤون على مهاجمة فرنسا • فرد عليه مورر قائلا : « لسوف يقومون بمحاولة على فاس عند قدوم الربيع »•

وقد قابل مورر في طريق عودته الى باريس ، ونزولا عند رغبة ليوتيي ، وزير الخارجية بريان •

قال بريان : « اقعد • لقد كنت في مراكش اذن • وقد قابلت عبد الكريم العظيم • هؤلاء الزعماء الوطنيون ـ اننا نعرفهم جيدا • انهم في الحقيقة أناس بسطاء • اذا عاملتهم كما ينبغي فانهم يتجاوبون مع اللطف• وعلى أية حال ، فليس ثمة ادنى امكانية لان يهاجمنا هذا الانسان قط • ان ذلك سيكون جنونا منه ، وهو أذكى من أن يقترف ذلك »•

فقاطعته قائلا : « بلى ، ولكن •• »•

فاستطرد بريان قائلا ، وهو يستند بظهره الى مقعده ويضم اصابع يديه بعضها على بعض : « ان جنرالاتنا يشبهون بعضهم بعضا • فهم يلحون على الدوام في طلب المزيد من الرجال ، والمعدات، والمال • وهم لايكتفون مهما بالغت في اعطائهم • ولكن فرنسا تصرف اهتمامها الى السلام لا الى الحرب • ونحن لانريد أن نقاتل احدا ، وعلى الاخص الوطنيين » •

وكان والترهاريس يصرف اهتماما خاصا الى الازمة التي كان يتنبأ باقترابها • وكانت التحركات الفرنسية عبر نهر ورغلا يمكن أن تعجل باندلاع نيران الحرب في رأيه، لانها قد تقلل من سلطة عبد الكريم وتقطع عنه مصدر تموينه الاساسي بالحبوب •واجتاز الفرنسيون في ربيع عام ١٩٢٤ قطعة الارض العريضة المتموجة عند الضفة الشمالية لنهر ورغلا ، واحتلوا خط التلال الموازية لمجرى النهر • ولم تقف في وجههم أية مقاومة على الاطلاق • ويقول هاريس :

ـ كانت تلك هي المرة الاولى التي توفرت فيها حجة من اجل القتال ، لانها كانت

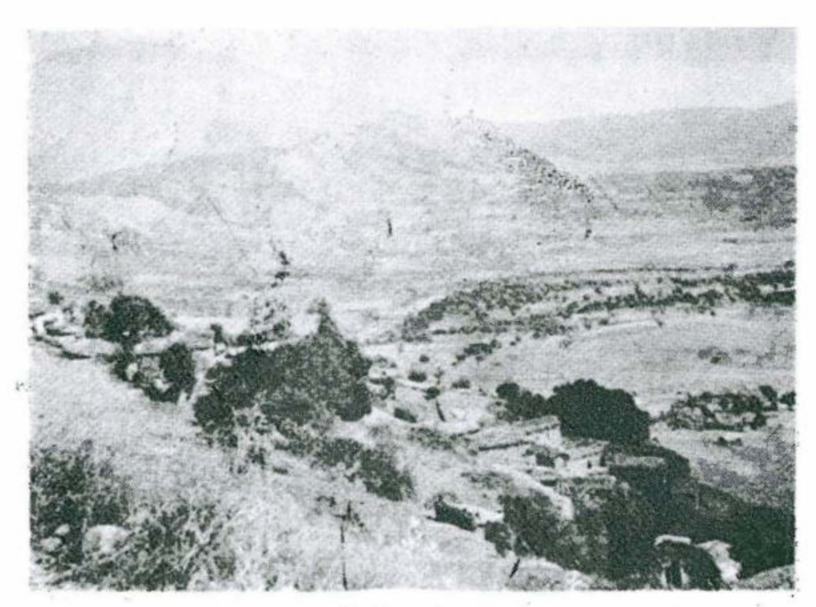
المرة الاولى التي يدخل فيها الفرنسيون منطقة ينادي عبد الكريم بسيطرته عليها ·

ويذكر هاريس أن عبد الكريم ، فيما عدا الاحتجاج على ماوصفه بحنث الوعد ، لم يتخذ أية خطوات فورية لتنفيذ مطالب القبائل التي أرسلت اليه ملتمسة مقاومة التقدم الفرنسي · ويختم هاريس حديثه قائلا :

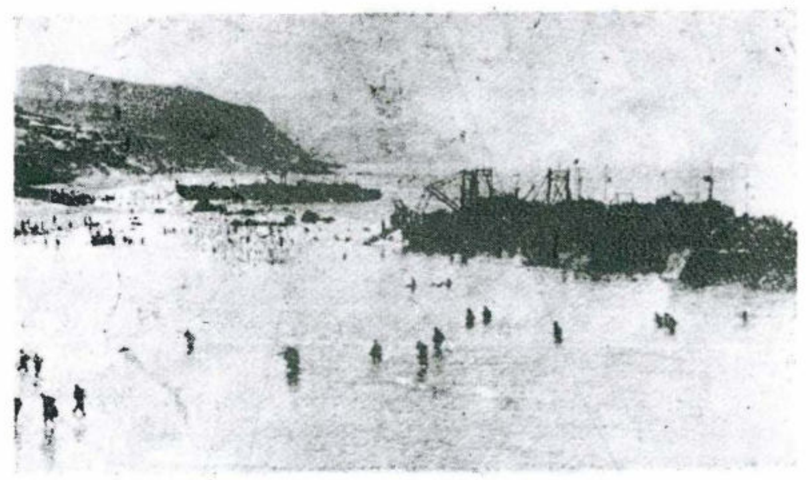
ـ ولا ريب ان هذه الحركة الفرنسية هي التي اشعلت نار الحرب مع أهل الريف ·

وقام هاريس في شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٢٥ بزيارة للخطوط الفرنسية الواقعة شمالي نهر ورغلا بناء على دعوة من الجنرال كولومبا :

كان الوصول الى الجبهة يتم بواسطة طريق مرصوفة بالحصاء يبلغ طولها ستين ميلا ، تمر الى الشمال من فاس تماما ، وتجتاز عين عائشة الى توماط · وكانت عين عائشة المعسكر الرئيسي في وادي ورغلا ، على بعد عدة اميال الى الخلف من خط مواقع الجبهة · وكانت هذه الطريق التي لاتبرح شرذمة من الرجال تعمل في رصفها قيد الانتهاء ويمكن للسيارات العسكرية ان تسلكها · وكانت المنطقة التي تجتازها تعج بالتلال الخصبة والحسنة الزراعة ؛ وكانت القرى تلبس لبوس الرخاء ؛ وكان السكان يبدون سعداء ودودين · وعلى بعد خمسين ميلا من فاس بلغنا نهر ورغلا الذي نصب فوقه جسر عسكري · وكان النهر عريضا ضحلا ، وهو عرضة لفيضانات قوية في الشتاء بحيث لايمكن الخوض فيه في أغلب الاحيان في ذلك الفصل من السنة · وعلى الضفة الشمالية ، هذه الضفة التي احتلها الفرنسيون في الربيع السابق (١٩٢٤) ، تابعنا سيرنا فوق اراض تربتها خصبة سوداء ، زراعتها حسنة وقيمتها الزراعية عظيمة جدا ، الى أن وصلنا الى خط التلال الحادة الارتفاع التي تسير على محاذاة النهر · كانت هذه التلال تنهض من قلب حقول صخرية مزروعة ، بل هي غابات ومنحدرات في بعض ارجائها · وكنا نستطيع أن نرى فوق ذراها المرتفعة مواقع الفرنسيين الامامية · كانت توماط بغيتنا ، وهي الموقع الرئيسي في تلك الناحية ، وترتفع حوالي الفي قدم فوق مستوى البحر ، ويوجد فيها أيضا مكتب للاستعلامات وحامية صغيرة · وكانت الطريق تصعد بشدة حتى تبلغ القلعة · وكان المرء يظن هنالك أن الفرنسيين قدموا ليبقوا ، فقد كانت ملامح القوة والعزم ترتسم على كل شيء نراه · وكانت قمة التلة مسورة



وادي نهر ورغـــلا



الانزال الاسباني في خليج الحسيمة



الجيوش الاسبانية التي حاربت عبد الكريم وهزمها

محصنة انشئت فيها مساكن جيدة للضباط والجنود • وكان المنظر الذي تطل عليه تلك التلة جميلا متسع الارجاء • والى الشمال من ذلك ، عبر وديان صخرية مشجرة ، كانت تنهض كتلة جبل تأرزوت الصخرية العظيمة السامقة سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر • ويهبط من قلب الوديان المترامية تحتها منحدرات مشجرة وصخرية ترتفع من هوى عظيمة عريانة تزدحم ذراها بالثلوج •

وعن يمين توماط ويسارها ، على حفاف التلال ، تقوم مراكز اخرى يمر خلفها قليلا خط الاحتياطي • وكانت طريق طويلة عريضة تربط هذه المراكز بعضها ببعض وتربط بينها وبين توماط • واذا رمينا أبصارنا الى الجنوب فاننا نشاهد البقعة التي قدمنا منها عبر وادي ورغلا والتلال المترامية خلفه ، ومن بعد ذلك الثلوج التي تكلل وادي جبال الاطلس الى الجنوب من تازه •

وروى القائد الفرنسي لهاريس أن الاستعدادات قد انتهت كلها لاشاعة الامن على طول ذلك الخط ، وان أي ريفي لن يتمكن من خرق حرمته •

ويعلن هاريس ، بعد أن يجمل آراءه عن الاوضاع السائدة هنالك ، مسطرا هذه الكلمات بعدما اخذت الاحداث مجراها ، قائلا :

اذا لم يكن عبد الكريم قد باشر حملته ضد الفرنسيين بدون أيـة حماسة ، فهو على الاقل طرف راض ويجب ان يتحمل نصيبه من اللوم • لقد كان يعلن على الدوام انه كان مرغما على الدخول في تلك الحرب • وكان ذلك صحيحا الى درجة ما • فقد كان واقعا تحت تأثير الانطباع بأن تهديد الغزو الفرنسي للريف أمر واقع لامحالة فيه ، فضلا عن ان الضغط الواقع عليه من قبل مطالب قبائل الحدود تصعب مقاومته • ومع ذلك فقد كان يضحي كثيرا ليتجنب تلك الازمة • لقد كان يعلم ان الاشتباك في حرب مع الفرنسيين سوف يعرض للاخطار آماله في الانتصار على الاسبانيين • ان جميع احتمالات النجاح في هذا الاتجاه ستتلاشى نتيجة الدخول في اشتباك مسلح مع عدو جديد وقوي •

ويستمر هاريس قائلا :

ليس ثمة ريب في أن كلا الطرفين ـ الفرنسيين والريفيين ـ كانا يؤمنان بصدق بنوايا العدوان لدى كل منهما ، ولم يكن ذلك من دون سبب على الاطلاق • واتخذ الريفيون في وجه تحفظات الفرنسيين ضد الهجوم خطوات حاسمة لحماية بلادهم من الغزو • ومقابل هذه الخطوات التي أقدم الريفيون عليها عمد الفرنسيون بدورهم ، وقد راودهم القلق ، الى ارسال مزيد من القوات الى الجبهة • وقادت الامدادات الواردة الى الخط الفرنسي الى اتخاذ مزيد من الاجراءات الريفية الطارئة •

ويتابع هاريس كلامه فيقول : « كان ذلك مثالا مذهلا لمنطق الجدل السخيف المغلوط القائل ان وجود وزيادة عدد الجيوش والاستعداد لردع الهجوم يمكن أن يمنع الحــــرب •

ويبدي هاريس رأيه فيما يتعلق بتوزيع اللوم على الطرفين فيقول :

كان الفرنسيون في الجبهة على شيء من التهور • ان تقدمهم كما تقدموا عام ١٩٢٤ يستدعي الهجوم • وكان الريفيون ، الذين كانت خبرتهم الوحيدة بنيات الاوروبيين الطيبة لاتدعو الى التفاؤل كثيرا ، ضحيـــة لشكوكهم وقلقهم ، كما كانوا ضحية لتعنتهم وصلابة رأيهم الى حد ما • لقد حسبوا انهم اقوى من أن تلحق الهزيمة بهم ، كما كانوا عرضة للدعاية العاطفية المؤثرة ، ولمعتقداتهم وايمانهم الخاص ، وللآمال القائلة ان الطموح الوطني لابد ان ينتصر من دون أن تكون لهم فكرة واضحة عن معنى هـذا الطموح • وانني لعلى ثقة تامة أنه حتى نهاية عام ١٩٢٤ كان يمكن الوصول الى اتفاق للسلام بين الطرفين ـ لو ان أولئك الذين كان يعنيهم الامر كانوا راغبين في ذلك ـ لكن أتراهم كانوا راغبين في السلام حقا ؟ وظلت الاستعدادات جارية على قدم وساق في كلا الجانبين ، كما عززت الجبهة الفرنسية في شهر شباط (فبراير) من عام ١٩٢٥ بقوات جديدة •

ويقول هاريس : « ان عبد الكريم كان رجلا لايتورط في أية مغامرة قبل أن يدرس جميع احتمالاتها • وكانت قوة الاحداث قد جعلت من المستحيل عليه الا أن يقـــاوم خطر الغزو الفرنسي • ولكنه لم يكن متحمسا لذلك •

وقد شرح عبد الكريم لاعوانه ومستشاريه الاوضاع المتدهورة في شمالي نهـــر ورغلا • فتناقشوا في الامر طوال ثلاثة أيام • وكان بوجيبار والزرقان ضد اتخاذ ايـة اجراءات ضد الفرنسيين في بادىء الامر ،في حين وافق الآخرون مع عبد الكريم انه ينبغي مد يد العون لافراد قبيلة بني زروال • وأرسل يخبر زعماء هذه القبيلة في شهر كانــون الثاني (يناير) أنه لايزال ثمة أمل في الوصول الى اتفاق ودي مع الفرنسيين • ولـــم يعد في مقدوره أن يتجاهل مساعدة بني زروال لأن الفرنسيين ربحوا منذ مطلع كانــون الثاني (يناير) حليفا قويا في شخص شريف دارقاوي ، وهو مشعوذ ديني قبيـــح السمعة والصيت ، كان مركز شيعته القوي في أمجات من اراضي قبيلة زروال • وقـد أوضح عبد الكريم أن الشريف كان عدوا للريفيين لخشيته من احباطهم لتأثيره وتسلطه على رجال القبائل الذين يبتز منهم مغانم سهلة بممارسته طقوسا هرطوقية وقضائـه في الخلافات والنزاعات العائلية القبلية • وقد انضم هذا الشريف الى الفرنسيين لخوفه من تضعضع قوته وانحسار موارده ومكاسبه •

وخاطب عبد الكريم مجلسه قائلا : ان الفرنسيين اذ يعرفون عداءه للتعصبالديني فلسوف يحاولون اختلاق حادثة تمس الشريف ـ أية حادثة يمكن أن يتخذوها ذريعـة لاندلاع الحرب •

وأمر عبد الكريم قائدا يدعى عمر حميدوبالتوجه الى أمجاتوسؤال شريف دارقاوي أن يستخدم نفوذه لحمل الفرنسيين على التراجع عن منطقة نهر ورغلا •وانطلق حميدو في الثالث عشر من شهر نيسان (ابريل) ١٩٢٥ برفقة خمسمائة جندي نظامي ريفـي لمقابلة الشريف في أمجات • وعندما علم الشريف بقدومهم فر الى الخطوط الفرنسيـــة وأعلن ان الريفيين شنوا هجوما عليه • وكانت تلك هي الذريعة التـــي كان الجيش الفرنسي يبحث عنها ، فبعثوا بقوة من الطائرات لقصف الريفيين وضربهم بالرشاشات، وكانوا في هذه الاثناء قد غادروا القرية ، فقصفتهم الطائرات في أرض ريفية •

وهرب حميدو من بين النيران وأسرع الى تفرسيت حيث كان ثمة خط هاتفييصلها بأجدير ، وقال لعبد الكريم : « ان الفرنسيين يهاجمون الريف » • فأرسل عبد الكريم في تلك الليلة ثلاثة آلاف جندي نظامي ريفيالى الجنوب ، وبعث رسائل الى قـادةالقبائل الجنوبية يعلن فيها :« ان الامدادات في طريقها اليكم » • ودون في مذكراته قائلا : « ان الانباء انتشرت بسرعة انتشار النار في الغابات » •

انفجار فوق ورغة

أخذت غارة الريفيين الفرنسيين على حين غفلة . كان آلاف من رجال القبائل قد بدأوا يهاجمون ويحاصرون ويجتازون المواقع الفرنسية المعلقة كأنها أعشاش طيور اللقلق فوق قمم الصخور الشامخة والتلال المبعثرة ، وذلك بعيد ساعات معدودات من نداء عبد الكريم لحمل السلاح . ولم تمض خمسة أيام حتى سقط قرابة خمسين مركزا من مراكز الفرنسيين الواقعة في منطقة قبائل بني زروال في أيدي رجال هذه القبائل أو حوصرت حصارا شديدا ، ومن ثم عبر هؤلاء الرجال نهر ورغلا . واجتازت قوة كبيرة التلال في طريقها الى الجنوب ، ولم يكن قد بقي بينها وبين فاس اكثر من عشرين ميلا حين بدأت تراجعها ، جاهلة أنه لم يكن يحول بينها وبين العاصمة المراكشية القديمة سوى عدد ضئيل من الجنود . وكان الرعب قد دب في قلوب سكانها ، وتهيأ الفرنسيون للجلاء عنها .

ان الحرب الريفية — الفرنسية التي خضعت لمد وجزر كبيرين فوق جبال وحشية من أيار (مايو) حتى ايلول (سبتمبر) لأبعد من أن يحوطها وصف متماسك واضح . وقد استخدم المؤلفون الفرنسيون الذين حاولوا ايضاحها خليطا من اسماء قبائل وضباط عسكريين ، وأمكنة غامضة أغلبها لم يرد له أي ذكر في أية خارطة على الاطلاق . ان المواقع العسكرية يحاصر ويؤسر افرادها ثم يفك الحصار عنها ، وأرتالا من الجنود الفرنسيين تتدفق ، متقدمة هنا ، متقهقرة هنالك ، في حين تحتشد قوافل من رجال القبائل ، هم جميعا ريفيون في نظر الفرنسيين ، فوق منطقة يبلغ طولها مئتي ميل . وعرضها بين خمسة وعشرين وخمسين ميلا . وتعلن الكتب الفرنسية أن الحرب كانت سجالا في التقلب المستمر ، وسلسلة من المعارك التي نشبت في بلاد كانت قواتها ،

المتباعدة ميلا واحدا نظريا ، يتصل بينها خمسة وعشرون ميلا من الدروب الوعرة . وليس ثمة تقارير ريفية يمكن الاطلاع عليها : كما ان الذين بقوا أحياء بعد تلك المعارك يصعب الاهتداء اليهم لتبعثرهم في طول البلاد وعرضها . أما اولئك الذين عثرت عليهم فلم يهتموا الا بالعالم الصغير الخاص بتجربتهم وحدها .

كان ثمة قلعتان كبيرتان في القطاع المركزي تتمتعان بأهمية استراتيجية ممتازة : توناط وبيبان . وكان يدعم كلا منهما عدة مواقع صغيرة . وقد قمت بجولة في هذه المنطقة وتفقدت الارض التي وقعت فيها المعارك « الاساسية » في أشهر أيار (مايو) وحزيران (يونيو) وتموز (يوليو) ، وأقول « الاساسية » لان بيبان كانت تعني « الباب المؤدي » الى فاس وقد دارت الحرب حول امتلاكها ، لان سهلها المرتفع كان يسيطر على الوادي المؤدي من الشمال والمخاضة التي تجتاز نهر ورغلا الى الجنوب . وسقطت مدينة بيبان واستردت ثم سقطت من جديد عدة مرات . وقد قاد الدفاع عن ذلك المركز رقيب يدعى بيرنز ـ كامبو بعد مقتل الضباط الكبار الى أن استولى الريفيون عليه في هجومهم العاصف يوم الثامن من حزيران (يونيو) ، وحينما استولى الفرنسيون على بيبان من جديد وجدوا جثث المدافعين عنها مشوهة ، وأن قصص الدفاع عن المواقع الصغيرة التي كانت تنتشر حول بيبان لتبين المصاعب التي واجهها عبد الكريم .

وأنقذت حامية عودور التي كان يأمرها الملازم ترانشي بعد حصار دام اثنين وخمسين يوما . وأنقذت مرالا في وقت أوشك فيه الريفيون على نسفها بعد أن حفروا اليها نفقا تحت الارض . وفي عين معتوب قتل رقيب فرنسي واحد يدعى لويس بيرجر مع ثمانية عشر جنديا من السنغاليين . وجرى استرداد مركز باب شرايكا بعد مقتل الملازم مولان متأثرا بالجراح التي أصيب بها نتيجة انفجار احدى القنابل . وحوصرت تاليجسا في السابع عشر من نيسان (ابريل) ، فأمر قائدها النقيب أنجلو بالانسحاب خلال الليل . وأثناء الجلاء عنها أسر الملازم فالليس وأربعة عشر جنديا آخر ، في حين أرغم الملازم الثاني ألبرت وثمانية من الجنود على السباحة عبر النهر الذي ارتفعت مياهه من جراء أمطار الشتاء . ولم يصل الى المعسكر الرئيسي من أصل الحامية التي تعد مائة رجل غير ثمانية رجال فقط .

وفي عولاي قتل ثمانية وثلاثون سنغاليا كما قتل النقيب دوبوان والملازم شاربنييل بعد أن حوصروا وضربوا ضربا شديدا بقنابل المدفعية . وكتب آمر المركز في السابع من

قبل وقوع اي اعتداء • وكتب في مذكراته قائلا : طالما ان عبد الكريم قد استطاب انتصاره السابق فليس بمستبعد أن يهب القبائل ضدنا ؛ ولسوف تكون حركته هذه حركة نابوليونية رائعة » • وفي الثامن من نيسان (ابريل) جاءه تحذير من طفران ، القاعدة الفرنسية القائمة الى الجنوب منه مباشرة ، بأن يكون يقظا باستمرار • وفي الثالث عشر من الشهر ذاته تناهت اليه من أمجات أصداء طلقات نارية ،وشاهدالطائرات الفرنسية تطير فوق مركزه في ذلك الاتجاه • وفي اليوم التالي اخبرته امرأة قروية عجوز « ان الينبوع نضب ماؤه » • فعرف ان الحصار بدأ فعلا •

وقبل الاستشهاد بمذكرات لابايير لابد من التعريف بعدد من الافراد الذين أورد ذكرهم • كان النقيب بيتري آمرا للمجموعة الملحقة حاميته بها ؛ وكان الرقيب بيرنز ـ كامبو بطل بيبان ، وكان غالرانج ، قائد طائرة الاستطلاع ، صديقا قديما له ، كما كان ليكيم الرقيب الاوروبي الوحيد في حاميته • ويقول لابايير ان سكان القريةالمجاورة، بني دركول ، قد انضموا في نفور الى الهجوم على المركز • وكان يلقب اعداءه على الغالب باسم « القراصنة » أو « الاوغاد » •

١٥ نيسان (ابريل)

نحن على أهبة لها الآن • هذا الصباح جاء احد اصدقائي من القرية الى حدود الشريط الشائك وأعطاني الاشارة المتفق عليها ، ألا وهي أن يضع يده على قلبه ثم على شفتيه • ولم أكد اختفي خلف البوابة الرئيسية حتى كان ثمة دوي صاخب لعدة طلقات جعلت الحجارة تتطاير حوالي • ووثبت متراجعا الى الخلف لأهوي على الخفير الذي هرول لدى سماعه الطلقات وقد ثبت حربته في قمة بندقيته • وكاد ذلك الاحمق أن يطعنني بها •

ومن ثم فتح الجميع النار • أوقفت اطلاق النار في اسرع وقت ممكن، بعد أن رفست بقدمي عددا من افراد المدفعين الرشاشين لأبعدهم عنهما • كانت الضجة قد أثارتهم فعمدوا الى اطلاق النار بأقصى ما يستطيعون من حمية •

واني لأعد نفسي محظوظا بعد تلك المغامرة لنجاتي من هذا الكمين الكئيب• لو أن اولئك العرب الاوغاد تريثوا قليلا ولم يطلقوا النار اعتباطا لكنت الآن

أشبه بالمصفاة • لاتمنى الآن لو انني أطبق بيدي على ذلك اليهوذا الذي جاء ينادبني • ولما كنت أحسب أن الهاتف مقطوع ، فقد أبرقت بالخبر بواسطة التلغراف الشمسي الى المركز المجاور في عين كبير • كانوا قد سمعوا صدى الطلقات النارية وحاولوا الاتصال بي هاتفيا دون جدوى •

كان ذلك النهار سيئا بالنسبة الينا • تظل الامور حسنة طالما أن المؤخرة صامدة ، أما اذا اشتركت بقية القبائل في الهجوم •• بررر ! وعلى أية حال ، فلعل تلك مجرد لحظة من لحظات الضعف •

١٦ نيسان (ابريل)

أطلقت بعض العيارات النارية في المركز الليلة الماضية ، ولكن من مسافة بعيدة • لقد فكرت مليا في حادث الليلة الماضية : مما لاريب فيه أن الهجوم كان منظما من قبل ، وكان لابد لأهل القرية أن يدافعوا عن أنفسهم فترة من الزمن ثم كان لابد للريفيين أن يتغلبوا عليهم ويستغلوا بعض الحجج الصالحة لاقناعهم • وكان لابد للآخرين ، أصدقائي ، أن يبادروا الى القول خلاصا من المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه : « أنحن مع الفرنسيين ؟ •• تعالوا وانظروا »• وجاءوا ولعبوا لعبتهم الصغيرة • ان رجالي قلقون من جراء هذه الخيانة • وقد أمرتهم بالاقتصاد في الذخيرة في المرة القادمة •

١٧ نيسان (ابريل)

تلقيت أمرا مرئيا (بواسطة التلغراف الشمسي) بقصف جميع مضارب الخيام والقرى فيما اذا أظهرت عملا من اعمال العداء • وقد قطعت عين كبير من الخلف • وهرب قائد بني زرقول • ها ! ها ! ان الامور لتسير سيرها الحسن •• سيرها الممتاز حقا •

ان السماء ، وهي فارغة عادة ، قد أصبحت كثيفة السكان • ان الطائرات لاتبرح تمر فوقنا ومن ثم تختفي في المنتأى البعيد في اتجاه أهداف لانستطيع الى رؤيتها سبيلا • وبعد وقت طويل يتناهى الى أسماعنا صدى القنابل التي تساقطها وهي تنفجر على الارض • وأن بعض هذه الطائرات

تحلق محومه فوق مركزنا في طريق عودتها . وقد سمعت بعض الطلقات النارية تطلق عليها أثناء ذلك . وهذه العشية حومت احدى الطائرات فوق المركز وألقت رسالة هوت علينا بسبب ثقل الرمل الذي ربط اليها وتبعتها راية كبيرة بيضاء .

تلك كانت كلمة بعث بها غالرانج القائم بأعمال الرصد مع الاسطول الجوي الذي يعمل في المنطقة . ا نالاوضاع لأردأ مما تصورت ، اذ يبدو ان خط مراكزنا بأكمله عرضة للهجوم بل قد دفع به الى الشرق منا . ولقد تمنى لي الشجاعة وطلب الي ارسال طلباتي بواسطة التلغراف الشمسي . ما أنفع ان يكون لك حارس الهي !

٢٠ نيسان (ابريل)

خمسمائة ليتر من المياه مقسومة على عشرين تساوي خمسة وعشرين ليترا لكل فرد . هذا يعني ليتر للفرد الواحد منا في اليوم طالما ان الاوامر الصادرة في المركز تقتضي منا المقاومة طوال شهر كامل . واني لااجرؤ على أن اتمنى أن تمطرنا السماء خوفا على الجدران ، غير ان الظمأ قتال والقلق يساورني . وليس ثمة لدي ما احفظ الماء فيه . وينبغي علي ان اثق باخلاص الخفير وصدقه لانني لا استطيع مراقبة مستوى المياه بعد كل جرايـــة . يا للاغراء المريع ، وخاصة بالنسبة الى السنغاليين الذين يظمأون بشدة . ولقد حذرت الجميع ان أول رجل يجرؤ على لمس خزان المياه في غير أوقات التوزيع سوف انثر دماغه من رأسه في الحال ، ورحت أنام الى جانـــب البراميل . وان الاغراء لعنيف حتى بالنسبة الي .

توالى اطلاق العيارات النارية النهار بطوله . وقد جرح احدالفرنسيين هذا الصباح برصاصة اخترقت لحم ساعده . وقد احتمل هذا المصاب ، وهو صاحب الشخصية الضعيفة عادة ، كما احتمل معالجتي الطبيةالبدائية وتطهيري لجرحه بواسطة صبغة اليود بكل شجاعة .

٢١ نيسان (ابريل)

لا بد وأن تكون توناط قد تعرضت للهجـوم ليـلة البارحة . فقد

سمعنا عددا من الطلقات النارية ورأينا عددا من التأججات واللمعانات . تلقينا حزمة من الرسائل ، واللفائف ، والصحف بطريق الجو . ولما ضلت طريقها،فقد اضطرت الطائرات للعودة وامطارنا بالرزم بغزارةفي كلتا المرتين.

٢٤ نيسان (ابريل)

قام صخب عظيم في اتجاه بيبان الليلة المنصرمة . تلقيت رسالـــة بصرية من القيادة : ان الامدادات قد جهزت ، ولسوف تنقذني الكتيبـــة الجوالة خلال مهلة اسبوع واحد ، ولكنه ينبغي اولا اغاثة بيبان التي هي عرضة لخطر جسيم . وقد جرح الرقيب بيرنز .

٢٥ نيسان (ابريل)

حاول بعض « القراصنة » ليلة البارحة الاغارة علينا غير أن المدفعين الرشاشين والقنابل اليدوية قد أخمدت ثورتهم كما جففت نداء « الله اكبر» في حلوقهم . لاريبة اننا انزلنا بهم بعض الخسائر ، لان النساء شرعـــن بالنواح واستمر اطلاق النار حتى انبلاج الصباح . وقد اصيب احد جنود المدفعين الرشاشين برصاصة في معدته من خلال ثغرة مدفعه الرشاش في الجدار . وقد ظل يعاني سكرات الموت مدة ساعة كاملة ، ولا ريب انـــه عانى عذابا مريرا .

٢٧ نيسان (ابريل)

دفن نفيهاما في احدى زوايا المركز بعد أن شيعنا جثمانه تشييعـــا عسكريا . طلبت مخزن خرطوش جديد وحافظة بواسطة التلغراف الشمسي لان أحد المدفعين الرشاشين قد توقف عن العمل . اننا لا نحصل سعيا وراء استمرار حربنا الاستعمارية الا على معدات قديمة في الاغلب ، وهؤلاء نحـن الآن ندفع ثمن ذلك ، ومما يؤسف له أن اولئك الذين تفترض مسؤوليتهم عن مثل هذه الحوادث لايدفعون ثمنا مطلقا .

٣٠ نيسان (ابريل)

تلقيت الاشياء التي طلبتها هذا الصباح من طائرة قدمت في بكـــور

الصباح لبلبلة خفراء الليل ، فان اعداءنا يحبون الاستسلام للنوم في بكور الصباح ، وهذا أفضل ، وتلك هي حالنا أيضا • وان الصحف لتعلن أن الخط قد انهار في الوسط • ما الذي تراه يؤخرهم عن ارسال تلك الامدادات الشائنة التي اطلقوا عليها حرف « م » (المفرزة المراكشية) ، هذه التـي ظللنا نسمع بقرب موعد ارسالها منذ خمس سنوات ؟•

٢ أيار (مايو)

ينبغي علي أن أطلق نيران مدفعي على أي هدف معين • ولقـد اكتشفت شجرة زيتون كبيرة تبعد حوالي تسعمائة ياردة عن المركز كنت ارى قربها نارا تشتعل كل ليلة • وقد صوبت مدفعي الى ذلك الهدف عند الغسق ، وعند الساعة العاشرة اطلقت ثلاث طلقات دفعة واحدة • وسمعنا صيحات وصراخا ، وقد أصلونا طوال الليل نيران ثأرهم • وأصيب اثنان من خفـر الليل، فقتل فرنسي على الفور ، وسحج رأس احد العرفاء نتيجة اصابتـه باحدى الطلقات النارية • وقد افتر ثغره مبتسما في وجهي وانا اضمـد جروحه وأطلعني على التعويذة التي يحملها •

٣ أيار (مايو)

لقد دفنت صديقي الاوروبي المسكين هذا الصباح • ان الحزن يرتسم على وجوه الجميع ، والتعب يسيطر علينا • ان الانهاك يستولي علينا نتيجة حرماننا من النوم • ان توزيع مهمات الحراسة على أربعة جنود عمليـة شاقة ، وهم مرغمون ايضا بين فترات الحراسة على دفن الذخيرة ، وترميم الثغرات ، وتعمير المدافع • وان ليكيم ، على الرغم من تقدمـه في العمر ، جندي رائع ولا يني عن الحركة الدائبة •

٤ أيار (مايو)

كان ثمة قصف هائل من الجو في اتجاه بيبان هذا الصباح • وقـد شاهدت كتيبة قادمة من عين كبير تحاول الوصول اليها • لاريب انها تقدمت في مواجهة مقاومة شديدة على جانبي الجبل لانها ارتدت على أعقابها ، وقد

شاهدت بمنظاري المكبر تلك الاكياس الكبيرة المصنوعة من الخيش التي يضعون فيها جثث القتلى ·

بعد ظهر ذلك اليوم أرسل لابايير رسالة بالتلغراف الشمسي تقول: « لاتخافوا ، فلن يأخذنا الريفيون أحياء قط » · وأعلن أن « المعنويات ممتازة » ·

٨ أيار (مايو)

مطر خفيف · وقد استطعت أن أجمع قليلا من الماء ·

١٣ أيار (مايو)

عاد الرتل الى الهجوم على بيبان مرة اخرى بعد أن مهد لهذا الهجوم بقصف عنيف بالمدفعية ، وفك الحصار عنها · ولكنني استشعر أن الاوضاع لازالت على ماهي عليه ولن تتغير البتة اذ لاح لي أن حرس المؤخرة سينفصل عاجلا هذه العشية ·

لقد اكدت لي برقية وردتني في ساعة متأخرة في العشية هذا الشعور · يبدو انهم عززوا الموقع ولكنه لايزال محاصرا · ان النقيب (بيتري) يلاحقنا بالعناية والاهتمام ، ولكنه يعتصم بالهدوء ازاء امور كثيرة أود معرفتها ، ألا وهي مدى خطورة الازمة وعدد خسائرنا · لقد أنبأني ان اثنين من رفاقنا هما شاربنييل وبورغيريت قد لاقيا حتفهما وكانا في الحصون ايضا · اننا نقبع في انتظار النجدات الفرنسية للقيام بهجوم مضاد · ذلك قاس على أية حال ·· وهذا شهر كامل قد انتهى ·

١٦ أيار (مايو)

يوم هادىء ولكنه شديد الحرارة · جاءني الفرنسي الذي جرح منذ أيام وسألني جرعة من الماء · ولما كنت قد وعدت نفسي بالمحافظة بشدة على قاعدة توزيع ليتر واحد من الماء في اليوم ، فقد اعطيته ربع نصيبي · ولما شاهد وصيفي سوغومالي مافعلت ثار وارغمني على قبول ثمن حصته من الماء · وقد قبلت ذلك · اننا ، جميعا ، نعيش اوقاتا عصيبة ههنا ·

١٧أيار (مايو)

أنذرتني رسالة تلغرافية هذا الصباح بأن الرتل قـــادم لاغاثتي • ما أجمل أن يتردد في المركز صدى القنابل وهي تنفجر فوق المنحدرات ! وخيم الهدوء حوالي الساعة الواحدة ، ثم لم يعد ثمة شيء على الاطـلاق • واعلموني في العشية ان الرتل الذي انهكته هجمات متتالية سابقة قـــد اصطدم بخنادق دفاعية مجهزة تجهيزا ممتازا ،فاضطر الى العودة الى القاعدة بعد أن تكبد خسائر فادحة ، وهكذا ينبغي علينا الآن أن تصمد لوحدنا •

١٨ أيار (مايو)

قامت بني دركول بهجوم وحشي ليلة البارحة في محاولة للاخـــذ بالثأر وتجديد النشاط ، فتلقينا عددا من القنابل اليدوية ، بدل قنابـــل المدفعية ، الامر الذي أنزل بي بعض الخسائر الفادحة : ثلاثة قتلى وجريح واحد • لقد طوحوا بأنفسهم هذه المرة على الاسلاك الشائكة ونجحوا في أحد الامكنة باجتيازه بعد أن ألقوا عليه حزما ضخمة من نخيل الرافيــا • ولكننا صددنا هجومهم • وقد خلف العدو ثلاث جثث فيما بين الاسلاك الشائكة والجدار ، وجثتين قرب الكمين وأخريين أبعد من ذلك قليلا • ولا ريب ان ثمة جثثا اخرى حملها الاعداء معهم • ان جنودي يخيم عليهم هدوء ملحوظ• ذلك فشل بالنسبة الى الريفيين ، لكنه لم يبق منا غير خمسة عشر رجلا ، ثلاثة منهم جرحى • وكان في عداد القتلى نامادو سيديب ، العريف الـــذي جرح قبل أيام ، وأبنه لي رفيق ، فقـــال : « ان نجريفري (تعويذته) لم تكن صالحة بما فيه الكفاية » •

ان الحصار ليضيق خناقه علينا • وانني لاسمع « الاوغاد » يتابعون اعمالهم حول المركز على بعد لايتجاوز حدود مرمى قذيفة يدوية • ولكنهـم لايرهبون شيئا طالما انهم يختبئون في جحورهم • ومن جهة اخرى ، فـــان بعض القناصة يقبعون علىأهبة الاستعداد لاطلاق رشة من القذائف علينـــا حالما نرفع رؤوسنا فوق الجدار •

انني منهك حقا ، أنا الذي أشتاق الى مشاهدة القتال • ان الاعيـــاء يهدني ، وأنا أعمل فوق طاقتي ، ولن يكون لفرحي حدود حتى أرى النجدة قادمة • وتلقيت رسالة شمسية تقول : « وصلت التعزيزات ، ولســـوف

نغيثكم في غضـون خمسة أيام » ، أجل ، ولكنني حسبت أنـه رغما عن خسائرنا ، اما نتيجة للتبخر او للسرقة ، فانه لم يتبق لدي من المياه اكثر مما يكفي ليومين فقط • اخرجت رايتي لابعث به رسالة تترجم واقعـي وأسأل ما اذا كان في المستطاع أن تلقي الي الطائرات بقطع من الجليد • لا أستطيع أن أرى أية نجدات في عين كبير على الاطلاق بواسطة منظـاري المكبـــر •

ثمة امران يشغلان بالي ، الماء والمدفع • فاذا استخدم قطاع الطرق هؤلاء المدفعية ضدنا ، فان جلودنا لن تساوي مثقال ذرة ••• وهي لاتساوي مثقال ذرة الآن •

١٩ أيار (مايو)

حلقت تشكيلة من الطائرات فوق مركزنا عند الفجر وألقت الينـــا بعض قضبان الجليد • وقد أصابت الهدف ثلاث من أصل خمس طائرات• وضاع لوحان من الجليد في الصحراء • وقد ربطت حزمة من الصحف الى أحد الاكياس مع هذه الرسالة : « الى اصدقائنا المرابطـين هنالك مـــن ميكانيكيي التشكيلة الرابعة • تشجعوا ! فنحن نفكر فيكم !» وحدث شيء مريع في هذه اللحظة • فبينما انا انادي الاوروبيين لاعطيهما بعض الصحـف اضطر الرقيب ليكيم ، وهو يثب فوق صناديق الذخيرة المكدسة ، أن يظهر نفسه (فوق الجدار) فأصابته رصاصة في صدره وحطمت كتفه • فتدهور قابضا على يدي ومعطفه نديان دما • كان صراخه يبعث على الرعب ••• أشبه بصراخ الحيوانات • وسمعه الريفيون فجنوا من الفرح • لقد نبههم ضجيج الطائرات فخرجوا يهيئون للقيام بعمل دنيء •

٢٠ أيار (مايو)

نقل الريفيون خلال الليل قتلاهم ، حتى أولئك الذين كانوا عنـــد الاسلاك الشائكة ، في حين كنت قد دفنت رجالنا الثلاثة عند اسفل الجدران• واني لسعيد لنقلهم هذه الجثث لان بقاءها يبعث على الانزعاج ، الا ان الخفير لم يسمع أية حركة ، وهذا شيء خطير • الحالة المعنوية رائعة ، غير ان

الرماة يهدهم الضنى هدأ • لقد استطال الحصار ثمانية وثلاثين يوما ولم يبق من رجالنا غير اربعة عشر جنديا •

صدمتني وفاة ليكيم بقسوة ، فقد كانت شجاعته واخلاصه يبعثان على الاعجاب حقا ، وكانت ظروف وفاته وحشية : كانت الحمى قد نهشته بأنيابها فبقيت الى جانبه طوال النهار • كان يهذي هذيانا متواصلا ،فيرجوني في أشد لحظاته صفاء ألا أسمح للريفيين بالوصول اليه وهو على قيد الحياة • ولفظ أنفاسه في الليل ، وقد اطبقت اصابعه على معصمي • وقد بذلت جهدا للتخلص من قبضته •

٢٣ أيار (مايو)

نحن منهكون ، وأعصابي على شفا الانهيار • ظللت اسمع صوت المدفع طوال الليل ، والانفجارات في بيبان • ياللمسكين بيرنز !

هبت عاصفة قوية هذا النهار ، فوفرت لي مايكفي من الماء حتى السادس من حزيران • والرتل لم يأت •

٢٤ أيار (مايو)

العلم لايبرح خفاقا فوق بيبان • فالى متى سيتركوننا ههنا لوحدنا ؟

٢٥ أيار (مايو)

رجع الرتل المعزز ادراجه الى بيبان هذا الصباح • محكوم على اولئك الفتيان المساكين بالموت ان هم تركوا هناك في حين أن ذلك المدفع اللعين لاينني يصليهم نيران قذائفه • وفضلا عن ذلك فقد أوقف الرتل في اسفل المنحدر حتى الساعة الثالثة من بعد الظهر ، وهذا يثبت أن المقاومة غدت اكثر تنظيما • وتناهى الي هذه الامسية أنهم عززوا بيبان فحسب • انه مقضي عليهم • فماذا تراهم ينتظرون في فرنسا قبل ان يمدوا الينا يد المساعدة !

٣٠ أيار (مايو)

لاحظت أقسى آيات الانهاك على أكثر رجالي • ان اللحوم المعلبة والبسكوت لم تعد تكفينا • ان نهايتنا محققة حتى السادس من الشهر المقبل ان لم يصل الينا أحد • وتؤكد لي البرقيات الشمسية أن انقاذنا سيتم

قبل هذا التاريخ ، ولكنني لا استطيع الا أن آمل فيذلك •ومنحسن الحظ اننا صددنا الريفيين بقسوة في هجومهم الاخير ، فهم لايأتون أية حركة الا في الندرى ، وأغلبالظن أنهم يعتقدون أن في مقدورهم القضاء علي بسبب من الظمأ ودون أن يتكبدوا اية خسائر اخرى ••• ومهما يكن من امر ، فلن نبيع أنفسنا الا بأبهظ الاثمان •

ان فؤادي ليكره الاعمال التي أقدم عليها • وانا مرغم نفسي على الكتابة •

نظمت اليوم أنشودة كتعبير عن الارادة القوية • ما أرهب أن أفكر في أن أحدا من اقربائي لم يتلق مني أية انباء منذالثاني عشر من نيسان (ابريل) •

حصلنا على مئة وثلاثين ليترا من المياه : وهذا يكفينا حتى الخامس عشر من الشهر (اذا ظللنا ههنا أحياء لشرب هذا الماء) ، ولكن هذا افضل وقد أفادنا خروجنا استجلابا للماء كثيرا • وكنا في سبيلنا الى الماء للمرة الثالثة حينما شعروا بتحركاتنا ، فقبعوا في انتظارنا واطلقوا علينا رشة من نيران بنادقهم • وكنت قد اصدرت أمري الى الجنود بأن يدافع كل منهم عن نفسه في حال مباغتة العدو لنا ، والعودة بأقصى سرعة ممكنة الى القلعة فيما اذا حاولوا الانطلاق خلفنا • وقد قتلت احد الاعداء بطلقة من رصاص مسدسي • وعددنا أنفسنا : لقد فقدنا ثلاثة رجال من أصل ثمانية ،تراهم استشهدوا على أرض المعركة أو أسروا ، هذا أمر لن نتمكن من معرفته • وبقي منا أحد عشر رجلا • ان كل جندي الآن يقف خفيرا في القلعة بصورة دائمة • ورحنا ننام تحت الجدران ، ويستطيع واحد من كل اثنين أن يغفو قليلا • الظمأ قتال رهيب • أتراهم يفكرون فينا في فرنسا ؟ لقد غدونا بلا أصوات • ان •••

٣ حزيران (يونيو)

أصبت الهدف بالمدفع وبذلك سيطرت على الريفيين • فمن حسن الحظ اني استطيع ان أفتح ممرا الى ثغرة الماء بواسطة نيران المدفع •وطلبت من قائد المنطقة ببرقية شمسية (كان لابد لي أن أفعل ذلك بنفسي لانه

لم يبق غيري وغير لاردين ، الاوروبي الاخير ، اللذين نجيد ذلك ، وهو لايستطيع النهوض على قدميه) أن يصب نيرانه فيما يحيط بثغرة المياه ٠ وخرجت من مكمني بدون ضوضاء ، وانطلقت برفقة ثمانية من رجالي في اتجاه ثغرة المياه تلك الليلة ٠ وتشتتت فلول الريفيين وهم لايفهمون معنى لهذه النيران المتساقطة حوالي الموقع ، ولربما حسبوا انها تنهال علينا نتيجة خطأ غير مقصود ٠ ومن جهة اخرى فلم يكن يبقى عدد كبير منهم قرب الموقع ليلا ٠ فقمنا برحلتين اولاهما الساعة الحادية عشرة ليلا والثانية الساعة الثالثة صباحا حاملين معنا جميع العلب والدلاء التي نملكها ٠ كسرت عدسة جهاز البرق البصري الليلة بعد اصابته برصاصة اثناء ارسالي تقريري الليلي ٠ كان قصف بيبان بالقنابل ثقيلا هذه الليلة ٠

٤ حزيران (يونيو)

سقطت بيبان بيد الريفيين بعد هجوم كاسح عليها ٠ ههنا ، على بعد خمسين ياردة من مركزنا ، عند بكور الفجر ، استطعنا أن نرى جثث رفاقنا الثلاثة الذين اختفوا البارحة ، وقد قيدت الى أعمدة نصبت في الليل ٠ لقد ربطوا الى هذه الاعمدة ورؤوسهم الى الاسفل وقد بترت اجسادهم ٠ وكان ثمة وميض من النيران لايبرح يتلألأ عند اسفل احد الاعمدة ٠ فأثار سخطنا هذا المشهد التعذيبي ، واستشاط احد رجالي ، ويدعى مويوتا ، غضبا وثورة ، فوثب الى مدفعه الرشاش شاتما الريفيين ٠ وقبض عليه اثنان من رفاقه وارغماه على الهدوء ، ولم يصب احد منا لحسن الحظ ٠ وما أن شاهد الريفيون هؤلاء الثلاثة يتهاوون على الارض حتى حسبوا ان نيرانهم اصابت منهم مقتلا ، فأرسلوا الينا موجة من الشتائم أغلبها باللغة الفرنسية ٠ ومن المؤكد اني تبينت بين تلك الاصوات كلمات المانية لاريب أن صاحبها من الآبقين من الفرقة الاجنبية ٠ لقد سرد علينا واقعة سقوط بيبان ومن ثم سأل عن عدد الاوروبيين الباقين في المركز ٠ فرد عليه لاردين زاعقا بلكنته الخشنة :« مايكفي منا لنقضي عليكم جميعا بالرصاص ! »

٧ حزيران (يونيو)

يمر اليوم على حصارنا خمسة وخمسون يوما ٠ وليس ثمة اية اتصالات ، اللهم سوى تلك التي نتبادلها مع الطائرات بواسطة الاعلام ٠

وقد تعطل مدفعاي الرشاشان عن العمل • ولم يبق لدينا غير احدى عشرة بندقية للدفاع عن أنفسنا • ولو أن الريفيين يملكون شيئا من الحس والادراك لاستطاعوا الوصول الينا خلال ساعة واحدة من الزمن •

مما لاريبة فيه اننا نبعث في قلوبهم رهبة هائلة • يا الهي ! ماذاتراهم ينتظرون ؟ أترى تسمح فرنسا بابتلاع مراكش كلها دونما شيء من الدفاع؟ أتراها تضحي بنا سعيدة مغتبطة ؟ لم أعد اجرؤ على النظر في وجوه رفاقي لانني طالما وعدتهم بوصول النجدات لانقاذنا • انهم يبعثون على الاعجاب جميعا : لقد جاءني ثلاثة منهم اليوم وسألوني ما اذا كانوا يستطيعون الانطلاق لتحطيم تلك المشانق التي كان رفاقهم يتيبسون عليها أمام أبصارنا • ولقد حظرت عليهم ذلك رسميا ، فلا بد أن في الامر مصيدة لنا •

٨ حزيران (يونيو) •

كتبت الى النقيب رسالة تقرأ بعد موتي •

كانت بيبان قد سقطت بيد الريفيين ذلك اليوم ، وقتل المدافعون عنها جميعا • وكانت المواقع الاخرى في الوادي قد تم الاستيلاء عليها أو هجرها أفرادها ولم يصمد غير بني دركول • وتحشد العدو حول بني دركول بعدما اصبحت يداه طليقتين بفعل سقوط المواقع الاخرى • وحملت احدى الطائرات معلومات الى طفران مفادها ان قرابة الفمن رجال القبائل يحاصرون ذلك الموقع ، وقد احدثت ثغرة في الجدار وبدا ان العدو شرع يزحف منها الى قلب القلعة •

٩ حزيران (يونيو)

سأرسل هذه البرقية بواسطة الراية : « من قائد حصن دركول الى قائد المجموعة المتحركة ـ تحافظ الحامية على معنويات ممتازة ، ولكنهم منهكون اعياء • لم يبق منا غير احد عشر جنديا • ذخيرتنا احدى عشرة بندقية ومائة وعشرون قنبلة يدوية وعشرون ألف خرطوشة ، ومدفع واحد مزود بسبعمائة طلقة • ان حلقة الريفيين تزداد ضيقا حولنا ، وهم يحفرون خنادق جديدة • اني لاخشى وقوع قتال بالسلاح الابيض ، كما اخشى اكثر من ذلك ان تضربنا مدفعيتهم بقذائفها • سوف تكفينا المياه حتى

الرابع عشر من الشهر بالضبط • انه من الضروري بصـــورة مطلقة أن تنقذونا قبل الثالث عشر من الشهر على أبعد تقدير • المعنويات لاتـــزال ممتازة • ألا فلنقم بواجبنا على الوجه الاكمل » •

كانت طائرة الصباح الاستطلاعية تنقض من بعيد ، وقد تلقيت كلمة من غالرانج يعتذر فيها بنفسه عن عدم قدرته على الاصغاء الي لانه منهـك في انهاء مهمة اخرى في قطاع آخر • كان ذلك بمثابة اخذ علم ، والكثيرون من رفاقه قد قتلوا • وكانوا مثالا للبطولة المتألقة ـ وقد جرح مرشح طيار خلال عمليات القاء الجليد علينا قبل أيام • ولسوف تصلنا بعض النجدات من فرنسا : أجل ، هذا حسن • وينهي كلمته قائلا : « اني لادعو الله أن يتيح لنا ان نلتقي مرة ثانية »•

وما أن شاهد علمي حتى ألقى بخطاف حديدي وعمل جاهـدا عـــلى التقاط رسالتي رغم سيل الرصاص المنهمر على طائرته ، الا أن البقعـــة التي نصبت عليها العلم لم تكن سامقة ، ولم أكن لاستطيع نصبه عـــلى السقف خشية من الموت الرابض حوالي • وجاءت الطائرة سبع مرات ، ولكن الخطاف أصاب الجدار وطفر فوق الحلقة المخصصة لـه أما بسبب ميل الطائرة أو بسبب من علوها أو هبوطها اكثر من اللازم • وكان القلق يتأكلنا : يا للنصر الرائع الذي سيحرزه الاعداء ان هم استطاعوا اصابته واسقاطه ! وفي المرة السابعة التقطت الرسالة بعد أن نجح الخطاف في دخول الحلقة المعدة له •

١٠ حزيران (يونيو)

قدمت احدى الطائرات لالقاء بعض قطع الجليد علينا هذا الصباح ، فلم يصلنا منها غير قطع ثلاث فقط • وتخلفت طائرته عن بقية الطائـرات وقصفت بقنابلها ورصاص مدافعها الرشاشة المناطق المحيطة بالحصـن ، ثم اغتنمت فرصة الهدوء في اطلاق النار وقذفتنا بأحد الطرود • كان ثمـة في الطرد خمسةعشر « صليب حرب » من سعف النخيل ، ومدالية عسكرية ورسالة تنبئني أنني مرشح لنيل « الصليب » • وقد وزعت هذه الاوسمة على رجالي ووضعت ماتبقى منها على أضرحة القتلى • وغرقتفي بحران مـن

التفكير بعيد ورود هذه الاوسمة في مثل هذا الوقت ، ودون ان يردني أي نبأ عن موعد انقاذنا • وقد اصيب احد الحراس في فخذه هذا الصباح من خلال احدى الثغرات •

١١ حزيران (يونيو)

رحت أفكر خلال فترة حراستي ، اذا كان يمكن ان نطلق على يقظتي المستمرة اسم حراسة : لم يبق لدي غير رام واحد ، هو اسحق ديللو ،وهو مضنى الى أبعد حدود الضنى • وقد أخذت سنة من النوم خلال النهـار بين نوبتي هدوء •

أخشى أن نكون في طريقنا الى حتفنا • ان فرنسا تخسر بعضجنودها الشجعان هنا • وهذا الصباح رآني طاهينا القديم (لم يعد ثمة مطهى لدينا منذ زمن بعيد) غارقا في بحران التأملات ، فتطلع في عيني مباشرة وقـال بنبرة رطينة : « لانستطيع الا ان نخدم جيدا فقط » • فهززت يده • لكن تأملاتي اوصلتني الى مايلي : اذا كان لم يكن ثمة من يأتي لانقاذنا ، فلا بد أن نهيىء أنفسنا لكل الاحتمالات • فليس ثمة أي مجال للنجاة من هـذا الطوق ، ونحن متعبون ، وفضلا عن ذلك فليس في نيتي أن أترك الجندي الذي جرح هذا الصباح على قيد الحياة ههنا •

هنالك مايقرب من ثلاثمائة ريفي يطوقوننا • ولم يبق أمامنا غير حل وحيد : ولسوف اعمل على تهيئته • ان ذخيرتي من قذائف المدفعية لـم تنفذ كلها ، فأنا لم أكن استعمل المدفع الا نادرا ، كما انني أملك بعـض المتفجرات التي تصلح كألغام للطرق • ولقد شعرت بمزيد من القوة بعـد أن قررت خطة العمل •

١٢ حزيران (يونيو)

تلقيت رسالة بواسطة الجو : « اصمدوا حتى السادس عشر مـن الشهر • ان العمليات الجارية لاتسمح باغاثتكم قبل هذا التاريـخ • ان الجيش والبلاد يتتبعان انباء مقاومتكم بقلق واعجاب • أنت مفوض ، اذا كنت تحكم بامكانية ذلك ، ان تخلي مركزك وتنسحب الى عين كبير بعـد أن تدمر مدفعك ومعدات دفاعك » • وفكرت في نفسي قائلا : « ليس فـي

استطاعتي أن أحقق غير الفقرة الاخيرة من هذا البرنامج ، ألا وهي تدمير معدات الدفاع » ٠

هيأت اللغم هذا الصباح ، بمساعدة الاوروبي الوحيد الذي بقي من رجالي ٠ ان الانفجار سيقع بعد خمس ثوان من اشعال الفتيل ٠ وضمانا ضد أي طارىء ، فقد هيأت ثلاثة أسلاك فتيل ووضعتها في أنحاء متفرقة من المركز بحيث يكون أحدها في متناول يدي في أية لحظة ٠ لسوف أنتظر حتى يصبحوا داخل المركز ، وسوف ألعب بنفسي آخر حيلة معهم ٠

كنت أحب أن أقوم بهذه التجهيزات كلها بشكل سري ، ولكن الجميع فهموا حقيقة الامر ٠ أما الجندي الذي جرح البارحة فيعتقد أننا نتهيأ للرحيل عن المركز ، ولذلك أخبرت الجميع أننا سنبقى صامدين ٠ أما اسحق ، وكان داهية مثلي ، فقد خلع على وجهه ملامح الشجاعة وقال : « لسوف يصلنا رتل النجدة قبل ذلك » ٠ وقد اصيب اسحق برصاصة في رأسه بعد ظهر هذا اليوم ، فبقي منا عشرة رجال ٠

تحدث الينا « الآبق » من جديد هذا المساء ، وعرض علينا فرصة الاستسلام لانقاذ حياتنا ، وأعلمنا ان المدفع الذي كان السبب في تدمير بيبان سيطلق قذائفه علينا في الغداة ٠ فرددت عليه برشة من القنابل اليدوية ٠

رفعت اليوم العلم طالبا مزيدا من الجليد ٠ فردت الطائرة علي بهذه الكلمات المقتضبة : « لاتقولوا اننا نموت » ٠ عرفت في الكتابة خط غالرانج، انه الانسان الوحيد الذي تخامره فكرة الكتابة الي باللغة الانكليزية ٠ وقد بدأ يدور حول الموقع على ارتفاع ستين قدما ويرش الريفيين بمدفعه الرشاش رغم القذائف التي يطلقونها عليه ٠ لقد كان مجنونا حقا بحيث أن المهاجمين ، ولا ريب أنهم فهموا ان قذائفهم لايمكن ان تصل اليه ،توقفوا عن قذفه بنيرانهم ٠

وضعت عند الغسق خمس عشرة قنبلة مدفع في اللغم في المركز ٠بقي منا سبعة على قيد الحياة ، بما في ذلك الجريح ٠ من حسن الحظ أن مستودع الذخيرة لم يصب بأذى ٠

الساعة التاسعة : خمس قنابل ، ثلاث في اللغم ، لم يعد هناك اسلاك شائكة في الجبهة الشمالية •

ههنا تنتهي مذكرات لابايير • بعد ساعتين ، أي في الساعة الثالثة والعشرين ، سمعت حامية عين كبير دوي الانفجار ،وشاهدت صحيفة من اللهب تنطلق من بني دركول• وقتل عشرون شخصا من رجال قبيلة بني زروال كانوا قد دخلوا الى الحصن نتيجة الانفجار • وتم استرداد حصن بني دركول بعد شهرين من ذلك التاريخ ، واعيد بناؤه من جديد • وكان أحد رجال الهاتف الفرنسيين يقوم باصلاح الخطوط قد اضطر الى تهديم الجدار القديم بمعوله ، فسقطت من الجدار حزمة من الكتب والاوراق ، فحملها الى رئيسه • كانت الكتب تضم كتابا في القواعد المراكشية ، ومجموعة شعرية لفيكتور هوغو ، وكتاب حياة يسوع لرينان ، وكتاب صورة دوريان غراي باللغة الانكليزية لاوسكار وايلد • وكان في تلك الحزمة مغلف اصفر اللون يحتوي على دفتر كبير بعنوان « مذكرات الحرب » ، وحزمة من الرسائل ملفوفة بشريط ذهبي مأخوذ من علبة شوكلاته • وكان ثمة رسالة موجهة من لابايير الى النقيب بيتري ، هذا نصها :

بني دركول ، الثاني من حزيران (يونيو)

سيدي النقيب ،

لقد طلبت الى وصيفي سوغومالي أن يحمل اليكم هذا المغلف ، واذا أمكن الحقيبة التي تضم هذا المغلف ، فيما اذا قتلت •

لقد كنت قادرا حتى الآن على ارسال وقائع الاحداث الرئيسية اليكم بالبرق الشمسي ، لكنني أردت أن أشكركم والدموع تترقرق في عيني على جميع مابذلتم وتبذلون تجاهنا • وانني لادرك مبلغ قلقكم وانتم ترون جميع مراكزكم تخضع للحصار أو النسف ، وشعوركم بالعجز في قبضة هذه اليد ذات الاصابع المشوهة • اننا لنشعر اخيرا بعملكم وتدخلكم ،وانا لنشكركم • لقد اخبرتكم انني لا ازال املك مايكفينا من الماء حتى الثاني عشر من هذا الشهر • وانه ليعود اليكم الفضل من جديد لاننا استطعنا أن نحقق هذا التموين ، فقد كانت النيران التي قذفتم بها الارجاء المحدقة بينبوع المياه ذات دور فعال ، وقد عملنا طوال الليل على طول الممر (الذي خلقتموه لنا) ولم نخسر غير ثلاثة رجال •

شكرا على التبغ والخضروات • أرجو ان تشكروا الطيارين باسمي ، لكن آمل أن تطلبوا اليهم أن يحسنوا اصابة الهدف ، لان بعضا منهميطيرون على ارتفاعات عالية ، فتخطيء الطرود التي يقذفون بها الينا أهدافهـــا فأخسرها أنا •

لقد كان رجالي رائعين حقا • فأثيبوا من يبقى بعدي وكافئوه • ان الاوروبي الوحيد الذي يمكن ان يتولى قيادة المركز بعدي هو لاردين ، وهو الذي يجب ان يحل محلي نظرا لعدم وجود من يحمل رتبة أعلى •

اذا وصلت هذه الحقيبة اليكم فاني أسألكم ان ترسلوا حزمةالرسائل الى العنوان المدون فيها ، واذا ما ساءت الامور معي فهل تتكرمون بالكتابة الى ذلك العنوان وشرح الامور ؟ لسوف اكون ممتنا ان ذهبتم الى هنالـك فيما بعد ، اذا لم يكن في طلبي هذا مايثقل عليكم •

واذا بلغتكم مذكراتي فليس ثمة اسرار فيها ، ولسوف تذكركم بهدوء السنة الاخيرة اذا ماقورن بالازمة الحالية المعقدة جدا ، بحيث بدأت أعجز عن رؤية اي مخرج منها على الاطلاق •

وداعا ياسيدي النقيب ، فان رجالي يتحدثون عنك كثيرا ، وقدطلب الي عدد من المصابين منهم وهم يعانون سكرات الموت أن أخبرك انهم ذهبوا الى هنالك لاداء الواجب على الوجهالاكمل ، ولكنهم لاقوا منيتهم هنالكأيضا• أتراني أبرأت ذمتي من هذه الواجبات الفردية ؟ وداعا مرة اخرى ، ياسيدي النقيب • اني لأعانقك كما كنت أعانقك حين يأتون لاغاثتنا •

لابايير

لم يكن دفاع لابايير عن مركزه عملا بطوليا فريداً • فقد كان ثمة نماذج اخـــرى منه على طول سلسلة الحصون الفرنسية • ولم يكن عبد الكريم ليتوقع من عدد قليـــل من الضباط وضباط الصف الفرنسيين ، مع بعضالقوات من المولدين ، أن يصمـــدوا طوال شهرين أو ثلاثة أشهر كاملة وسط كتل من الخرائب والاطلال في وجه فـــرق تفوقهم عددا تطوقهم من جميع الجهات ، بينما هم يحصلون على الذخيرة والطعام وقطع الجليد بواسطة الطائرات وحدها • ان هذه القبضة من الرجال وقفت حجر عثرة فيوجه الهجوم الريفي ، وأعطت الفرنسيين فرصة كافية لاستجماع قواهم •

المارشـــــالان

نومت المواقع الفرنسية رجال القبائل تنويما مغناطيسيا • فبدلا من تركيزقواهم لاحتلال هذه المواقع المبعثرة ، كان ينبغي أن يعمدوا الى اشغالها بعدد قليل من الرجال ويتابعوا سيرهم ، مخلفين حامياتها في حالة من التخبط والعجز في المؤخرة • وكـــانت هذه المواقع تربك الفرنسيين الذين كانوا مضطرين أبدا الى تموينها ومحاولة انقـــاذ الرجال المحاصرين فيها • وقد كان الفرنسيون يعانون حتى في عام ١٩٢٥ من عقـــدة خط « ماجينو » ، وكانوا يعتقدون ان سلسلة حصونهم على طول الحدود الريفية لايمكن اختراقها ، كما ان أي ريفي لايجرؤ على التغلغل فيها • وقد سخروا من عجزالاسبانيين وعدم مقدرتهم ، ولكنهم قاسوا أهوال كوارث مماثلة من جراء الاسباب ذاتها • وقـــد عمد الفرنسيون ، بدلا من الاحتفاظ بقدرة قواتهم على الحركة والانتقال ، الى تركيـــز هذه القوات في مواقع معينة ، بني كل منها على قمة تلة عالية محرومة من أيموردللمياه•

وان ثمة مؤلفا واحدا على الاقل هو الكولونيل دوماس يعتقد انه كان في مقـــدور عبد الكريم الاستيلاء على فاس وتازه في شهر أيار (مايو) • وقد اخبرني ادريس ، ابن عبد الكريم ، « ان والدي كان يؤمن انه لو أمر قواته بالهجوم فقد كان في مقدورهاحتلال فاس وتازه ومن بعد مراكش بأسرها »• وهو يعتقد ان تقصيره عن اتخاذ مثل هـــذا الامر هو احدى كبريات اخطائه • كان الجيش الفرنسي في مراكش يعد ستين ألـــف مقاتل فقط ، وهو مجموع لايكفي للدفاع عن الحدود الريفية وحراسة بقيـــة أرجـــاء البلاد ، حيث كان ثمة احتمال خطر من ثورة القبائل لدعم عبد الكريم • وقـــد كان عدم اقدامهم على ذلك اكبر جزية لنظام المارشال ليوتيي الحكيم •

وكان من سوء حظ عبد الكريم أن خصمه كان على الارجح الانسان الوحيد الذي

لم يكن قادرا على انزال الهزيمة به ؛ بيد أن الحرب الريفية قد هزت أركان سمعة ليوتيي العظيمة • ان فترة نظامه السلمية الطويلة الامد قد ختمت بالحرب • وقد كان ذلك بسبب خطيئته الشخصية حتى درجة ما ، لانه فشل في مفاوضة عبد الكريم الذي عرض عليه ، مرارا وتكرارا ، تسوية القضية الجدلية للحدود الريفية • ولو سمح لهما ، لكان من المحتمل أن يعمل الزعيمان معا في سبيل مصلحة الريف الاساسية ، وكان يمكن ان يتفاهما • ولكنهما لم يلتقيا معا ، وهكذا ضاعت الفرصة •

حينما وصل ليوتيي الى مراكش عام ١٩١٢ كانت البلاد في دوامة في أعقاب سلسلة من الثورات ، والمذابح ، والتنازلات عن العرش ، واعلانات السلاطنة الجدد • وكان القسم الاكبر من البلاد رهن ثورة مكشوفة ، والزعماء الاقوياء يحكمون مناطقهم افراديا في حين اختفت جميع مظاهر الحكومة المنظمة • وكانت غارات عصابات رجال القبائل تتوالى في كل مكان ، فتنهب وتقتل وتذبح • وكانت مراكش بأسرها في حال من الفوضى المطلقة • وكان قد قتل عدد من الضباط والحكام الفرنسيين في فاس ، وكانت فرنسا تطالب بالثأر • وكان أول عمل أتاه ليوتيي لدن تسنمه مركز المقيم العام هو تأجيله تنفيذ العقاب في عدد من مواطني فاس صدرت الاحكام باعدامهم لاقدامهم على قتل اولئك الضباط • وقد قال انه لايبحث عن الثأر ، كما انه لايسمح أن تفسر الرحمة على أنها ضعف أو وهن • وقد برهن على أنه السيد المطاع باتخاذه عددا من الاجراءات المشددة للحفاظ على سلامة الفرنسيين ، كما انه كان صارما بتأكيده على أنه لايجوز لاي اوروبي أن يهين العادات الوطنية أو المعتقدات الدينية أو ينتهكها • وقد منح الزعماء الكبار مسؤولية الحفاظ على النظام وطالبهم بالمقابل ببعض الواجبات • وكان يحكم باسم السلطان • واعاد تنظيم الجيش ، وألغى التمييز بين أفراد القوات المسلحة • وصار الفرنسيون والافريقيون يخدمون في الجيش المراكشي ، ويأكلون ، وينامون ، ويقاتلون جنبا الى جنب • وقد ساعدت العقلية الاوروبية التي يتحلى بها العرق البربري على هذا الاختلاط •

كان ليوتيي يدرك أن الواجب الاول المترتب على سلطات الانتداب هو الحفاظ على مصالح الشعب المنتدب عليه • ولم تكن مراكش غنيمة حرب ؛ وكان الفرنسيون قد دخلوا اليها نتيجة معاهدة • وكان التعاون المطلق بين المنتدبين والمنتدب عليهم هو أساس سياسته ، كما كان يعرف أن المغاربة يتجاوبون مع اللطف اكثر من تجاوبهم مع العدالة المطلقة ، التي هي غريبة على طباعهم وجبلتهم • وأصدر ليوتيي أوامره بعدم

اذلال أي مواطن كان • وقد ثبت نجاح نظامه هذا خلال الحرب الاوروبية فيما بين عامي ١٩١٦ ـ ١٩١٨ ، حينما طلب اليه تجريد مراكش من قواتها المسلحة • وقدنصحت له حكومة باريس أن يسحب حاميته ويجلو عن وسط البلاد • وقد احتفظ ببعض القوات في أماكن متفرقة ، في حين ظلت القبائل موالية له على الرغم من الجهود التي بذلها الالمانيون لاثارة هذه القبائل ضده ، كما أن أغلب هذه القبائل ظلت على ولائها حينما اندفع عبد الكريم جنوبا ، وقد كان هذا احد منجزات ليوتيي الكبرى •

واذ تنبأ ليوتيي بالخطر عام ١٩٢٤ ، فقد طلب عددا من الفرق الجديدة لزيادة قواته من ستين الف رجل ، وهو عددها عام ١٩٢٣ حين أنقصت من جراء الصعوبات المالية في الوطن الام والاحتلال الفرنسي لمنطقة الروهر • وظل ليوتيي ينتظر هذه الامدادات الموعود بها عام ١٩٢٥ ، حينما تحركت قوات عبد الكريم في اتجاه الجنوب • ولم يحصل ليوتيي على أكثر من أربع فرق من الجزائر • وقد لاقى عدد كبير من جنوده حتفهم أو حوصروا في الحاميات المبعثرة ، أما من تبقى منهم في المؤخرة فقد قسمهم الجنرال دي شامبران ، القائد العام في فاس ، الى ثلاث جماعات تحت امرة ثلاثة قواد هم الكولونيل كامباي في الشمال الشرقي من تازه ، والكولونيل فريدنبورغ في المعسكر الرئيسي في عين عائشة في الوسط ، والجنرال كولومبا في الغرب حوالي وزان • وقد انهمك هؤلاء الضباط في شهري أيار (مايو) وحزيران (يونيو) انهماكا كليا في محاولة انقاذ المراكز المحاصرة التي كانت تمتد على مدى قوس عريضة من الشرق الى الغرب على طول الحدود الريفية • وفي نهاية حزيران (يونيو) كان خمسون مركزا من هذه المراكز على الاقل قد سقط ، في حين كان التعب قد أضنى ارتال الاغاثة بأسرها • وانصب رجال القبائل من جديد عبر نهر ورغلا • وبعث عبد الكريم اعدادا متزايدة من الجنود النظاميين ، كما قدم بنفسه للاشراف على الحملة • ولكنه غادرها في وقت متأخر جدا •

واني لأشك ، حتى بعد قراءتي مذكرات عبد الكريم ومناقشة الحرب الفرنسية مع الاقارب الذين كانوا مستشاريه وقتذاك ، في حقيقة نواياه عام ١٩٢٥ • ويعلن عبد الكريم انه اختار القيام بالهجوم على أرض ينتقيها بنفسه ، لان الهجوم دائما هو افضل دفاع • وقد بدا أول الامر ، في شهري نيسان (ابريل) وأيار (مايو) ، أن أهدافه كانت محدودة ، وان غرضه الوحيد هو مساعدة القبائل المحلية على طرد الفرنسيين الى ماوراء نهر ورغلا حيث مكانهم المشروع في اعتقاده • أما فيما بعد ، وحينما أظهرت بعض الانتصارات الاولية انه في الامكان تحقيق اغراض أكثر اتساعا ، فقد بدل خطته وأمر

بهجوم عام • ولكنه كان قد اخطأالفرصة المؤاتية في هذه الاثناء ، ألا وهي فرصته الوحيدة في امكانية احراز الانتصار في الحرب على الفرنسيين • اقول « امكانية » لان عبد الكريم لم يكن يستطيع اكثر من الحصول على مركز قوي من أجل المساومة يستطيع منه أن يضمن استقلال الريف ، هذا الاستقلال الذي كان هدفه الوحيد في قتاله الاسبانيين والفرنسيين على حد سواء •

ولا أعتقد أن عبد الكريم ، عام ١٩٢٥ ، كان ينطوي على أي طموح أعظم من ذلك• كان يود ان يطرد الاسبانيين من شمالي مراكش ، الامر الذي حققه فعلا ، بغية احلال سلام مرض طويل الامد ، ومن ثم أن يدفع بالفرنسيين الى مابعد حدود نهر ورغلا • وسواء أكان موافقا على مد يد العون الى القبائل الجنوبية أم لا ، فلم يكن له مناص من السيطرة على وادي ورغلا الخصيب ، هذا الوادي الذي لم يكن الريفيون ليستطيعون الاستغناء عنه ، والذي طردوا منه عام ١٩٢٤ • وكان الحفاظ على تربة هذا الواديالغنية مغامرة وجب على عبد الكريم المجازفة بها ، اذا ما أراد الحياة للدولة التي خلقها • ولما كانت الخبرة في القيادة تنقصه على وجه العموم ، فقد أخفق في ادراك الوهدة التي تحفرها الحرب المحدودة الامد ، لان الفرنسيين كان لابد أن يرجعوا ادراجهم بعد ابلالهم من الصدمة غير المتوقعة التي اصابتهم • وكان السماح لعبد الكريم بالحفاظ علىالاراضي الواقعة شمالي النهر يشكل اراقة لماء الوجه ما كان الفرنسيون ليجيزوها ، خاصة وان اعدادا كبيرة من الوطنيين الذين يزهون بالانتصارات ويكرهون الفشل كانتتطوقهم من جميع الجهات •

كان ثمة اعتباران مباشران ارغما عبد الكريم على الاشتباك فيالحرب معالفرنسيين: نظام تحالف الليف ، وتوجساته الخاصة من نيات الفرنسيين • ويعتقد والتر هاريس أنعبد الكريم كان كثير التوجسات ، فكان يشك في النية الطيبة للاسبانيين والفرنسيين على حد سواء ، ويرفض عروضهم للتسوية والصلح • كان يخشى انه اذا وافق على حظوة الحكم المحلي التي يعرضونها عليه ، فلا بد أن يختلق الاستعماريون « حوادث » تسمح لهم بنقض وعودهم • ولسوف يهجعون الريفيين على لحن شعور خائب بالامن ، ومن ثمة يغزونهم بحجة منع الاضطرابات الداخلية ، أو بحجة أن بعض المغيرين الريفيين قد اجتازوا حدودهم • ولا ريب ان عبد الكريم مصيب في توجساته ، فهو يعرف منطق الاستعمار ويفقهه ، كما لم يكن ثمة من يستطيع ضبط الاستعماريين الاسبانيين والفرنسيين • ذلك ان عصبة الامم التي استغاث عبد الكريم بها لم تكن اكثر منقصبة

مكسورة ٠ ولم تكن الولايات المتحدة قد تبنت مناوأة الاستعمار بعد ، كما أن الشعور الاوروبي العام لم يكن من السهل استنهاضه لدعم شعب بدائي يقاتل في سبيل نيل استقلاله ٠ وكان اولئك المؤيدون للريف من امثال « جمعيات الريف » البريطانية والاميركية ، هذه الجمعيات التي تألفت عام ١٩٢٥ والتي سنأتي على ذكرها فيما بعد ، قد انزلوا به من الاذى اكثر مما ادوا له من حسنات على حد تعبير هاريس ، لانهم أقنعوا الريفيين الساذجين بأن المساعدة آتية من دون ريب ، الامر الذي وضع عبد الكريم في موقف عنيد بصورة خطيرة ٠

ولقد حقق عبد الكريم في رأي هاريس كل ماكان يأمل في كسبه بوصفه حاكم شعب بدائي ، هذا الشعب الذي يعتقد هاريس ايضا ، بتشاؤم ، انه لم يتعلم ان يحكم نفسه٠ ويعتقد هاريس ان حكم عبد الكريم كان حكما مطلقا ، وانه عام ١٩٢٥ بدأ يفقد السيطرة على الوضع الذي خلقه ٠ ويكتشف هاريس شيئا من الفساد في شخصية عبد الكريم ، ويعتقد أن سبب الفساد هو السلطة المطلقة التي جمعها في يده ٠ وقد أمضى هاريس حياته بأسرها في مراكش وكان يتراسل كثيرا مع عبد الكريم عام ١٩٢٥ ٠ وقد كان مراقبا أوروبيا معاصرا نموذجيا ، لكنه لم يكن مجردا عن العاطفية ٠ وكان هاريس يؤمن بالاستعمار ، كما كان يعتقد أن الحماية الاوروبية ضرورية لمراكش ٠

كانت آراء هاريس عن عبد الكريم مستقاة من مصادر اخرى ، ولعلها تلونت بوجهات نظر اعدائه ٠ وكان هاريس معجبا بعبد الكريم ، ولكنه لم يكن يتقبل ايمانه الطيب قبولا حسنا ٠ ويقول هاريس ان عبد الكريم صار فظا ، وكان ثمة اعدامات كثيرة في الريف ٠ وقد نما طموحه مع اطراد نجاحاته ،وغدت دوافعه كلها شخصية ٠ ويعتقد هاريس أن عبد الكريم كان يشتهي الانتقام في هذا المجال (ضد الاسبانيين الذين ازدروه ، والذين كان يكرههم كرها بغيضا) ، كما كان يشتهي الحصول على ثروة شخصية ، وسلطة شخصية ، وفي النهاية يتمنى استقلال الريف ٠ كان الاستقلال وسيلة الى غاية ، والغاية هي اشباع شهوته الى الانتقام الشخصي ، هذا الانتقام الذي « كان صفة مميزة تدمغ الشعب الريفي » ٠ ويدعي هاريس ان الانتقام كان يتحكم ويسيطر على جميع اعمال عبد الكريم ٠ وقد غدا ، نتيجة لذلك ، طاغية مستبدا بشكل أدى في النهاية الى ان ينقلب عليه شعبه وحتى قبيلته الخاصة ٠

واني لأرفض هذا التقدير الذي يضعه هاريس عن عبد الكريم ٠ ان الانسان

لايستطيع ان يحيا اسابيع بطولها مع رجال مثل اولاده ويقابل شقيقه دون ان يكـــون فكرة محددة عن شخصية الرجل الذي يتحدثون عنه بكل هذا الود وهذه المحبة • كان أولاده على درجة حسنة من الثقافة ، قد جابوا اطراف الدنيا على رحبها ، وحصلوا ثقافة رفيعة • وعلى الرغم من كونهم فرادى ، فقد كانوا يعملون يدا واحدة في سبيل هـــدف واحد ، ألا وهو تحقيق طموح والدهم ـ رخاء الشعب الريفي • واني لاؤمن انه لايمكن لغير رجل مرموق جدا ان ينجب مثل هؤلاء الابناء • ولو كان عبد الكريم منحط الاخلاق، ولو انه كان يتصرف بحسب ماتمليه عليه رغبته في الانتقام الشخصي وتطلعه الى امتلاك قوة شخصية وثروة فردية ، فقد كان ذلك يظهر على أبنائه • وقد شب أولاده معـــه في منفاه الذي استمر عشرين عاما حتى بلغ ابنه البكر السابعة والعشرين من العمر • وكانوا يحيون مع والدهم متلاحمين ، تهيمن عليهم ظروف قاسية ، ومع ذلك لايكلون عن المديح لتنشئتهم • وان هذه القصة الصغيرة لتشهد على أسلوب والدهم فيمعاملتهم : فقد كان ولده الخامس سعيد يهرب من المدرسة • وقد توجه اليه والده في نهاية الاسبوع قائلا في مصادفة هادئة : اذن ، فقد قررت أن تصبح فلاحا ، ياسعيد » • فما كان مـــن سعيد الا أن واظب على الذهاب الى المدرسة في بكور تهار الاثنين •

وأنا لا أجادل في أن شخصية عبد الكريم لم تكن صافية من الشوائب ، ولكننــــي أعتقد أن هاريس والآخرين قد اصدروا حكمهم عليه وفقا للمقاييس الغربية المعاصرة • وقد لايكون عبد الكريم مثالا للفضائل الغربية النظرية ، ولكنه قد يملك فضائل لامثيل لها لدى الغربيين • ترى كم من الجنرالات الاوروبيين أو الاميركيين كان يمكن أنيوفروا مليلا لأن هذه المدينة تضم خمسين الفا من النساء والاطفال؟ ان تشرشل لم يوفر كولونيا وترومان لم يوفر هيروشيما • ليس ثمة رجل دولة قد وضع مبدأ الانسانية قبل مبـــدأ الضرورة مثلما فعل عبد الكريم •

كان عبد الكريم يحكم شعبا بسيطا ساذجا ، وكان يحكمه في فترة من فتــــرات الحرب ، فكان ينبغي عليه أن يكون قاسيا • وقد يكون بالنسبة الى المقاييس الغربيـــة ظالما عنيفا • لقد استشهد دافيد هارت في احدى رسائله الخاصة الي بمثال عبدالكريم الذي « تخلص بصورة مريحة » من معارضة القائد بوغيش (الرجل الذي كان كـــون يسميه بقيش) وولده بتقديم الشاي المسموم اليهما • وكان في مقدور عبد الكريـــم أن يعاقب على ذلك بالقتل • ولو فعل ، فانه يجب ان نحكم عليه وفقا لمقاييس اوروبا القرون الوسطى ، أو حتى مقاييس بلاد يهوذا في القرن الاول المسيحي • ولنذكر بـــأن

القديس بطرس قد قمع المعارضة بالقتل ، اذا كان لنا ان نأخذ حرفيا قصة حنانيا وسفيرا ، عضوي الكنيسة البدائية اللذين « سقطا ميتين » في حضرة بطرس من دون أي تفسير آخر لموتهما ·

واذا كان عبد الكريم قد حكم حكما اوتوقراطيا ، فقد كانت الظروف تبرر مثل هذا الحكم المطلق · وقد كان وشقيقه الرجلين الوحيدين المثقفين ثقافة حديثة في الريف · وقد اقسما على القتال حتى الموت في سبيل حرية الريف · وكانا الانسانين الوحيدين اللذين يعرفان القوى التي يجابهانها· وكانا يعتقدان ، كما روى لي محمد الخطابي ، أن نجاحهما سيكون « معجزة »· كانا يعرفان الاسبانيين ، ويعتقدان انهم سيسيئون معاملة الريفيين ويستغلونهم · فاذا ما أسسوا في الريف حكما اوتوقراطيا فذلك أفضل من الطغيان الاسباني · ولعل عبد الكريم قد خاف من الاسبانيين ، ولكنني لا اعتقد انه كان يكرههم أو يبحث عن الانتقام كما يقول هاريس · ويذكر عبد الكريم في مذكراته انه كان مستعدا في عام ١٩١٩ للتعاون مع الاسبانيين فيما اذا أقنعوه بنواياهم الطيبة تجاه الريفيين ، هذا الشعب البدائي الذي يحتاج أيما حاجة الى الوصاية الطيبة من قبل أمة متحضرة · وقد استهان الاسبانيون به واحتقروه ، لكنه حين سنحت له الفرصة المؤاتية أعرض عن الانتقام · وكان الكولونيل مورال ، رئيس مكتب الاستخبارات الاسبانية العسكرية في مليلا ، عدوه الالد· ولكن رؤية جثته في أنوال أحزنت عبد الكريم، فقال : « كان رجلا شجاعا ، ويؤسفني انه مات » ·

وهنالك وشايتان اخريان ينبغي دحضهما · فقد ذكر هاريس ان عبد الكريم كان يقاتل في سبيل احراز ثروة شخصية ، في حين يذكر عدة مؤلفين فرنسيين بالاضافة الى الصحفيين الاميركيين انه سمى نفسه «سلطانا » على الريف · وليس من السهل دحض الادعاء الاول ، اذ أن اوراق عبد الكريم بأكملها قد اختفت بعد استسلامه · ومهما يكن من أمر ، فانه لم يظهر عليه مطلقا انه يملك ثروة بعد مغادرته الريف · وانه لمن الصعب أن نتبين كيف كان يمكنه أن يدخر أي مال للمستقبل · فقد كانت موارد الدولة الريفية تتغذى من ثلاثة مصادر : الفدية المدفوعة لقاء تحرير الاسرى الاسبانيين وقد بلغ مجموعها اربعة ملايين بيزيتا ، وثروة ريسولي التي يمكن أن تقدر بحوالي مليون بيزيتا ، والضرائب المفروضة في البلاد التي لايمكن أن ينظر اليها على اعتبارها مبالغ محترمة من المال · وقد كان عبد الكريم يشتري من هذه الموارد الاسلحة ، والذخيرة والمعدات ، كما كان يحتاج الى دعم اجهزة الدولة ودفع رواتب الجنود الذين بلغ عددهم

خمسة آلاف جندي ، وذلك طوال فترة خمس سنوات بمعدل ٦٠ بيزيتا شهريا (حوالي جنيهين ونصف) ، ودفع رواتب الضباط بمعدل ٢٥٠ بيزيتا (حوالي عشرة جنيهات) في الشهر • ولم يكن في المستطاع بقاء كمية كبيرة من هذه الاموال عام ١٩٢٦ ، كما يلوح أن المال كان في حالة نضوب منذ عام ١٩٢٥ ، الامر الذي جعل هاريس يقول ان نقص الميزانية كان سببا في قلة عدد الجنود الريفيين النظاميين الذين أرسلوا الى ساحات الوغى ضد الفرنسيين • أما القول بأن عبد الكريم قد ادخر للمستقبل ثروة خاصة فيدحضه أيضا نمط المعيشة التي عاشها في جزيرة رينيون ، حيث خصصت له الحكومة الفرنسية معاشا صغيرا يضمن له استمرار حياته • وبدأ عبد الكريم يتقاضى ، انطلاقا من عام ١٩٤٨ حين طلب الى مصر اعتباره لاجئا سياسيا ، راتبا شهريا من الجامعة العربية ، واستمرت عائلته تتقاضى راتبا تقاعديا من المصدر ذاته •

ويقول اقرباؤه أن عبد الكريم رفض لقب « سلطان الريف » ، هذا اللقب الذي كان بعض اتباعه يطلقونه عليه بدافع الاحترام • ويبدو أن لقب السلطان كان من اختراع جوزيف كليمس الذي راح يستخدمه للتأثير على الزوار الاجانب • ويذهب بعض المؤلفين الفرنسيين الى أبعد من ذلك ، فيدعون أن عبد الكريم كان يأمل في الدخول الى فاس كفاتح غاز واعلان نفسه سلطانا على مراكش ، ويصورونه غيورا على أن ينفذ في الثاني من تموز (يوليو) العمل الرمزي الذي هو من حق السلطان ، ألا وهو نحر خروف التضحية في العيد الاسلامي الكبير الذي يحيي في الاذهان قصة ابراهيم واسحق •

وحينما قرر عبد الكريم الانطلاق الى فاس في اواخر شهر حزيران (يونيو) ، كان قد تأخر كثيرا في وضع هذا القرار موضع التنفيذ • ولو انه أسند قوة رجال القبائل الذين كانوا يعدون حوالي خمسمائة رجل والذين وصلوا الى مسافة لا تبعد اكثر من عشرين ميلا عن المدينة في اوائل شهر أيار (مايو) ، فلعله كان يستولي اذن بصورة مؤكدة تقريبا على العاصمة المراكشية القديمة ، وبذلك يقطع الطريق الموصلة الى الجزائر ، هذه الطريق الوحيدة التي يمكن ان تبعث النجدات الى القوى الفرنسية •

وقد فشل الهجوم على الجبهة الجنوبية في أيار (مايو) لسببين اثنين : فرجال القبائل المحليين قد شغلوا انفسهم بمحاصرة المراكز الفرنسية ، كما أن عبد الكريم قد حدد اهدافه • كان يمكن ان يكون السبب في ذلك قلة عدد رجاله ؛ كما كان يخطط لطرد الاسبانيين في شهر نيسان (ابريل) من تطوان ، وقد بدا انه واظب على هذا المشروع بالاحرى من التركيز على شن هجوم شامل على الفرنسيين • وسنحت لعبد الكريم

عام ١٩٢٥ فرصة خلق وابداع عمليات الحرب المتحركة ، ولكنه لم يستخدم هذا النمط من العمليات في الجبهة الفرنسية ، كما انه لم يقم بهجومه الكبير الا في وقت متأخر جدا ٠

وقد وسع أهدافه في شهر حزيران (يونيو) بعد الاستيلاء على بيبان ٠ وعلى الرغم من ذلك ، فقد صرف النظر عن تركيز هجومه على قلب الجبهة ، وهي الطريق المؤدية الى فاس ٠ فنقل الهجوم الى القطاعين الغربي والشرقي من الجبهة ، متقدما من وزان ، ومتجها شرقا صوب تازه ٠

ان مناقشة مشاكل عبد الكريم قد جعلتنا نستبق مسيرة الاحداث٠ انبول بينليفيه رئيس الوزراء الفرنسي قد طار في مطلع شهر حزيران (يونيو) الى مراكش وقام بزيارة الجبهة ٠ وأخبر ليوتيي قائلا : « ليس لدى فرنسا اية قطعات يمكن ان تبعث بهااليك»٠ ونصح له قائلا : « اياك ان تمنح كريما اية تنازلات » ٠ وما أن رجع بينليفيه الى باريس حتى أعلن « انه يبذل جميع جهوده في سبيل السلام » ٠ وبعث ليوتيي بغابرييلي الى الريف على مسؤوليته الخاصة ، بعدما انكرت عنه جميع اسباب الدفاع المناسبة والقوة على المفاوضات ، « لتنقية الجو » كمقدمة لانهاء النزاع المسلح ٠ ورد عبد الكريم على عرض غابرييلي قائلا : « يسعدنا أن نتفاوض »٠ غير ان كلا الجانبين لم تكن لديهما أية نية مخلصة في مناقشة السلام ٠

وأعلنت هدنة محلية مؤقتة واجتاز غابرييلي خطوط النار ٠ ونقل الى الشاطىء بالقرب من أنوال حيث اجتمع بعبد الكريم ٠ وقد أعلن غابرييلي قائلا : « كان يتفق كثيرا مع الصورة التي رسمتها له في مخيلتي » ٠ ووصف عبد الكريم انه « متوسط القامة ، على شيء من البدانة ، وجهه اسود ينتهي بلحية قصيرة مدببة ٠ عيناه حادتان كثيرا ، مع ميل الى الحول ٠ يرتدي جلابية ريفية بسيطة موشاة بشرطان رمادية وبنية اللون ، ويضع عمامة بيضاء مدورة على رأسه ٠ وجهه جدي كتوم ، لكنه ليس جهم التقاطيع ٠ وذكاؤه بين لايخفى على العين ٠ وان المرء ليدرك على الفور ذلك الايمان المتوقد الكامن خلف عزمه القوي »٠

وبدأ عبد الكريم الحديث على الفور ٠ كان يتحدث في سهولة بكلمات ثابتة ، ويتوقف بين الفينة والفينة ليسمح لبوجيبار بترجمة كلماته العربية الى اللغة الفرنسية٠ قال : « اني شديد الاسف للاوضاع الحالية ، وقد كنت أتطلع على الدوام الى الوصول الى اتفاق مع فرنسا ٠ وانني على أهبة الاستعداد لازالة اسباب سوء التفاهم ، ولكنه يجب

ألا يغيب عن البال أن الشعب الريفي عازم على نيل استقلاله المطلق ،وهو الاستقلال الذي تحقق فعلا »· وتابع يقول :

اننى لم أزج بجميع قواي ضد فرنسا بعد ، بل أرسلت كتائب قليلة تنضم الى القبائل التي تحاربكم وتعمل على تنظيمها · ومهما يكن من أمر ، وعلى الرغم من جميع الاقوال التي صدرت عني ، فاني آسف للاوضاع الراهنة ، وأنا على استعداد لاحلال السلام ، لكن على أسس وشروط تضمن انهاء خطر الحرب الى الابد · واني لأؤكد لك أنني لا أثير حربا مقدسة كما يدعون · فقد انتهى عهد الحروب المقدسة، ولم نعد نعيش في القرون الوسطى كما أننا لا نعيش في عهود الحروب الصليبية · ان غاية ما نصبو اليه هو أن نكون احرارا وأن نعيش في وطن مستقل ، وألا يحكمنا غير الله وحده · وان رغبتنا لقوية في أن نحيا في سلام مع العالم بأسره ، وأن نقيم صلات طيبة مع الجميع لاننا لا نريد أن نعرض أولادنا لويلات القتل والحروب · وللوصول الى هذا الهدف الاسمى ، هذا الطموح ، ألا وهو الاستقلال ، فاننا على استعداد لمحاربة العالم بأسره اذا اقتضى الامر ·

واقتنع غبرييلي بأن موقف عبد الكريم يجعل أية مناقشة ضربا من المحال ،فالتفت الى مسألة الاسرى الذين حمل اليهم ، على حد قوله ، بعض المؤن ، واستفسر : « أيكون في الامكان تسليمهم هذه المؤن شخصيا ؟» وأجاب عبد الكريم بعد برهة من التفكير : « أنت صديقي الآن ، ومن المؤكد أن رؤية مواطنيك التعساء سيسبب لك الغم ، وأنا لا أريد لصديقي أن يتألم · بيد ان المؤن التي جئت بها ستعطى الى الاسرى » · واصر غابرييلي بكل أدب : « أنا جندي قديم ، وأعرف نتائج الحرب ، ورؤيتي ستحمل الى الاسرى بعض العزاء · » فأجاب عبد الكريم : « لا ، فأنا لا اريد أن يظلل زيارتك أدنى ألم » · ولم يخدع غابرييلي بالعناية التي يبديها عبد الكريم · كان يعرف أن الاسرى مجمعون في مكان ما على مقربة من أجدير ، وارتاب في أن ابعاده عنهم هو من جراء الخوف من أن يقوم ببعض الاكتشافات المزعجة ·

وقابل غابرييلي ليوتيي لدى عودته الى فاس · ولم يخف « الانطباع الشديد » الذي تركه فيه عبد الكريم ، وسجل في التقرير الذي كتبه ذلك المساء مايلي :

ثمة بعض الاحساس بالنشوة يظهره الريفيون برفضهم اخذ اية وجهة نظر اخرى بعين الاعتبار ، وبالواقع التالي أيضا ، ألا وهو تنحيتهم

جانبا لذكر امداداتنا بابتسامة لطيفة • وفي الحقيقة انه تبدو عليهم الثقة المطلقة بشأن حصيلة الصراع • ان بنية بلادهم بنية غير مستقرة حقا ، فهي منظمة على أسس عسكرية تماما ، وكان الرجال القلائل الذين صادفتهم اثناء رحلتي مسلحون جميعا ، ولم أشاهد الا في واد واحد رجالا يعملون في الحصاد • وان النساء يقمن بالعمل في جميع الامكنة الاخرى •

ويقول غابرييلي ان الريفيين ما كانوا يعتبرون التعاون الفرنسي الاسباني ضدهم أمرا ممكن الوقوع ، وكانوا يعتقدون ان مثل هذا التحالف سينهار • ولم يلاحظ أية دلائل عن النقص في الريف ، فقد كان الموسم جيدا فيما يبدو ، وكان السكر والشاي متوفرين بغزارة • وكان الجنود الذين صادفهم في كل مكان يعطون انطباعا مؤداه الحذق والكفاءة • وختاما ، فقد سجل غابرييلي رأيه بأن « عبد الكريم انسان شديد العناد وهو شخص يجب ان يحسب له حساب » •

وبينما كان غابرييلي يتحدث مع عبد الكريم ، كان الدبلوماسيون الفرنسيون والاسبانيون يلتقون في مدريد لمناقشة حلف وقع في ١١ تموز (يوليو) • وقد حدد هذا الحلف شروط الاتفاق المشترك مع عبد الكريم ، وهي شروط توفر على حد تعبير غابريلي :

١ ــ تبادل الاسرى •
٢ ــ العفو المتبادل التام والكامل والفعال اعتبارا من كانون الثاني (يناير) ١٩٢١ •
٣ ــ تعريف نظام الحكم الذاتي •
٤ ــ تحديد الاراضي التي ستخضع لهذا النظام •
٥ ــ تحديد قوة الشرطة التي ستضمن القانون والنظام في هذه الاراضي •
٦ ــ الاعتراف بالحرية التجارية وضمانها في هذه الاراضي في حدود المعاهدات الدولية ، وبالخاصة حدود البنود الدولية المتعلقة بالجمارك •

٧ ــ حظر المتاجرة بالاسلحة والذخائر •

٨ ــ تحديد قطاع من الساحل تحتله اسبانيا بصورة سلمية بعد انتهاء النزاع المسلح •

وأمر غابرييلي أن يجتمع بالمبعوث الاسباني ، السنيور ايتشيفاريتا ، في مليلا حيث سينطلقان سوية في مركب حربي الى خليج الحسيمة ليتقلا الشروط الفرنسية

الاسبانية المشتركة الى عبد الكريم • وقد اعطي المبعوثان تعليمات تنص على أنهما غير مخولين بمناقشة هذه الشروط ، بل مهمتهما الوحيدة هي نقلها • ولم يكن غابرييلي يرى اية فرصة للنجاح في هذه المهمة ، فهو يتذكر عزم عبد الكريم على تحقيق الاستقلال التام • وانطلق من فاس وهو على يقين من الفشل ، و « آسفا لان فرنسا ربطت أمرها باسبانيا ، لانه من المؤكد أن ذلك سيضع حدا لاي أمل في الوصول الى اتفاق منفصل مع الريفيين »• وحين وصل غابرييلي الى مليلا ، أخبره الجنرال سان جورجو أن عبد الكريم رفض مقابلة المبعوثين •

ولقد رفض عبد الكريم طوال عام ١٩٢٥ والاشهر الاولى من عام ١٩٢٦ جميع الشروط التي عرضتها الحكومتان الفرنسية والاسبانية ، رافضا القبول بأي عرض لايؤمن الاستقلال التام للريف • ولعله كان على هذا القدر من الحزم في تموز (يوليو) ١٩٢٥ لانه كان يعتقد انه ما زال في مقدوره ان يربح الحرب ضد الاسبانيين والفرنسيين، الامر الذي سيمكنه أن يملي شروطه الخاصة •

وتراءى في اوائل تموز (يوليو) كما لو ان الريفيين يمكن أن ينجحوا في هجومهم ضد الفرنسيين ، على الرغم من انهم اخفقوا في الوسط ، رغما عن استيلائهم على بيبان، في توطيد انفسهم جنوبي نهر ورغلا • ورفع التهديد الواقع على فاس ، فجاء السلطان مولاي يوسف من الرباط لحضور احتفال العيد الكبير • ولقد انتهز الفرصة ليصدر بيانا يدين تمرد « بعض القبائل الجبلية » • واما اوقف عبد الكريم في الوسط حيث كان الفرنسيون مسيطرين بعد على عين عائشة وموقعهم الامامي في توناط ، فقد اندفع في اتجاه تازه ، الامر الذي اسنده فيه عصيان قبيلتي تسول وبرانس اللتين تقطنان المنطقة الواقعة الى الجنوب من نهر ورغلا واللتين كان ليوتيي يعتمد على اخلاصهما •

وكان قرار ليوتيي في الدفاع عن تازه احدى نقاط التحول في الحرب • لقد وافق على اجلاء النساء والاطفال الاوروبيين ، لكنه قال ان انسحاب الحامية من هناك سيكون عملا أحمق بعيدا عن الحكمة ، وذلك على الرغم من انعدام اية امدادات لاغاثة المدينة في حال محاصرتها من قبل الريفيين • وأصدر ليوتيي أمرا يقول : « دافعوا عن تازه بأي ثمن كان » • واما اوقف عبد الكريم عند تازه ، فقد ضرب في الغرب حيث تعززت قواته برجال القبائل الجباليين الذين يقودهم هريرو • وكان لهذا التمركز الريفي حول وزان نتيجة غير متوقعة وكاسحة ، لانها خلقت مصلحة مشتركة بين الفرنسيين والإسبانيين الذين تلتقي منطقتاهم قريبا من تلك المدينة • والتقى الجنرالان كولومبا وريكلم لتخطيط

الوسائل المتكافلة من اجل منع عبد الكريم من الوصول الى الشاطىء الاطلسي ، وكان ذلك بداية ارتباط طال تأجيله ستكون له عواقب بعيدة المدى بالنسبة الى الريفيين .

وازداد الضغط الريفي على طول خط القتال ، وكانت القوات الفرنسية منهكة . ان الريفيين قد استولوا على خمسين موقعا قتلت حامياتها أو وقعت في الاسر . ذلك كان وقتا من القلق العميق ، المرحلة الاشد خطورة في الحرب على حد تعبير هاريس الذي كان موجودا في فاس في ذلك الحين . ويقول هاريس ان الفرنسيين لم يعلنوا قط عن عدد خسائرهم الحقيقية ، وان اعترفت الحكومة ب ١٤٧٣ قتيلا ومفقودا و ٢٧٧٥ جريحا بعد ثلاثة أشهر من القتال . ولم يتلق ليوتيي أيـــة تعزيزات ، باستثناء الكتائب من الجزائر .

وبعث الخطر الذي يهدد تازة وفاس الحكومة الفرنسية وحرضها على العمل أخيرا، فأرسلت في ١٧ تموز (يوليو) المارشال بيتان الى مراكش ليتفقد الجبهة ويرفع تقريرا عن الوضع . ورجع بيتان الى باريس بعد زيارة استمرت سبعة أيـــام ، وهناك أعلن صراحة في التاسع من آب (أغسطس) ما يلي :

> الحقيقة القاسية هي أننا تعرضنا بصورة غير متوقعة للهجـــوم من جانب العدو الاشد بأسا والافضل سلاحا الذي صادفناه في أي يوم من الايام في حملاتنا الاستعمارية . .
>
> ان مقاطعتي الريف والجبالا ، بصورة مستقلة عن الريفيين وعن رجال القبائل المنشقين في الجبهة ، يمكن أن تعتمد على احتياطي من المقاتلين يبلغ ٣٠٠٠٠ ــ ٤٠٠٠٠ من الجنـود الاذكيـاء والاقوياء والمهـرة في استخدام أسلحتهم ، هؤلاء الذين انتشوا بنجاحاتهم في السنوات السابقة ، والذين يعرفون أفضل معرفة البلاد الوعرة التي يقاتلون فيها ، والذين يتطلبون أشياء قليلة جدا بحيث يمكنهم أن يواصلوا العمل من دون تلك القوافل التي تثقل أرتالنا حتى درجة بعيدة ، والذين يملكون الرشاشات والمدفعية ومؤونة غزيرة من الذخيرة .
>
> وفي هذه الظروف ما كان يمكن أن تكون مهمة قواتنا ، القليلة العدد ، الا شاقة ومرهقة جدا في الايام الاولى من القتال .

ان مواقع « المراقبة » عبر نهر ورغلا ، وهي المواقـــع التي تعرض انشاؤها لنقد صارم وعنيف ، قد قامت بغرضها في تحطيم الموجة الاولى من

القوات المهاجمة وفي الحفاظ بعض الوقت على ولاء قبائل الحدود ، وكانت قواعد اعلام للقيادة · ويستطيع المرء أن يفهم أن يتأثر الرأي العام أحيانا لسحبها وسقوط البعض منها ، لكنه يجب ألا ننسى أن رسالة جميع المواقع الواقعة على خط القتال الاول تتطلب التضحية ·

ان قواتنا ، التي أغرقتها موجة متعاظمة أبدا من العصيان ،والتي كانت تقاتل ضد عدو متحرك بصورة مرموقة ، قد اضطرت الى تقديم الحماية حيث كان الضغط على أشده ، فقدمت العون الى حاميات تلك المواقع التي كانت عرضة للخطر ، ومونتها ورافقتها لدى انسحابها ، كما ضبطت القبائل « المنشقة » التي كانت تهدد الطرقات الى فاس والجزائر ·

وانما حققت قواتنا هذه المهمة الفائقة الصعوبة بفضل صفاتها الفذة في الصمود والاخلاص ، ولقاء حرمانات هائلة واعياء يفوق طاقة البشر ، وببطولة وبروح من التضحية لا يمكن قط أن نفيهما حقهما من الامتنان ·

ولا يمكن للمرء الا أن يرفع آيات الشكر الى القائد الكبير (المارشال ليوتيي) الذي كان رغما عن سنه وعن كل ثقل حياته القاسية في المستعمرات ، روح هذا الدفاع ، واستطاع ان يحافظ ضد هجمة هؤلاء البربرة على عمله التمديني الذي حاز على اعجاب العالم كله ·

ولسوف يكون في الامكان الآن ، بفضل وصول المزيد من التعزيزات، الاستعاضة عن الوحدات التي قاومت العدو بصورة خائرة طوال ثلاثة أشهر ، وذلك لمنحها فرصة من الراحة من مجهوداتها البطولية ، بينما يعاد تنظيم القسم الاعظم من قواتنا وتواصل استعداداتها من أجل طرد العدو بصورة عاجلة ، وذلك كيما نوطد سلطتنا في كل مكان ونحقق تنظيما متينا يكون ضمانا لنا في المستقبل ضد أية هجمات جديدة ·

ان الافق يزداد تألقا · فقد أخفق الخصم رغما عن هجماته المتكررة في بلوغ أغراضه السياسية (فاس وتازه) اللتين تباهى بأنه سيدخلهما غازيا · ان الحقيقة التي لم يتم التشديد عليها بصورة كافية هي أن عبد الكريم لم يبلغ فاس مطلقا ، وأن طريق تازه لا يزال مفتوحا ، وأن هاتين

المدينتين آمنتان في الوقت الحاضر ضد أي هجوم معاد، وأن المناطق الداخلية من مراكش لا تبرح على ولائها التام لنا ·

ولعل السرية التي كانت أمرا ضروريا في ساعة الخطر لم تمكن الرأي العام الفرنسي أن يدرك مدى الخطورة التي تتحلى بها طبيعة الاحداث وزخمها على السواء ، هذه الاحداث التي كانت جارية في مراكش منذ بداية العدوان الريفي · واليوم ، اذ يستطيع المرء أن يتكلم بكل حرية ، فان الرأي العام سيظل على اطلاع تام على الامور ·

وأنا الذي عدت لتوي من مشاهدة الضباط والجنود في عملهم أشعر من واجبي أن أعلن عن مدى تقديري لقيمة الجهد الذي حققته قواتنا ، وأنادي باعجابي على رؤوس الاشهاد ·

ولم يشاطر باقي العالم المتحضر المارشال بيتان اعجابه بالبطولة الفرنسية في مراكش · فقد نشرت **التايمس** برقية من هاريس يأسف فيها لقصف مدينة شفشاون المقدسة والمفتوحة « حين كان كل ذكر من السكان قادر على حمل السلاح غائبا عن المدينة كما يعرف الجميع » ، وقد قام بقصفها سرب من الطائرات يقودها طيارون أميركيون متطوعون ، وقد وصف هاريس هذا العمل على اعتباره « أكثر أفعال هذه الحرب كلها وحشية واستهتارا وظلما » · وقد قتل في هذه الغارة عدد كبير من النساء والاطفال الذين لا حول لهم ولا قوة كما تشوه عدد آخر منهم أو فقدوا البصر · وان وجود **سرب لافاييت** ، كما يسمى جورا ، يتطلب الايضاح · ان عددا من الطيارين الاميركيين ، بقيادة العقيد تشارلز سفييني ، قد تطوعوا للقتال في مراكش · ولما كان الفرنسيون يحظرون تجنيد الاجانب الا في الفرقة الاجنبية ، فقد أخذ هؤلاء الاميركيون رسميا في سلاح الجو التابع للسلطان ، وهو سلاح لا وجود له في الحقيقة · ويشير ا·أ· بويل الى ما يلي : « كانوا يزعمون أنهم يقاتلون من أجل فرنسا · وفي الحقيقة أنهم كانوا يقاتلون لابقاء اسبانيا في الريف ، واسبانيا بلد طردته الاجيال الاميركية السابقة من آخر معقل له في العالم الجديد لان وحشيته وطغيانه كانا يفوحان برائحة كريهة في أنوف الناس الشرفاء »·ولقد قصف السرب الاميركي قرى ريفية ، بله أسواقا نسائية، وذلك حتى عمدت وزارة الخارجية الاميركية ، وقد أنذرها هاريس ، الى تذكيرهم بصورة رسمية بأن الولايات الاميركية ليست في حالة حرب مع الريفيين · وحين لسعهم هذا التأنيب ، فقد غادر الاميركيون مراكش ·

ويرى هاريس أن الرد الذي عمد اليه الريفيون ضد الاسبانيين الذين استخدموا الغازات السامة والفرنسيين الذين قصفوا المدن القرن المفتوحة كان ردا « رهيبا لكن طبيعيا » • وانه ليستطرد قائلا : « لقد كا نمتوقعا من الريفيين أن يقاوموا الغزاة بكل وسيلة في امكانهم وأن يقضوا عليهم كلما سنحت لهم الفرصة لذلك » • ولقد أنـذر عبد الكريم الريفيين ، كما يروي أقرباؤه ، بأن الطيارين الواقعين في الاسر سيحاكمون بوصفهم « مجرمي حرب » ، لكنني لم استطع أن أعرف حالة واحدة طبق هذا الاجراء فيها •

ويقول هؤلاء الاقرباء ان تعذيب الاسرى وتشويههم لم يكن من عادات أهـل الريف ، على الرغم من امكانية تطبيق كليهما من قبل البربر الهامشيين ـ هذه القبائل المستعربة التي كانت تقطن حدود الريف الخارجية والتي كان المؤلفون الاجانب عادة يحملونها « دونما تمييز » على اعتبارها من أهل الريف جميعا •

واضطر الرأي العام الفرنسي الحكومة الى اتخاذ تدابير أشد قوة في مراكش ، فهي لم تفعل شيئا من أجل مساعدة ليوتيي • وفي السابع عشر من آب (أغسطس) أرسلت الحكومة الفرنسية بيتان ليتولى القيادة في مراكش ، وأعطته ضعف القوات التي كان ليوتيي يطالب بها • وجاءت مع هذه الامدادات أسراب عديدة من الطائرات ، ومزيد من بطاريات المدفعية ، وخمسون دبابة يقود كل واحدة منها رجلان • ولم يطل شهر ايلول (سبتمبر) حتى كان اثنان من مارشالات فرنسا ، وأربعون جنرالا ، و ٢٠٠٠٠٠ جندي ، قد اصطفوا ضد عبد الكريم •

وكان تهديد التعاون الفرنسي الاسباني يشكل خطرا أعظم من ذلك • وقد توقف بيتان ، في طريقه الى مراكش ، في الجزيرة الخضراء حيث تشاور مع بريمو دي ريفيرا • وكان انسحاب المارشال ليوتيي الذي استدعي الى فرنسا صفعة اشد وطأة من ذلك أيضا، فيما اذا أدرك عبد الكريم مضامينه في ذلك الحين• وكان ذلك يشكل نهاية الطريق بالنسبة الى المارشال العجوز الذي سيذكره الناس دائما على اعتباره « ليوتيي المراكشي » •

كانت نهاية الاستقلال تقترب بالنسبة الى عبد الكريم • ولقد أدرك الآن تلك الخطيئة القاضية التي ارتكبها في أيار (مايو) حين أخفق في القضاء على الفرنسيين الذين لم يكن للاسبانيين أدنى فرصة بدون مساعدتهم للانتصار عليه •

النزول في الحسيمة

أرسل عملاء عبد الكريم في طنجة انذارا في صيف عام ١٩٢٥ يقول ان الاسبانيين يخططون للنزول في الساحل الريفي. كانوا يبتاعون من بريطانيا معدات للنزول استخدمت في غاليبولي ، وقد أرسلت الخطط العسكرية والبحرية الى باريس لتحوز على الموافقة الفرنسية .وذكر العملاء الريفيون في تقاريرهم أنهم لم يستطيعوا أن يكتشفوا المكان المحدد للنزول ، وما كان عبد الكريم ليشك على أية حال مطلقا في موضع هذا الانزال، لان فكرة النزول في خليج الحسيمة كانت فكرة اسبانية قديمة ، وما أكثر ما تمنى سيلفستر أن تتحقق . كانت الحسيمة المكان الامثل ، لان الغزو في هذه البقعة يشكل خطرا على قلب الريف بالذات . وكان عبد الكريم يعرف أن فقدان عاصمته أجدير سيشكل ضربة شديدة موجهة الى نفوذه وسمعته .

ولم تتم الموافقة على الخطة الاسبانية للنزول في الحسيمة الا بعد مناقشة طويلة . كان الانسحاب المشؤوم من شفشاون قد قوى الرأي العام في صالح سياسة بريمو دي ريفيرا الخاصة بالانسحاب من مراكش . لكن الاشتباك المفاجىء بين عبد الكريم والفرنسيين قد قلب الوضع رأسا على عقب بصورة فاجعة ، ذلك أنه خلق فرصة الثأر لأنوال . وأقنع ضباط الجيش بريمو دي ريفيرا بقلب سياسته ، وبمهاجمة عبد الكريم الجبار وهو يدير ظهره . ومهما يكن من أمر ، فقد كان النزول على الساحل يطرح قضايا عديدة ، اذ لم يكن للاسبانيين أدنى خبرة بالعمليات المشتركة ، وقد تذكرت الاركان البرية والبرية أن البريطانيين فشلوا في النزول في الدردنيل . وقد تم التغلب على ترددهم بفضل موافقة الاركان العامة الفرنسية التي أعلنت أن الخطة قابلة للتطبيق ووعدت بتقديم الدعم البحري .

وحين كان شهر آب (أغسطس) يقترب من نهايته ، أدرك عبد الكريم أنه قد يهاجم عاجلا في مؤخرته • وكان يواجه عوزا خطيرا في الرجال • ان هجماته في الجنوب ضد فاس وتازا قد صدت ، وكان الفرنسيون يصبون نجدات هائلة على مراكش • وكان رجال القبائل الهمجيون في الجنوب يتطلبون عضدا من النظاميين الريفيين ، كما كان من الضرورة بمكان فضلا عن ذلك الاحتفاظ بقوة كبيرة في الشرق لمنع الاسبانيين من الاندفاع من مليلا ، كما كان لا بد من الاحتفاظ بجيش آخر في المغرب حيث كان هريرو وقبائليوه يحاصرون تطوان • وهكذا لم يكن يتوفر الا عدد ضئيل من الريفيين لمواجهة الانزال على الشاطىء • ولقد خمن عبد الكريم أن الاسبانيين سيجمعون أسطول الغزو الخاص بهم في سبته ومليلا •

لو أن عبد الكريم كان ذلك الانتهازي القاسي والحاقد الذي يصفه هاريس ، فقد كان شبح مليلا يطارده اذن • فلو أنه نهب مليلا عام ١٩٢١ واستولى على فاس في أيار (مايو) ١٩٢٥ ، وقد كان ذلك في مقدوره تماما ، فلعله كان قد ربح الحرب : أما الآن فقد كانت الهزيمة تحملق في وجهه • ان تجمله عام ١٩٢١ وتردده عام ١٩٢٥ قد كلفا أهل الريف حريتهم•ولا يوفر لنا عبد الكريمفيمذكراته الا شيئا زهيدا من التبصرفيحالته الذهنية في ذلك الحين ، وكان يبدو أنه واثق تماما ، وبصورة لا يتطرق الشك اليها • كان يعتقد أن التحالف الفرنسي الاسباني سينهار ، وكان على يقين من قدرته على الحاق الهزيمة بالاسبانيين •

وحين درستالمنطقة المحيطة بأجدير عام١٩٦٤تراءى لي أن عبد الكريمكان مبالغافي تفاؤله • كانت القلعة الاسبانية في الجزيرة تنهض في وسط الخليج ، على بعد أقل من نصف ميل عن الشاطىء ، خنجرا موجها الى قلب الريف ، والمكان الامثل من أجل شن الغزو عليه • وسألت سعيدا : « لماذا لم يستول والدك على القلعة أو يحاصرها ؟ » ولقد كان جوابه مرموقا ، وهو يقدم لنا نظرة جديدة الى خلق عبد الكريم • قـــال سعيد : « لقد كان بامكانه أن يستولي على القلعة بسهولة بمجرد قطع المياه عنها » ، ذلك أن الحامية كانت تنزل الى الساحل ، وفقا لاتفاق ضمني قديم جدا ، لتملأ أوعية المياه من ينبوع قريب من الشاطىء • وحين سألت سعيدا عن السبب في أن والده لم يعمد الى اتخاذ تلك الحيطة الاساسية فيوقف الاسبانيين عن استقاء الماء أجابني بقوله : « كان والدي يعرف أن نساء الكثيرين من الاسبانيين وأولادهم موجودون في القلعة ، وما كان يستطيع ان يمنع عنهم الماء » • وفكرت في استخدام الاسبانيين للغازات السامة ، وفي

الفظائع التي جنتها ايديهم ، وهي الفظائع التي اعترف بها بريمو دي ريفيرا والعقيد فرنكو وندما عليها • وفكرت في كراهية الريفيين غير المقنعة للاسبانيين ، هذا العرق الذي ارتكب في مراكش ، كما يقول الرحالة الاميركي الكسندر بويل ، « بالضبط تلك الفظائع والاعمال الوحشية التي كانت سببا في طرده من أميركا الجنوبية ، ومن كوبا وبورتوريكو والفيليبين » •

وفكرت في الصورة التي رسمها هاريس عن الزعيم الريفي بوصفه رجلا لا يسعى سوى الى الانتقام ، ولا يحارب الا من أجل الحصول على السلطان الشخصي • وفكرت أيضا في أولئك الريفيين المساكين الذين ضحى عبد الكريم باستقلالهم بفضل انسانيته• لو أن عبد الكريم كان همجيا قاسيا فلعله كان يربح الحرب ؛ وعندئذ كان العالم يصفق له على اعتباره رجلا رائعا • ولقد أخفق لانه كان يريد أن يخوض الحرب وفقا للمقاييس التي كان خصومه المسيحيون يرفضونها •

وسألت ريفيا عجوزا عن طريق المترجم : « ما رأيك بتجمل عبد الكريم ؟ » كان هذا الريفي قد حارب في أنوال وخلال الحرب كلها ، وقد أصبح معلم مدرسة بعد هزيمة الريفيين • قال : « كان عبد الكريم مصيبا حين رفض أن يقاتل النساء والاطفال » • وأوضح لي أن الحاق الاذى بالنساء والاطفال أمر يرفضه الريفيون ، وأبدى هذه الملاحظة اللامعة اذ قال : « لو أننا ربحنا الحرب بتلك الطريقة فاننا لا نبقى ريفيين اذن »• وكانت هذه الملاحظة التي ابداها الرجل عفوية تماما وغير مصطنعة على الاطلاق •

وتهيأ عبد الكريم لمقاومة الانزال الاسباني الذي لم يكن يهابه الا لانه يتضمن البحرية الاسبانية ، وهي كمية مجهولة ، بالاحرى من الجيش الاسباني الذي كان يزدريه • وأخبر قادته قائلا ان الهجوم هو الدفاع الافضل ، وأصدر أمره بهجوم شامل ضد تطوان كي يلهي الاسبانيين • ذلك أنه اذا تأخر الغزو ، فان قدوم الطقس الرديء يمكن أن يؤدي الى فشله • ان الريح الشرقية التي تهب بعنف من البحر الابيض المتوسط في ايلول (سبتمبر) قد أصبحت قريبة الاجل • وأبحر أسطول الغزو الاسباني من سبتة ومليلا في السادس من ايلول (سبتمبر) ، وهو اليوم الذي شن هريرو فيه الهجوم على تطوان •

اجتاز هريرو ، على رأس قوة كبيرة من رجال القبائل يدعمها نظاميون ريفيون مسلحون بالرشاشات والمدفعية،المواقع الاسبانية في غورغس وبن كاريش واحتل الجبال المحيطة بموقع القاضي طاهر ، وهي نقطة استراتيجية في خط « استيلا » • كان

الاستيلاء على هذا الموقع يجعل تطوان تحت نيران المدفعية ، الامر الذي قدر عبد الكريم أنه سيسبب الذعر في اسبانيا ويؤدي الى استدعاء قسم من جيش الغزو ٠

وانهارت المتاريس في القاضي طاهر تحت القصف الريفي بأسرع مما يمكن اصلاحها ، ولم تنقض ساعة واحدة حتى كان ضابط وتسعة رجال قد لاقوا حتفهم ٠ ودمرت قنابل أخرى المدفع الوحيد الموجود في الموقع ونسفت مستودع مياه الحامية ٠ وارتدت المحاولات التي قام بها رتل خرج من تطوان لنجدة الموقع تحت وطأة النيران المتصلة من بنادق الريفيين ورشاشاتهم ٠ واستولى الريفيون اثر هجوم مباشر على حصن جانبي يحمي مشارف الموقع ، كما قتل آمر الموقع ٠ وانطلقت من تطوان ، بواسطة الراديو ، صيحة استنجاد موجهة الى أسطول الغزو الذي كان يمخر البحر على الساحل الريفي ٠

كان الجنرال سارو قد أبحر من سبته والجنرال فرناندو بريز من مليلا ، وكل منهما يأمر تسعة آلاف رجل ٠ وكان الجنرال سان جورجو القائد الاعلى للحملة ، وكان بريمو دي ريفيرا يقف الى جانبه على مركب القيادة ألفونسو الثالث عشر ٠ وحين علم بريمو دي ريفيرا بالمأزق الذي وقع في القاضي طاهر والتهديد الذي تتعرض له تطوان ، فقد أمر المركب الذي يحمل كتيبتين من الفرقة الاجنبية وسرية أخرى بالعودة الى سبته ٠ ووصل رتل الاغاثة الى تطوان في ٨ ايلول (سبتمبر) ، وفي اليوم التالي تقدم لانقاذ الموقع المحاصر الذي تقلصت حاميته في هذه الاثناء الى خمسة وعشرين رجلا وثلاثة ضباط جرحى ــ وتسلق الاسبانيون الجبال الشديدة الانحدار ، وأجبروا الريفيين على الخروج من كهوفهم وزواياهم ، وخلصوا الموقع ٠ وفي اليوم التالي ، مر الباقون على قيد الحياة من الحامية ، جنبا الى جنب مع رتل الاغاثة ، أمام الدكتاتور الاسباني الذي قفل راجعا الى تطوان ٠ وكان أفراد الفرقة الاجنبية يرفعون على حرابهم غنائم الحرب المألوفة ، آذان وأنوف رجال القبائل الذين قتلوهم ، وهو عرض للهمجية اثار النفور الصريح لدى بريمو دي ريفيرا ٠ وهكذا فان المحاولة الريفية لم تضعف جيش الغزو الا بصورة ضئيلة ٠

وظهر الاسطول الاسباني عند خليج الحسيمة في فجر السابع من ايلول (سبتمبر)، وكان يعد ١١١ مركبا ، بما في ذلك البوارج الحربية الفرنسية ٠ وكانت خطة الاسبانيين تتطلب انزالين منفصلين من قبل القوات القادمة من سبته ومليلا ٠ وكان من المقدر انزال قوة مليلا الى الارض عند القسم الشرقي من الخليج ، وانزال قوة سبته حوالي القسم

الرئيسي من اليابسة عند الطرف الغربي من الخليج • وكان لا بد من تعديل هـذه الخطـة حين جرف أسطول مليلا بالتيارات البحرية حتى مسافة بعيـدة الى الغـرب واتخذ الموضع الذي كان مقررا للبواخر القادمة من سبتة • وأدى هذا الاضطراب الى التأخير ، فعمدت البوارج الحربية الى قصف الساحل الواقع ضمن الخليج بالمدفعية ، وبذلك بعثت الحيرة بصورة غيرمقصودة في أذهان الريفيين •

كان عبد الكريم ومستشاروه يناقشون أمر المكان الذي سينزل فيه الاسبانيون الى اليابسة ، وكان من المهم بالنسبة اليه أن يحدد هذا المكان بصورة صائبة ، لانه لم يكن يملك ما يكفي من القوات لحماية ساحل الخليج الطويل • ودعي كل من المستشارين الى اعطاء رأيه ، فكان البعض يقترحون هذا المكان ، والبعض يقترحون مكانا آخر ، ولم يتفقوا بالاجماع الا على نقطة واحدة، ألا وهي ان الاسبانيين سيستخدمون قلعة الجزيرة، الامر الذي يتضمن انزالا في مركز الخليج ، في مواجهة أجدير تماما •

مشيت حول خليج الحسيمة ، عارفا حيث نزل الاسبانيون بالفعل • لقد أظهـروا لهذه المرة بعض الذكاء • ان الخليج بعرض عشرة أميال ، وعند طرفه الغربي يقوممرفأ الحسيمة الصغير الذي يشكل جونا عميقا ، عالي الجدران ، تحميه كتل ضخمـة من اليابسة • ولقد افترض الريفيون ان الاسبانيينالذين سيقومون بالغزو انطلاقـا من الحصن سوف يأتون ايضا الى الجون كيما يستفيدوا من الشاطىء اللطيف الانحدار ومن منشآت المرفأ • وكان لدى الاسبانيين خطة أفضل ، وقد ذهل لها عبد الكريم •

ففي تقديره للموقف لم يعم عبد الكريم عن امكانية الخطر الكامن في أن يعمـد الاسبانيون الى النزول حول اللسان الارضي في الغرب ، عند شاطىء سباديـلا ، وهو شريط طويل من الساحل تشرف عليه بعض الصخور الواطئة ، لكن عبد الكريم لـم يدرك مثل هذا الخطر جيدا • وهكذا فقد وضع ثلاثة مدافع فوق اللسان الغربي اوالجبل الجديد ، وأوكل أمر الدفاع عن شاطىء سباديلا لقبيلة بوكويا التي لم يكن له ثقة تامة بزعيمها • كذلك وضع القسم الاكبر من قواته حوالي الحسيمة وأجدير • وكانت تلك خطيئة بائسة ، وان كان لها مايبررها • كان مثله مثل فون روندشدت وروملِ عـام ١٩٤٤ ، اذ اخفق في تبين الموقع الحقيقي للانزال وطريقة الالهاء المخططة من أجل خداعه والتغرير به •

وحين أصبح الاسطول الاسباني على مرأى البصر ، صعد عبد الكريم وقادته الى قمة اللسان الاوسط • كانت المراكب الاسبانية منتشرة في هلالعريض حول الجبـل

الجديد . وفوق احد المراكب كان يسبح منطاد فضي اللون ، مليء بالغاز ، سمينـــا ومتطاولا ، من ذلك النوع الذي كان يسمى « العبيط » في الحرب العالمية الاولى ،والذي اعطى إسمه في الحرب العالمية الثانية لاولئك الضباط الذين تتفوق بلاهتهم على المستوى المعهود . وحلقت طائرة بحرية فوق الشاطىء ، وكانت تحمل العقيد فرنكو الذي صدرت اليه الاوامر بقيادة الغزو . ويصف فرنكو في مذكراته الموقف كما يلي : « ان الحسيمة (خليج) هو النقطة البؤرية للعصيان ضد اسبانيا . وهو الطريق الى فاس ، والدرب الاقصر الى البحر الابيض المتوسط ، وهناك يوجد مركز الدعاية الذي سينتهي حالمـــا نضع اقدامنا على هذه الشطئان » .

كان قد اعطي « السلطة المطلقة » لتنظيم الغزو حسب تعبيره . وهكذا بينما يقود الفرقة الاجنبية الى الساحل عند شاطىء سباديلا ،فان الاسطول والحصن سيقصفـان الساحل قرب أجدير . ولقد حسبت هذه المظاهرة كيما تحمل عبد الكريم على تركيـــز قواته داخل الخليج . وعند هبوط الليل في السابع من ايـلول (سبتمبر) ، اقتربت المراكب المحملة بالجنود من الشاطىء ، وأرست على مسافة آمنة منه في انتظار بزوغ الفجر . ويقول فرنكو ان الليل كان صافيا والبحر مرصعا بالانوار المتلألئة بينما كانت المراكب الصغرى تنزلق فوق مياهه . وفوق الجبال ، في المنتأى ، كانت نيران حراسة الريفيين تتوهج .

وأصدر الجنرال سان جورجو اوامره النهائية . خاطب قواته قائلا : « لايجـــوز لاحد أن يقف لالتقاط الجرحى ، باستثناء اولئك المعينين لهذا الغرض . واولئك الذين سينزلون على الارض سيعملون فورا على افراغ الماء والذخيرة . ويجب ألا يغرب عن البال ابدا أن العمل السريع من قبل الضباط عند الانزال ، وحثهم لجنودهم تحت النار ، سيضمنان نجاح العملية . ويمكن للضباط أن يحملوا في الحملة حقيبة وسريرا عسكريا، لكنه لايجوز افراغ هذه الاشياء أولا . وعلى كل عسكري ان يحمل مؤونة يومين مـــن الطعام البارد والخبز ، والذخيرة ، ومزودة ، وأربعة اغطية عسكرية ، وتجهيزات الالغام وضمادا حربيا فرديا ، ومدالية لاثبات الهوية ، وصواريخ للاضاءة والاشارة » .

وبوشر القصف الاسباني في الساعة الثامنة صباحا . ان البوارج الحربية الراسية في وسط الخليج قد أطلقت نيران مدافعها الكبيرة المائة والتسعين على الشاطىء ، كمـا ان الطائرات البحرية والطائرات الاخرى المنطلقة من قواعدها في مليلا قد قصفت بالقنابل وهاجمت بالرشاشات الساحل بأسره. كان يتراءى ان النشاط كله مركز داخل الخليج .

وعمدت حاملات الجنود الثلاث الراسية على بعد ٨٠٠ ياردة من شاطىء سباديلا الى انزال حمولتها وقوات الهجوم المحملة على ظهورها من دون أن يلحظ الريفيون ذلك تقريبا • كانت هذه المراكب تحمل مدفعية خفيفة ودبابات صغيرة، فضلا عن الجنود ، وكانت مقدماتها مصنوعة بحيث تنفتح حال الوصول الى الساحل • وتحركت البوارج في اتجاه الشاطىء ، واستقرت على بعد مائة ياردة من اليابسة في مياه ضحلة ، لكنها أعمق بعد من السماح بنزول الدبابات • لكن فرنكو لم يترددعلى حسب تعبيره ، بل أمر البواق ان يعلن الهجوم ، وقفز الى البحر ، يقود الفرقة الاجنبية ، واندفع جنوده خلفه والمياه تغمرهم حتى اكتافهم • وجاءت من الصخور المشرفة على الشاطىء ومن الجبل الجديد أصوات متقطعة لنيران الرشاشات والبنادق ، وبضع قنابل انفجرت في البحر من دون أن تحدث اضرارا البتة • وقفز فرنكو الى الشاطىء وغرز راية الفرقة البيضاء على الجرف فوقه • وشاهد على المرتفعات عددا من رجال القبائل يندفعون في اتجاه الحسيمة •

وحث عبد الكريم الخطا الى نقطة الخطر ، فاذا هو يصادف زعيم قبيلة بوكويا قادما من شاطىء سباديلا مع جميع رجاله ، يحملون رشاشاتهم • وحين سأله عن السبب في تخليه عن موقعه اجاب الزعيم بأن رجاله « أقل عددا من أن يقاوموا » • كان هذا التصرف الجبان تأكيدا لما راود عبد الكريم من شكوك في أن الرجل قد خانه ، وهو يذكر في مذكراته انه اعتقد ان زعيم بوكويا قد رشاه العملاء الاسبانيون • وفعل عبد الكريم مايستطيعه كي يصلح الضرر الحادث ، فأرسل رجاله الخاصين لاستخدام المدافع على قمة الجبل الجديد ، وبعث على جناح السرعة بقوة من الجنود النظاميين لرد الفرقة الاجنبية • كانت راية واحدة قد نجحت في النزول الى الشاطىء ، وبعدماشق رجالها الطريق الى اليابسة ، من دون تجهيزاتهم الثقيلة ، اضطرب البحر من جديد ، واضطرت البوارج أن تعود الى الحاملات • وتشبث فرنكو ورجاله يومين كاملين بموطىء القدم الذي حصلوا عليه • وانخفضت مؤونتهم من المياه والذخيرة ، وكانوا عرضة لهجوم مضاد عنيف من قبل الريفيين •

سألت : « لماذا سمح للاسبانيين بالاحتفاظ برأس الجسرالذي أقاموه ؟» كنتاقف على الصخور فوق شاطىء سباديلا حيث كان دليلي محمد بودرا (وليس له علاقة بوزير الدفاع في حكومة عبد الكريم) الذي كان صبيا في الرابعة عشرة من العمر عام ١٩٢٥ • ولقد عين نائبا عن الحسيمة عام ١٩٦١ ، وهو مركز احتفظ به حتى حل المجلس

النيابي المراكشي عام ١٩٦٥ • وأخبرني انه حمل الطعام والذخيرة الى خطوط الجبهة فوق شاطىء سباديلا ، وقال ان عبد الكريم ظل على قناعته السابقة بأن الانزال في سباديلا ليس اكثر من عملية الهاء القصد منها تحويل انتباهه عن الانزال الكبير الذي كان يتوقعه ضمن حدود خليج الحسيمة • وعلمت أن عبد الكريم كان يعاني من سوء آخر في التقدير ، وهو أمر لايصعب فهمه ، اذ كان يعتقد ان الاسبانيين أضعف على اليابسة منهم في البحر ، وكان يحسب أن في استطاعته القضاء على جيشهم كما فعل بنجاح عظيم فيما مضى •

ولعل عبد الكريم كان على حق نظريا ، اذ ان غزوا محمولا على البحر يكون في أوج نقاط ضعفه خلال مرحلته الاولية بالضبط • لكنه أخطأ في تقديراته ، لانه لم يكن يملك عددا كافيا من الرجال لحراسة الساحل بأسره ، كما اخفق في ادراك الحقيقة التالية ، ألا وهي ان الاسبانيين تلقنوا عبرا من كوارثهم المتلاحقة • ان الجيش الذي نزل في الريف عام ١٩٢٥ كان أشد فعالية بكثير من ذلك الجيش الذي تعثر وولى الادبار في أنوال ، كما إن سان جورجو وفرنكو كانا ضابطين يحسب لهما حسابهما • ومهما يكن من أمر ، فاني أعتقد انه كان في مقدور الريفيين رد فرنكو الذي تشبث بموطىء قدم متغلغل ، لكنهم سمحوا له بدلا من ذلك بالاستيلاء على مرتفعات الجبل الجديد الذي يتحكم في شاطىء سباديلا في الغرب كما يسيطر في الشرق على الجون الذي اشتهر فيما بعد « بالشاطىء المحترق » •

واستكان البحر في العاشر من ايلول (سبتمبر)، فاستطاع الاسبانيون انزال قوات اضافية في سباديلا • وحين أصبح الجبل الجديد في حوزتهم ، فقد قدموا الساحل داخل حدود خليج الحسيمة • وأقاموا رأسي جسر على جانبي اللسان المركزي الذي يفصل أجدير عن مرفأ الحسيمة ، تدعمهم في عملياتهم ست وعشرون طائرة جوية وبحرية لم تكف عن القاء قنابل الغاز السام ، والمدفعية البحرية فضلا عن ذلك • وهبطت احدى المجموعات الاسبانية على الشاطىء في مواجهة الحصن ، بينما استقرت مجموعة اخرى على الشاطىء المحترق • وكان لايبرح أمام الاسبانيين مهمة عسيرة تواجههم ، اذ ان صخورا عالية تقوم على عطفي الشاطىء المحترق ، والجبال فيما وراءه تنهض بحدة • وهبط الظلام قبل أن يتمكن جميع الاسبانيين من النزول • ونزل الى الشاطىء خلفهم جماعة من الريفيين قدموا بالمراكب من قسم آخر من الخليج ، وقد قضوا بسكاكينهم الطويلة على عدد كبير من الاسبانيين قبل ان يقتلوا جميعا •

ويقدم لنا فنسنت شيان ، الذي عاد الى الريف ، لمحة عن عبد الكريم في ذلك الوقت (انظر كتابه **بحثا عن التاريخ**) • ولقد وصل شيان الى أجدير في ملء « ضوضاء رهيبة » من القصف الجوي • لم يكن ثمة سبيل الى الافلات من الطائرات المحلقة في دائرة متصلة ، ويقول انه لم يشاهد قط طيارين يحلقون على هذا الانخفاض الشديد اويعودون الى الانقضاض بمثل هذه السرعة •

وعلى الرغم من ان منزل عبد الكريم كان في موضع مكشوف ، وكانت راية الريف خفاقة فوقه ، « فانه لم يكن عرضة للقصف عند وصولنا » • ومشى شيان الى البوابة الرئيسية وأخبر الحرس انه يرغب في رؤية « السلطان » كما يسمي عبد الكريم • وادخل الى المنزل ، كما لو انه كان في القصر الملكي في مدريد بدلا من ذلك الكوخ الطيني في الهضاب • وحين عبر شيان من نور الشمس المتوهج الى الغرفة القاتمة وقف يطرف بعينيه • ورحب به صوت قريب من ركبتيه باللغة الاسبانية ، وحين تطلع الى تحت شاهد عبد الكريم • « كان يجلس متصالب الرجلين على الارض قربي بالضبط وأسنانه غير المنتظمة تنكشف عن ابتسامة ودية ، ومد يده لمصافحتي • وجلست على وركي ، وتحدثنا ، تماما كما لو اننا كنا صديقين قديمين لم يفترقا الا قبل اسبوع واحد • كانت شكليات زيارتي السابقة قد نسيت » •

وقال عبد الكريم ، ردا على سؤال شيان بشأن الوضع : « لا فائدة من الحديث عن شروط الصلح حتى يعترف بريمو دي ريفيرا والآخرون باستقلالنا » • وبدا عليه أنه أشد اهتماما باكتشافه ان حذائي شيان قد اهترآ بفعل الطرق الريفية الوعرة وبحث له عن زوجين آخرين من بين كومة من الاحذية الاسبانية المستولى عليها •

ووصف عبد الكريم القتال فوق شبه جزيرة الجبل الجديد ، فكان صدى الرواية في أذني شيان أشبه بغاليبولي مصغرة • وبينما كان عبد الكريم يتحدث دخل ضابط وتحدث اليه بالبربرية • وقال عبد الكريم في مرح : « ان سربا من الطائرات قادم فيما يبدو بصورة مباشرة الى ما فوق هذا المنزل ، ولا بد لنا من أن نواصل حديثنا في الكهف » •

كنت قد تفقدت خلال زيارتي لاجدير ملجأ عبد الكريم ضد الغارات الجوية ، وهو كهف محفور في الوجه الامامي لجرف صخري على بعد ٢٥٠ ياردة من البيت ، يخفيه كوخ شيد عند مدخله •

وحين وصل عبد الكريم وشيان الى الكهف كانت الغارة قد بدأت • حلقت الطائرات على ارتفاع واطىء جدا ، ممطرة القنابل ومستخدمة رشاشاتها • وكانت القنابل تحدث

ضوضاء قاصفة داخل الكهف الذي لم يكن شديد العمق . واستوفز شيان داخل الباب ، بينما وقف عبد الكريم عند المدخل .

بينما كانت الطائرات تحلق فوق الجرف تماما تناول بندقية ووقف عند المدخل ، نصفه خارج الكهف ونصفه الآخر داخله ، وصوب بكل عناية . وتابع جملة كان قد بدأها (شيئا عن حد ادنى لا تراجع عنه بشأن شروط السلم) ، وأكد عليها كما يلي :

الاستقلال (بانغ !) .. المطلق (بانغ !) .. للريف (بانغ !) .

وعلى الرغم من الضيق الذي كنت استشعره دائما خلال هذه الغارات، فقد انتابتني قشعريرة لدى هذا المشهد . كان على مرأى قاذفات القنابل ، وكان من قبيل اللغز المحير انهم لم يصيبوه برشاشاتهم . كانت مشاهدة مثل هذا الاقدام ضد ذلك القدر من التفوق يمكن ان يكون صورة عن الحرب كلها : رجل واحد (وأعرج فضلا عن ذلك) ، يطلق النار من بندقية على سرب من الطائرات .

شاهد شيان ان عبد الكريم يعرض نفسه لخطر جسيم . لقد بقي عند مدخل الكهف طوال فترة الغارة الجوية ، ولم يترك بندقيته الا عندما ابتعد الطيارون . ولاحظ عبد الكريم : « لقد اسقطنا عددا كبيرا من الطائرات بنيران البنادق ، وهم عادة يحلقون عاليا جدا لتجنب هذه النيران . أتحب أن تتناول بعض الشاي ؟» وحين استفسر شيان ما اذا كان يستطيع مرافقته في جولة على مواقع خط القتال تلك الليلة ، أجاب عبدالكريم بشيء من الهزل انه لايستطيع ان يقبل برؤية الصحافي الوحيد الموجود الى جانبه وقد لقي حتفه . ويقول شيان ان هذا القول كان لسبب لاتفسير له ، من بين جميع الاشياء التي سمع عبد الكريم ينطق بها ، أشدها تمييزا واكثرها الحاحا . فليس ثمة امرؤ آخر في الموقف نفسه يمكن ان ينطق به بالطريقة ذاتها . ولقد جال في خاطر شيان أن ذلك يبين المزاج الاولمبي الطيب الذي يتحلى به عبد الكريم ، كما انه « دليل على عظمته » في الوقت نفسه .

ورافق شيان عبد الكريم حين خرج تلك الليلة ، لكنه لم يسمح له بالبقاء طويلا على اللسان البري ، لانه كان « مملكة القنابل اليدوية » . وكانت القنبلة اليدوية الريفية « وعاء من القصدير مليءبأي نوع من المتفجرات شاءت الصدفة ان يتوفر » . وارسل عبد الكريم شيان على جواده الابيض الخاص الى احد منازله في أجدير ، وفي تلك الليلة كتب شيان في دفتر مذكراته مايلي :

ان شجاعته رائعة • ولم تتبدل افكاره ، بل لعلهاتوطدت بفعل الخطر الراهن • وعرفت مما شاهدته عنه هذا اليوم اني لم اكن املك اية فكرة عنه من قبل • لقد كان عظيما ، وكانت عظمته تكبر بفعل ظروف الرعب والخطر الجسيم • لكنه يمزح رغما عن ذلك ، ويحب الهزل ، ولقد جعلني أضحك ، وبالخاصة حين يتخذ مظهر معلم المدرسة ويروح يصحح ما ارتكب من الاخطاء اثناء حديثي بالاسبانية •

وفي اليوم التالي ، جلس شيان فوق اللسان يكتب في دفتر مذكراته :

ان القصف شديد • ولقد اتخذ الاسطول الاسباني شكل الهـــلال عبر الخليج ، وهو يطلق النار • (يبدو فاتنا جدا) • وانجزيرة الحسيمة، الحصن ، تطلق النار أيضا ، والطائرات الاسبانية والفرنسية تلقيالقنابل طوال الوقت • وثمة منطاد فوق الجبل الجديد ـ المنطاد نفسه ـ لكنهيكاد لايتحرك ، وهو لايقصف مطلقا • يستكشف ؟ انه شيء فضي جميل فـــي عرض السماء الزرقاء •

وكان اليوم التالي يوما هادئا ، وقد رافق شيان عبد الكريم الى قمة احدىالهضاب استطاع منها ان يشاهد المشهد كله من خلال منظار مضيفه الممتاز • والتقط جميــــع التفاصيل عن المراكب الراسية بعيدا عن الشاطىء ، والمنطاد الفضي يحلق فوق احدها في السماء الصافية • كانت تتراءى جميعا ، في السكون ونور الشمس ، عديمة الضـــرر مثل لعب الاطفال • واذ كان شيانيتحدث لا على اليقين ، فقد قارن الحسيمة مع خليج مونت كارلو المنحني ، خاتما حديثه بما يسميه « الملاحظة الوقحة بصورة مخصوصة » ، وقدكان المزاح مقصودا منها ، ألا وهي أن عبد الكريميستطيع بعد الحرب أن يصنــــع هنا شاطئا لازورديا آخر ، مع كازينو في الحسيمة • واربد وجه عبد الكريم عند ذكـــر الكازينو ، وأعلن بعنفوان : « ليس في الحسيمة » • ولاحظت ان الحكومة المراكشيـــة الحالية قد تصرفت على هذا الغرار بالضبط ، وهي تطور الحسيمة على اعتبارها مكانا سياحيا • ولقد أتمت في الفندق الرائع الذي بني فوق الشاطىء المحترق مباشرة ، وقد اصطفت حواليه الاستراحات الفاتنة في الوقت الحاضر •

وكتب شيان ، وهو يفكر في وقت لاحق في زيارته الاخيرة لعبد الكريم :

كان يجسد شعبه في أفضل خصاله ، وكان يعبر عنه ويعرفه بصورة اعظم مما يمكن لاي انسان فرد ان يفعل في المجتمعات الاشد تعقيدا •وكانت

عبقريته هي عبقرية شعبه وقد رفعت الى قوة أعلى • وعلى الرغم من معرفته العظيمة بحضارة اوروبا وأفكارها ، فانه لم يشاهد للحظة واحـــدة قط العالم أو مشاكله الخاصة فيه من وجهة نظر رجل اوروبي • كان يراها كما يمكن لاي ريفي ان يراها ، وكان تفوقه يقوم في الواقع التالي ، ألا وهو انه كان في مقدوره ان يراها بوضوح اعظم ، وان يهاجمها بشجاعة اكبـــر وبذكاء اشد براعة • وكانت أفكاره السائدة واغراضه في الحياة قليلة جدا: وانه ليمكن ارجاعها جميعا الى غرض واحد ، ألا وهو « استقـــلال الريف الرؤيـــة بكلمات سافوتارولا : لقــــد كانت أغراضـــي عظيمـــــة •
المطلق » • ولقد كان في مستطاعه أن يدافع عن هذا الضيق الظـاهري في وفي بلاد كبلاده ، حيث لايكاد التنظيم الاجتماعي يتجاوز المرحلة الرعوية ، لابد ان يكون طموح البشر الاول هو نحو الحرية دائما ، ولا بد ان يكون الواجب الاسمى للقائد فيما بينهم هو تأمين هذه الحرية • ولم تكن وحدانية غرض عبد الكريم ، في هضاب شعبه الخاص ووديانه في تلك اللحظة المحددة من تاريخه ، دليلا على قصر البصر ، بل كانت دليلا على العظمة •

وما كان يمكن أن يبدو قط وجها اكثر بطولة مما بدا لي خلال تلـك الايام • ان افضل سياسيي اوروبا التافهين ليتراؤون اشبه بالدمى تلقاء صفاته • ولو انه اتيح لي أن أبقى في أجدير وان اتأمل هذه الظاهرة وقتا أطول ، فلقد كان ايماني يتجدد في قدرة الجنس البشري على الارتقاء فوق ذاته ـ قدرته على أن يبلغ ، مهما تكن المناسبات نادرة ، القمم التي يشـير الى امكانية الوصول اليها قدر كبير من ادبياته الخاصة وتقليده الخاص•

وحين كتب شيان فيما بعد عن زيارته للمفتي الكبير في القدس ، وهو الذي يصفه على اعتباره « وطنيا متزمتا » ، فقد أشار الى انه « يذكرني من حين لآخر بعبد الكريم ، وأنا لا اعرف اطراء اعظم من هذا الاطراء » •

في الرابع عشر من ايلول (سبتمبر) ، هبت الريح الشرقية على الساحل المراكشي، لكن الاسبانيين نجحوا ، رغما عن البحار الهائجة ، في انزال ١٥٠٠٠ رجل الى الشاطىء حتى العشرين من الشهر • وقاوم الريفيون بعنف ، لكنهم ردوا الى الخلف الى الجبال الواقعة ما وراء الخليج • واخبرني محمد بودرا ان معارك ضارية عنيفة قد وقعت • فقد استحكم خمسون ريفيا في الخنادق في أحد الامكنة ، وقد امسكوا نارهم حتى وصل

الاسبانيون الى متاريسهم ، وعندئذ اطلق كل رجل منه خزانه بكامله • وقتلوا ٧٠٠ اسبانيا وماتوا عن آخرهم • وقد هزت مقاومتهم الاسبانيين الذين ادركوا انهم سيضطرون الى القتال من أجل كل شبر من الارض •

وأمر سان جورجو بتقدم عام • وقاد فرنكو احد الارتال لتسلق المرتفعات الوعرة الى الامام منه ، بينما سعى رتل آخر الى الالتفاف حول الريفيين الذين كانوا يختبئون في الكهوف والشقوق ، وقد زرعوا بالالغام الطرق المؤدية الى مكامنهم • وكان انفجار هذه الالغام غير المتوقع سببا في هلع الاسبانيين ، حتى تمكن فرنكو اخيرا من اعادة تجميع رجاله • وشن هجوما على القمة ، وغرس الراية الاسبانية على أعالي جبل ملموسي، بينما كان جنود الفرقة الاجنبية يجهزون على آخر الريفيين المقاومين •

كان يمكن اعتبار أجدير مفقودة بعدما تحققت السيطرة عليها من جبل ملموسي • وتقدم الاسبانيون على العاصمة الريفية ، وفي الثلاثين من ايلول (سبتمبر) استولوا على جبل بالوماس ، وهو أقرب من جبل ملموسي الى أجدير • وجلا الريفيون عن المدينة وتقهقروا فوق الجبال نحو الجنوب • وانتشرت انباء سقوط أجدير في ارجاء الريف ، وأعلن بريمو دي ريفيرا : « اننا سننتهي من مسألة الريف خلال بضعة اشهر »• وأصدر بيانا طبع باللغة العربية ووزع على نطاق واسع بواسطة الطيران ، يمنح الريفيين ثلاثة أيام الاستسلام : ان الاستسلام وحده يمكن أن ينقذهم من أشد العقوبات • ولسوف يمنح العفو لجميع الذين يلقون السلاح • لكن هذا العفو لاينطبق على عبدالكريم، كما كان البيان يعلن ، بل تجب معاقبته ، وقد صدر الامر الى رجال القبائل بتسليمه ، حيا أو ميتا •

الحكم الذاتي أو الاستقلال

اندفع الفرنسيون ايضا خلال شهر ايلول (سبتمبر) ، فاحتلوا من جديد الاراضي القبلية التابعة لبني زروال ، واسترجعوا أو أنقذوا الحصون المحاصرة شمالي نهر الورغة . لقد مد الفرنسيون بالنجدات ، وجهزوا بالطائرات والدبابات ، فاستطاعوا أن يسحقوا المقاومة الريفية . ولقد أذهلت الدبابات الفرنسية الرماة الريفيين ، المختبئين في الكهوف والمستلقين خلف الجدران الحجرية . كانوا يحسبون انهم في حماية تامة ، وينتظرون بهدوء وصول الدبابات ، متأهبين للقفز عليها حين توقفها الجدران ، كما فعلوا بسيارات الاسبانيين المصفحة . وكانت الدبابات تتقدم باستقامة نحو الحاجز، ومن دون ان تتمهل ترتفع بكل سهولة فوق الجدران ، ثم تهبط ، فينهار الجدار تحت ثقلها ويسحق الريفيين . ويعتقد البروفسور كارلتون كون ، الذي سمع روايات الريفيين عن حرب الدبابات ، انه « لولا استخدام الطائرات والدبابات من قبل عدوه ، فقد كان في مقدور عبد الكريم ان يجمد حركة الجيش الفرنسي الى مالا نهاية » .

وقاتل عبد الكريم حتى انتهت امطار الشتاء بالحملة في الجنوب ضد الفرنسيين وفي الشمال ضد الاسبانيين الى التوقف . وعاد المارشال بيتان الى باريس في تشرين الثاني (نوفمبر) حيث اخبر الصحفيين قائلا : « ان مهمتي العسكرية قد انتهت ، وأنا أسلم الموقف الى رجال السياسة » . وقال ان قوة عبد الكريم قد تحطمت ، وان هزيمته الاخيرة لم تعد الا قضية وقت .

وانقضى شتاء عام ١٩٢٥ وربيع عام ١٩٢٦ في محادثات السلام التي قام بالخطوة الاولى فيها الانكليزي ضابط الفرسان السابق ، النقيب غوردون كانتغ ، رئيس لجنة الريف التي انشئت في تموز (يوليو) ١٩٢٥ بالاشتراك مع اللجنة الاميركية التي تشكلت

في سبرنغفيلد من ولايو ماساشوسيتس برئاسة هربرت مايرون • كان غوردون كاننغ قد زار الريف عام ١٩٢٤ بوصفه ممثلا عن جمعية الهلال الاحمر التي كانت تأمل في توفير المعونة الطبية للريفيين • وقد رفض الاسبانيون الاذن بدخول المعونات ، فرجع غوردون كاننغ الى أوروبا وقد اصبح صديقا حميما للريفيين الذين لم يخف اعجابه بهم •

وفي أعقاب بيان رسمي اذاعه في ٣ تشرين الاول (اوكتوبر) رئيس الوزراء الفرنسي بانلوفيه وعرض فيه على الريفيين « حكما ذاتيا متحررا قدر الامكان »، قام غوردون كاننغ بزيارة بانلوفيه الذي أكد أن « الحكم الذاتي الذي تفكر فيه الحكومتان الفرنسية والاسبانية يضارع الاستقلال مع بعض القيود القليلة » • واكد وزير الخارجية بريان هذا التفسير للشروط الفرنسية الاسبانية المتعلقة بالصلح ووافق على أن ينقلها غوردون كاننغ الى عبد الكريم • وذهب كاننغ الى مراكش حيث استقبله المقيم العام الفرنسي المعين حديثا ، تيودور ستيغ ، وشرح له عبارة « الحكم الذاتي » كما يلي :

> اذا ما فهم عبد الكريم معنى هذه الكلمة الحقيقي ، فانه سيكتشف انه سيكون في حوزته جميع السلطات من اجل ادارة بلاده الخاصة ، هذه السلطات التي يطالب بها حاليا تحت اسم « الاستقلال » • ان فرنسا واسبانيا على استعداد لان تترك للريفيين امر ادارة انفسهم ، واستغلال ثرواتهم الطبيعية كما يحلو لهم ، تحت سلطة زعيم يختارونه بأنفسهم •

وقال غوردون كاننغ : انه سيبذل مافي وسعه كي يفسر كلمة « الحكم الذاتي » ونوايا الحكومتين الفرنسية والاسبانية في استخدامهما هذه الكلمة ، وانه سيحاول ان يثبت للزعيم الريفي انه ليس هناك اي شرك او خدعة دبلوماسية وراءها • واستفسر غوردون كاننغ : « هل يرضي الحكومة الفرنسيةأن يعترف عبد الكريم بسلطان الحكومة الروحي من دون سلطانها الزمني ؟ » فأجاب المقيم العام : « أجل ، سيكون هذا كافيا » • وقرر ستيغ انه اذا مارجع غوردون كاننغ حاملا موافقة عبد الكريم ، فانه سيأمر بهدنة في الحال •

ودخل غوردون كاننغ الريف ، معتقدا ان الشروط كريمة وان معناها واضح ، ووصل تارجيست حيث استقبله محمد الخطابي الذي أخبره انعبد الكريم أعطاه السلطة لمناقشة كل مايمكن أن يكون لازما من اجل تحقيق الهدنة • وقال الخطابي ان غوردون كاننغ قد كسب ثقة الريفيين بفضل جهوده التي لاتكل من أجلهم ، وهم

لا يشكون مطلقا بصدق غرضه ، لانه كان الوحيد من بين وسطاء الصلح الذي لم يطلب شيئا لقاء خدماته ، من نمط التنازلات المنجمية او التجارية ٠

وأوضح غوردون كانبغ ان الحكومتين الفرنسية والاسبانية مستعدتان لمنـــح الريفيين الحكم الذاتي ، لكن ليس الاستقلال ، وألح على أن قبولهم هذه الشروطسيكون عملا شجاعا ، لانه سيثبت ان نواياهم السلمية صادقة ٠ وقال انه يدرك ان عبـارة « الحكم الذاتي » عبارة غامضة ومليئة بالمخاطر ، لكنه يعتقد ان السياسيين الفرنسيين صادقون ٠ وأردف أن كلا بانلوفيه وستيغ قد وافقا مبدئيا على لقب « الامـير » بشأن عبد الكريم ، واقترح أن تقبل شروطهما ٠

وبعد مناقشة طويلة ، وافق محمد الخطابي على تسطير وتوقيع مذكرة تبين وجهة نظر الحكومة الريفية ٠ وكانت هذه المذكرة تقرر مايلي :

١ ــ توافق حكومة الريف على قبول الحكم الذاتي وتضع جانبا المطالبة بالاستقلال التام على أساس ان بعض الامتيازات ستضمن للامة الريفية في ظل الحكم الذاتي ٠

٢ ــ توافق حكومة الريف على الاعتراف بالسيادة الروحية لسلطان مراكش ٠ ولا يحق لاي من الحكومتين الفرنسية والاسبانية استخـــدام هذا الاعتراف بغرض الدعاية المعادية بين قبائل الريف بواسطة الشرفـاء (أي الزعماء الدينيين) ٠

٣ ــ ان حكومة الريف على استعداد للاعتراف بمبدأ الباب المفتـوح في التجارة ، وقبول التعرفات الجمركية الحالية كما هي مقررة في مراكش (ويستثنى من ذلك أي منتج ريفي خاص اذا ما جعلته هذه التعرفات فـي وضع جاحف)٠

٤ ــ ان حكومة الريف ستطالب بالحق في انشاء قوة للشرطة يأمرها قادتها الخاصون ٠ وسوف توضع هذه القوة على نفس النسبة التي للقوات الفرنسية تجاه السكان المغاربة في المنطقة الفرنسية ٠ وان فائض الاسلحة على المطلوب من اجل تسليح هذه القوة سيباع خارج البلاد أو يدمر ٠

٥ ــ ان حكومة الريف توافق على عدم الدخول في أية معاهـــدات مع الدول الاجنبية ٠ وان فرنسا أو اسبانيا ستمثلان مصالح الريف في الشؤون الدوليـــة ٠

٦ ــ ان رئيس دولة الريف سيحصل على لقب الامير ·

٧ ــ تكون تطوان عاصمة هذه الدولة ·

٨ ــ تتألف المنطقة الاسبانية من مليلا وسبته والعرائش ، مع مناطق تتراوح بين ٢٠ ــ ٢٥ كم عمقا · وتقترح حكومة الريف أن تشكل انجيرا قسما من المنطقة الدولية ·

٩ ــ ان القبائل المقيمة على ضفتي نهر الورغة،وبعض القبائل الجبلية، ستنضم الى منطقة الريف ·

وحين أصر غوردون كاننغ على ضرورة الحصول على موافقة عبد الكريم الشخصية على هذا البيان ، أرسله محمد لرؤية اخيه · وقام غوردون كاننغ ، خلال رحلته الى مقر القيادة الريفية ، بمشاهدتين نافعتين · فقد حصل على اثبات شخصي عن استخـــدام الاسبانيين للغاز السام ، وتصريح الصحافي السويدي ألكسندر لانغريه الذي التقى به والذي اخبره انه شاهد عدة اصابات بين الجنسين وفي كل الاعمار من تأثير الغاز السام؛ فقط لاحظ لانغريه قروحا ناتحة رهيبة تنتشر فوق البدن بأسره و لايملك الريفيون علاجا لها · وشاهد غوردون كاننغ ايضا عددا من الاسرى الاسبانيين الذين يفتقرون الـــى الملابس،وبالخاصة الاحذية · ويقول ان طعامهم هو نفس الطعام الذي يتناوله الجنـــود الريفيون ، وهو لم يلاحظ أي دليل على المعاملة السيئة · ويقول ايضا : ان نسبةالوفيات المرتفعة بين الاسرى كانت مسببة عن نقص الادوية التي رفضت الحكومة الاسبانيـــة نفسها السماح بدخولها الى الريف ·

وقدم ازرقان وبوجيبار غوردون كاننغ الى عبد الكريم · ويقول غوردون كاننـــغ عن عبدالكريم ، بعد عودته الى انكلترا ، مايلي : « كان الزعيم الريفي مثالا عن الوطنيـــة الاكثر تجردا ، والاخلاص الاكثر نقاء لقضية بلاده وشعبه · اني لم أجد أيأثر للطموح المتعجرف أو المطالب الشائنة ، بل مجرد الرغبة البسيطة في الحصول على شكل مـــن الحكم اكثر أو أقل استقلالا من أجل مواطنيه وفي العيش بسلام مع جيرانه »·

وتحدث بوجيبار باسم عبد الكريم : « ان سموه قد شاهد أخاه ، سيدي محمد ، وناقش بصورة جامعة اقتراحات الصلح التي حملتها معك · وانه لموافق كليا على ماسجله اخوه وانت نفسك في المذكرة ، وسوف يمنحك السلطات الضرورية للتصرف باســـم

حكومة الريف ، على أساس استلام شروط الصلح الفرنسية الاسبانية وتقديم المذكرة على اعتبارها بيانا رسميا عن آرائه » .

وأوضح عبد الكريم انه متفق مع اخيه كليا ، فلا حاجة لمزيد من الايضاحات .

وصادف غوردون كانغ ، في مناقشاته مع اعضاء من حكومة الريف ، الموافقة المطلقة على أنه من واجبهم مواصلة القتال ، حتى لو ادى الى الهزيمة ، بالاحرى من قبول صلح يكون معناه الخضوع وفقدان الاستقلال . وأعلن الوزراء انهم سيكونون « خونة لاولئك الذين استشهدوا » اذا هم رضخوا . وابتسموا حين استشهدوا بالمثل الفرنسي ، وأضافوا قائلين : « لكنه من المؤكد انه يفترض فينا ان نكون مجردين عن جميع المشاعر . ان اوروبا تشكل « زاوية » للحضارة والعقل ، والامم الاوروبية وحدها تستطيع ان تنادي بالوطنية وبالحوافز السامية على اعتبارها الهاما لها واغراضا ! شكرا ، لقد برهن لنا الاسبانيون على قيمة الاخلاق الاوروبية ! »

وفي تلك الليلة ، بعد العشاء ، تحدث غوردون كانغ بصورة غير رسمية مع عبد الكريم وبوجيبار وازرقان . وتكلم عبد الكريم عن الحاجة الملحة الى الاطباء والى مساعدات الصليب الاحمر ، وقال انه لمن حسن الحظ ان الخسائر الريفية لم تكن عديدة ، باستثناء القتال حول بيبان وفي الجبل الجديد ، أثناء الانزال الاسباني . واذ حسب غوردون كانغ ان اللحظة مناسبة ، فقد أخبر عبد الكريم بالانذار الذي طلب منه ان ينقله من الجنرال الفرنسي بواشو ، ألا وهو انه اذا لم يعقد الصلح ، فان قواته ستقسم الريف وفقا لخط يذهب من تازه حتى أجدير . وأجاب عبد الكريم : « قد يكون في مقدور الفرنسيين أن يفعلوا ذلك ، لكن البلاد أصعب مما يفترضون . ومهما يكن من شيء ، فاذا هم نجحوا في هذه العملية ، فسوف انسحب الى المناطق الجبلية بين تارجيست وشفشاون ، ومن هناك سأواصل حرب الغوار أطول مدة ممكنة » .

ولم يتابع غوردون كانغ القضية اكثر من ذلك . واستقبله محمد الخطابي في الغداة ، وسلمه رسالة موقعة من عبد الكريم ليوصلها الى باريس :

بسم الله الرحمن الرحيم ، له الحمد والشكر

اني أعلم الحكومتين الفرنسية والاسبانية بهذه الرسالة اننا نخول البريطاني ، السيد غوردون كانغ ، أن يستلم باسم حكومة الريف شروط الصلح التي عرضتها فرنسا واسبانيا في شهر تموز (يوليو) ١٩٢٥ ، هذه

الشروط التي يمكن أن تعمل أساسا في مفاوضات الصلح ، وذلك كيما نطلع على هذه الشروط ، وندرسها ، ونقرر ما اذا كنا نستطيع قبولها أو رفضها ·

والسلام عليكم

١٦ جمادى ١٣٤٤

محمد بن عبدالكريم الخطابي

كانت هذه الرسالة تضم كل ما اعتبره ستيغ ضروريا من أجل جمع المقاتلين في مؤتمر ، وبالفعل فانه حين وصل غوردون كانيغ الى باريس في الثلاثين من كانون الاول (ديسمبر) ، فقد تلقى رسالة شخصية من ستيغ يهنئه فيها على نجاحه في مهمته · لكنه بينما كان غوردون كانيغ في مراكش ، تغير الجو السياسي في فرنسا · فقد خلف بريان بانلوفيه في رئاسة الوزارة ، وأصبح الحزب المناصر للحرب في صعود · وحين طلب غوردون كانيغ الاذن بتقديم تقرير عن مهمته ، رفض بريان استقباله ، ثم اتهمه في خطاب ألقاه في مجلس النواب بأنه « فضولي ، متطفل ، مغامر اجنبي ، ربما صنيعة المصالح التجارية البريطانية » ، وأعلن ان غوردون كانيغ « محاط بأشخاص مهتمين او طامحين بامتيازات المناجم الريفية » ·

وفي رأي الكولونيل دوماس ان غوردون كانيغ كان راغبا في أن « تعقد فرنسا صلحا مشؤوما مع عبد الكريم » · ويشكو دوماس من ان تيودور ستيغ ارسل غوردون كانيغ في مهمة دبلوماسية الى القائد الريفي ، ويقول « انه اهمل من قبل حكومتنا عندما ارتفع الاحتجاج على ذلك » ·

وقد جاء الاحتجاج من عدد من ضباط الجيش الذين كانوا مصممين على مشاهدة عبد الكريم وقد لحق الذل به ، وقد احبطوا رغبة المقيم العام في عقد الصلح بواسطة المفاوضات · وقد عمدت الحكومة الفرنسية ، كيما تغطي التغير الطارىء على سياستها ، الى اتهام غوردون كانيغ بدوافع دنيئة · كان اهتمامه بأمر الريفيين ، دون امل في الحصول على ربح شخصي ، يبدو في نظر الفرنسيين جنونا لايصدق ولايعقل · وقد اخبرني غوردون كانيغ عام ١٩٦٤ أن تدخله في الشؤون الريفية قد كان له حافز وحيد ، ألا وهو رغبته في مساعدة الناس الذين التقى بهم وأحبهم في زيارته السابقة حين دخل الريف كي يعلم ، باسم جمعية الهلال احمر ، ماهي المساعدات الطبية اللازمة على جناح السرعة ، وكيف يمكن ادخالها الى الريف ·

وفي أعقاب فشل مهمة غوردون كانغ باسمه ، اوضح عبد الكريم آراءه في رسالتين كتبتا في ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٦ ، احداهما الى غوردون كانغ نفسه والاخرى الى رئيس تحرير **التايمز** الذي نشر رسالته في ١٧ آذار (مارس) ٠وكان موضوعه واحدا في الرسالتين : لقد أظهر الريفيون نواياهم الطيبة ، وهم راغبون في عقد صلح شريف ٠ واذا ما انكر هذا عليهم ، فسوف يواصلون القتال ٠

ولما كان عبد الكريم عاجزا عن استخدام الاقنية الدبلوماسية العادية ، فقدتحدث الى الكسندر لانغريه الذيتجول في الريف من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٥ حتى شباط (فبراير) ١٩٢٦ ، والذي كتب فيما بعد عن خبراته في **مانشستر غارديان** ، قائلا : انه تحدث مع عبد الكريم طوال ثلاث ساعات بشأن مساعدات الصليب الاحمر وامكانيات السلام ، فأخبره عبد الكريم انه « مد يده مرة ولم تقبل ، وهو لن يفعل ذلك مرة ثانية » ٠ وحين سئل عن السبب في رفضه الشروط المعروضة في تموز (يوليو) ، أكد عبد الكريم انه لم يتلقها قط ٠ وحين طلب منه ان يبين ماهي الشروط التي يقبل بعقد الصلح على أساسها ، قال عبد الكريم :

« ان الشيء الوحيد الذي لايمكن ان نتنازل عنه قط هو حقنا في الاهتمام بأنفسنا ٠ وأنا لا اعنى بالجانب الصوري من الامر ، أسمي ذلك حكما ذاتيا أو استقلالا ، وأما بشأن علاقاتنا بالامم الاخرى ، فاننا على استعداد لان نعمل مايقال لنا ٠ كذلك لن أكون متعصبا بشأن الحدود »٠

« هل ستصر على تطوان وأجدير ؟ »٠

« على أجدير ، أجل ٠ لماذا يجب ان تبقى اسبانيا هناك بعد الصلح في بقعة عديمة النفع في قلب أرضنا ؟ لكنني لن اصر على تطوان ، اذا كان السلام متوقفا على هذه النقطة ٠ وانه لفي رأيي ان من واجب جميع المراكشيين أن يطردوا اسبانيا وفرنسا من مراكش بأسرها ، وان يصنعوا من مراكش ما كان مقصودا ان تكونه — امبراطورية شريفية ٠ لكنه لما كان هذا الامر مستحيلا فيما يبدو ، أو هو يتطلب زمنا طويلا ، فانا على استعداد للاعراض عن هذا الواجب بحيث نستطيع ، نحن الريفيين ، أن نعمل في سلام ونجعل من بلادنا امة متحضرة »٠

واستفسر لانغريه ما اذا كان عبد الكريم يعتقد أنه على قدر كاف من القوة كي يصر على الاستقلال ، فأجاب على هذا السؤال بتواضع بسيط وفخور : « لا استطيع ان اقول

ذلك • اننا شعب صغير ، تهاجمنا امتان كبيرتان ، ولعلهما تكونان قويتين جدا بالنسبة الينا • لكنهما على أية حال لن تحكما قط احدا من الريفيين • ان أهل الريف الحقيقيين لن يستسلموا قط ، ولن يكون اعداؤنا ابدا في أمان هنا حتى يعطونا صلحا معقولا أو يقتلوا آخر رجل ريفي • اننا راغبون في السلم بقوة • لكننا تحت تصرفهم • فاذا هـم أرادوا السلم فنحن متهيئون ، واذا هم أرادوا ان يقاتلوا فنحن متهيئون ايضا » •

ان شهرين من التجوال قد اقنعا لانغريه بأن كل الاحاديث الفرنسية والاسبانية عن انهيار المعنويات والفوضى في الريف احاديث زائفة • كان يبدو ان سلطة عبـد الكريم سلطة مطلقة ، وكانت قوانينه نافذة المفعول • وقال لانغريه محدثـا قراءه : « يمكنكم ان تناموا على الطريق في الريف ، الامر الذي لاتستطيعونه لافي المنطقةالفرنسية ولا في المنطقة الاسبانية »•

وكان السيد ستيغ ، المقيم العام في مراكش الفرنسية ، رغما عن الصدود الذي لقيه غوردون كانثغ من جانب بريان ، راغبا بعد في انهاء النزاع المسلح بالمفاوضات اذا كان هذا الامر في حيز الامكان • ولقد حصل على موافقة حكومته وموافقة اسبانيا عـلى القيام بمسعى اخير من أجل حمل عبد الكريم علىالتعقل ، الامر الذي اثار حفيظة عدد كبير من ضباط الجيش •

* * *

في اوائل نيسان (ابريل) ١٩٢٦ ، قبل توقف امطار الشتاء عن الهطول ،اقترحت الحكومتان الفرنسية والاسبانية ، وقبل عبد الكريم ، ان يلتقي مندوبوهم في أجـدة، في القسم الشرقي من الريف ، في مؤتمر لمناقشة شروط الصلح التي حددتها الحكومتان الفرنسية والاسبانية كما يلي : ١ ــ الاعتراف بسلطان مراكش ؛ ٢ ــ نزع سـلاح القبائل ؛ ٣ ــ اطلاق سراح الاسرى ؛ ٤ ــ ابعاد عبد الكريم عن الوطن • ولسوف يستمتع الريفيون ، لقاء القبول بهذه الشروط ، بحالة من الحكم الذاتي الملائم للمعاهدات القائمة• وأعلنت هدنة ، والتقى المندوبون في ١٥ نيسان (ابريل) ، وكان وزير الخارجيةأزرقان يمثل الحكومة الريفية •

وقدم المندوبون الفرنسيون والاسبانيون في الحال مطلبا باطلاق سراح الاسرى والسماح لقواتهم باحتلالبعض المواقع الاساسية كمقدمة للمؤتمر • ويقول ولترهاريس، الذي كان موجودا في أجدة ، ان الانطباع الذي تركه هذا المطلب في الريفيين كان انطباعا

سيئا جدا ، وقد أعلنوا انهم مستاؤون لانهم اجتذبوا الى مائدة المفاوضات بمزاعم زائفة ٠ ويشير هاريس الى ان هذه المحاولة الفرنسية الاسبانية للخديعة قدكانت خطيئة ، وانه على الرغم منأن الفرنسيين والاسبانيين سحبوا مطاليهم اخيرا ، فقد كان من الافضل بما لايقاس لو انهم لم يقدموها البتة ٠ وفضح ازرقان هذه المحاولة امام مراسلي الصحف على اعتبارها احتيالا ، الامر الذي اذهل المندوبين الفرنسيين والاسبانيين وأثار حفيظتهم ٠ لكنهم لما كانوا قد استخدموا هم انفسهم وسائل الاعلام ذاتها ، فانه لم يكن فيمقدورهم الاعتراض على سلوك الريفيين المنهج عينه ٠ ولقد اكد ازرقان انه لم يأت الى أجدة ليحافظ على السرية ، بل ان الريفيين ليرغبون في أن يضعوا قضيتهم امام العالم اجمع ٠ ويروي هاريس ان اقتراحه بدعوة مراسلي الصحف الى اجتماعات المؤتمر قد ألقت البلبلة بين الدبلوماسيين ، لكن وزير الخارجية الريفية صرح قائلا : «ليست لدينا اسرار وفي نيتنا أن نعرض الامور جميعا بصورة علنية » ٠ وانسحب المندوبون الريفيون الى تاوريت ٠

ويعلل ولتر هاريس رفض الريفيين اطلاق سراح الاسرى قبل افتتاح المؤتمر بسبب بائس ، فيقول ان معظم الاسرى كانوا قد قضوا ، ولم يكن عبد الكريم يجرؤ على كشف هذه الحقيقة ٠ ان اطلاق سراح الباقين منهم على قيد الحياة سوف يحمل الىخشبة المسرح عصابة من الرجال البائسين ، المرضى ، المحطمين ، مع عدد قليل من النساء والاطفال ٠ « ولن يستطيع الريفيون مواجهة الاحتجاج الذي سيرتفع أمام هذا الدليل عن الهمجية التي عومل بها هؤلاء الناس البائسون » ٠ ويزعم هاريس ان أزرقان أعطى الريفيين الحق ، في ختام المؤتمر ، لرفضهم اطلاق سراح الاسرى ، مقدما هذا البيان غير المعقول : « لايمكننا ذلك ، اذ ان بؤسهم سيبعث الرعب في أوروبا » ٠ وان هاريس يزعم كذلك ان أزرقان لم يعترف ، حتى في ذلك الحين ، بأنه لم يبق ضابط اسباني واحد على قيد الحياة ، وأقل من ذلك انهم قضوا جميعا في ظروف مشبوهةجدا٠

وبينما يقبل هاريس بأن أسرى الريفيين قد لاقوا معاملة سيئة يتساءل ما اذاكان يمكن لهذا الامر ان يستدعي العجب ٠ كانت الحرب قد اجتاحت الريف ، وكذلك المرض والمجاعة ٠ وكان الجرحى في جميع القرى على وجه التقريب يستلقون دونما معالجة ودونما أدوية ، فهم لم يحصلوا طوال سنوات الحرب الخمس الا على العناية الطبية الاكثر بدائية ، وهم لم يسلموا قط رغما عن آلامهم الرهيبة من نيران المدفعية والقصف الجوي ٠ ولم تكن الوحشية مقتصرة على الريفيين ، بل لقد وقعت اعمال انتقامية في

اكثر من جبهة واحدة ، وكانت هذه الاعمال تضارع أعمال الريفيين في همجيتها ، » بل لقد كانت من وجهة نظر واحدة اسوأ من ذلك ، لان فاعلها قد كان جيشا أوروبيا يعمل ، بفعل ما يشكل انتدابا من جانب اوروبا ، على اعادة السلم والنظام الى بلد مكروب » • وان هاريس ليؤكد ان هذه التصرفات الهمجية قد حصلت على التأييد التام حتى جاء بريمو دي ريفيرا ووضع لها حدا •

وانه لمن الصعب تمييز الحقيقة بشأن معاملة الريفيين للاسرى • ان الكثيرين من الاسرى قد قاسوا او قضوا من أمراض كان الريفيون انفسهم منيعين ضدها ، كما قضى آخرون من جراح رفضت الحكومة الاسبانية أن تسمح بدخول المواد الطبية الى الريف من أجل العناية بها • ولقد عرض عبد الكريم طوال الحرب مكافآت نقدية من اجل تسليم الاسرى اليه بأمان ، لان «الاسرى يساوون السلاح » كما يذكر في مذكراته • انهم يفتدون وهم أحياء ، أما موتى فانهم لاينفعون احدا • أما رفض الريفيين تسليم الاسرى كمقدمة للمؤتمر فيمكن عزوه الى رغبتهم في الاحتفاظ بسلاح قوي للمساومة • وان الاطباء الفرنسيين الذين نجحوا اخيرا في اسعاف الاسرى لم يلاحظوا انهم كانوا يعانون من اي شكل مخصوص من اشكال سوء المعاملة •

ولقد تحدث هاريس مع ازرقان والمندوبين الريفيين الآخرين قبل عودتهم الى أجده• ولقد اكد هاريس لازرقان ، خائفا من أن يتأثر الريفيون بالامل في التدخل البريطاني ، بأنه يكون من قبيل الجنون بالنسبة اليهم ان يبحثوا عن المساعدة الخارجية • واخبره أزرقان ان الريفيين قد اجبروا في تموز (يوليو) ، حين رفضوا الشروط المعروضة عليهم ، ان يواصلوا القتال ، وأن الرجاء قد قدم اليهم بصراحة من قبل الاشتراكيين الفرنسيين بشأن اسقاط حكومة باريس والتدخل البريطاني • وقال أزرقان انه يفهم الآن ان عرض تموز (يوليو) لايمكن أن يكرر ابدا ، بل لقد ذهب بصورة نهائية •

وحين عاد المندوبون الريفيون الى أجده في ٢٦ نيسان (ابريل) اكدوا رفض عبد الكريم البحث في المطالب الجديدة • واسقطت هذه المطالب واستمرت المفاوضات • وكشف المندوبون الاسبانيون عن نية حكومتهم بخصوص مستقبل الريف • وان ولتر هاريس الذي سمع الاسبانيين يعبرون عن آرائهم ، يصفهم كما يلي :

كانت الحكومة الاسبانية راغبة في ان تقصر العمل الاسباني في مراكش ضمن حدود المصالح الوطنية في اتفاق تام مع الاتفاقات الدولية ،

وانه لفي نية الحكومة ، كيما تنفذ هذه السياسة ، ان تقصر نشاطها في الريف ومناطق الجبالا على الاستمرار في امتلاك اماكن الاقامة التي كانت اراضي اسبانية منذ زمن طويل ـ مليلا ، الحسيمة ، سبته ، والحصون الصغرى الاخرى ـ وعلى احتلال بعض النقاط الاخرى ذات الاهمية الستراتيجية التي سيتفق عليها في حينه . وان الحكومة الاسبانية لعنية جدا بتجنب اية مغامرة جديدة في داخل المنطقة ، أو أي احتلال عسكري لاي من المناطق النائية ، لكنها تأمل ، بفضل سياسة الود والمساعدة والصداقة ، أن تعيش في رابطة ودية وثيقة مع القبائل . وانه لفي نية الحكومة الاسبانية ان تمنح المعونة المالية والتقنية والطبية الى المولدين ، وانه ليؤمل بهذه الطريقة تحقيق نشر السلام في البلاد . وان الاشغال العامة ، وبالخاصة الطرق وتشجيع العلاقات التجارية سوف تشكل قسما كبيرا من هذا البرنامج . وان الحكومة لتعتقدان مرحلةمن السلام والازدهار ستنجم من جراء ذلك . ولا تستطيع السلطات الاسبانية ان تمارس الاشراف المباشر على القبائل في داخل البلاد ، بل ان السكان سيدعون الى البحث عن المشورة والتحكيم في شؤونهم المحلية على يد موظفين أكفاء . ولسوف يمنح كل تشجيع من أجل المحافظة على القانون والنظام بين القبائل ، وسوف تكون الحكومة الاسبانية مستعدة لان تضع ضباط شرطة اكفاء ومشاورين تقنيين تحت تصرف رجال القبائل ، فيما اذارغبوا في ذلك .

ولعل هذه الآراء المعقولة هي التعبير عن الرأي الليبرالي الاسباني الذي كان بريمو دي ريفيرا يدعمه في تعارض مع رغبة الجيش في الانتقام . وكان عبد الكريم يرتاب في صدق نوايا الاسبانيين .

وسرعان ما انتهى المؤتمر الى درب مسدودة بشأن معنى عبارة « الحكم الذاتي » ومضامينها . كان الريف جزءاً لايتجزأ من مراكش ، كما تبين للريفيين ، والمعاهدات المعقودة من قبل السلطان تربط البلاد بأسرها ، بحيث لايمكن منح الحكم الذاتي الا في حال اعتراف اهل الريف بالمعاهدة الفرنسية الاسبانية لعام ١٩٠٤ ، هذه المعاهدة التي تقسم مراكش الى منطقتي نفوذ منفصلتين .

ورفض المندوبون الريفيون الاعتراف بهذه المعاهدات الدولية ، وقفلوا راجعين الى

تارجيست التي أعلن عبد الكريم منها رفضه للشروط المقدمة ·

أما أن عبد الكريم رفض هذه الشروط الكريمة ظاهرا ، فهذا ماحير عددا كبيرا من الناس في ذلك الحين · ويعتقد هاريس ، الذي يقول انه استشار الكثيرين من الريفيين الذين يتمتعون بثقة عبد الكريم ، أن عبد الكريم رفض أن يقبل هذه الشروط لانه تبين افتقارا الى الاجماع بين حكومة الانتداب الفرنسية والجيش ؛ فقد كانت الحكومة راغبة باخلاص في الوصول الى الصلح بواسطة المفاوضات ، بينما كان الجيش توافا الى الحاق الهزيمة الماحقة بالريفيين · ولم يكن يعتقد أن الفرنسيين سيجتاحون الريف ، كما كان يأمل في التدخل البريطاني · وهكذا فقد تجرأ على المجازفة برفض الشروط الفرنسية · ويظن هاريس انه بقدر مايتعلق الامر بشعبه ، فقد كان من العسير على عبد الكريم أن يقبل بالشروط المقدمة في أجده ، لانها تتخلف كثيرا عن الوعود التي قدمها · وكانت القبائل تعتقد انه لايمكن مطلقا اجتياح معاقلها ، وكانت راغبة في مواصلة الحرب · وبالمقابل ، فقد كان عبد الكريم يدرك ، في رأي هاريس ، انه ليس في الامكان الاستمرار في المقاومة الا لفترة قصيرة من الزمن ·

كانت خطته هي الانتظار حتى تتقدم القوات الفرنسية والاسبانية وحتى يدرك رجال القبائل خطورة الوضع جيدا ، ومن ثم كان يأمل ، اذ يعلن انه لم يعد ثمة رجاء ، في اقناع القبائل بقبول شروط الصلح التي كان يتوهم ، بمزيد من التفاؤل ، أنها ستكون تلك الشروط نفسها التي رفضها في أجده · وهكذا فانه لن يتصالح بهذه الطريقة مع اعدائه فحسب ، بل سوف يحافظ ـ اذ يتصرف بموافقة القبائل وبتكليف منها ـ على سيادته الخاصة في الريف · ولو انه قبل الشروط المعروضة في أجدة ، وذلك حين كانت الارتال الفرنسية والاسبانية على مسافة بعيدة بعد عن قلب الريف ، فقد كان يجازف اذن بأن تنقلب قبائله عليه ، وتلك كانت مجازفة خطيرة · وهكذا لعب بأوراقه وفقا لذلك · ولقد قرر انه اذا كان لابد ان يجتاح احد بلاده ، فليكن الفرنسيون ، لان الريف كان يقع في المنطقة الاسبانية ، وكان من المتوقع ان يظل الاسبانيون في اية منطقة يحتلونها من الارض · ولن يسلك الفرنسيون مثل هذا السلوك ، لانهم حين يتم الصلح سينسحبون عبر الحدود ، تاركين البلاد بين يديه كما يأمل ، فيحكمها تحت ظل شكل كريم

ما من اشكال الحكم المحلي • وعلى هذا الاساس فقد قاوم التقدم الاسباني من تارجيست بعناد اعظم بما لايقاس وبفعالية اشد بأسا حتى درجة بعيدة من مقاومته الارتال الفرنسية المتقدمة من المحمية •

عرضت رأي هاريس عن نوايا عبد الكريم أمام محمد الخطابي ومحمد بوجيبار فأنكر كلاهما أن تكون مثل هذه الفكرة قد خامرت ذهن عبد الكريم قط ، قائلين ان غرضه الوحيد حين رفض شروط الصلح قد كان رغبته في جعل الامبريالية باهظة التكاليف قدر الامكان • وكان يعرف انه سيهزم ، وكان في نيته ان يضطر اعداءه الى القتال من أجل كل شبر من الطريق • ولقد كان يعتقد انه في مقدور الشعوب المولعةأن تقاوم الامبريالية بطريقة واحدة ، ألا وهي قتالها ، وجعل هذا القتال باهظ التكاليف جدا بحيث لاتمكن مواصلته •

ولا يقول عبد الكريم في مذكراته الا الشيء القليل عن مؤتمر أجدة ، باستثناء أن الغرض منه كان تمكين الفرنسيين والاسبانيين من تغطية اعمالهم السيئة • لقد ارتكبوا عملا اجراميا حين اجتاحوا الريف ، وكانوا يرغبون فيخداع العالمبحيث يعتقد ان الحوافز الطيبة قد أملت عليهم تصرفاتهم • ان اعداءه قد دعوا الى المؤتمر كسبا للوقت، بينما كانوا ينتظرون نهاية الفصل الماطر كيما يباشروا الحرب من جديد • لقد كان المؤتمر « مجرد خدعة »، وقد احتفظ الريفيون بكرامتهم حين رفضوا الشروط ، ويقول عبد الكريم : « فضلنا ان نقاتل ، بالاحرى من ان نفقد أرضنا وشرفنا على حد سواء »•

لم يكن لدى عبد الكريم أية ثقة بصدق اعدائه ، ولذا رفض باستمرار ان يقبل أية شروط تنكر على أهل الريف الاستقلال الفعلي والحكم الذاتي المطلق • كان يعتقد ان الاسبانيين ، اذا ما نزعوا سلاح القبائل ، سيحنثون بكلمتهم • ولقد وعد شعبه بالاستقلال التام ، وهو يرفض أن يحنث بهذا الوعد • ولسوف يسقط ، هو والريفيون، والسلاح في ايديهم • وقد يخسرون الحرب ، لكنهم سيحتفظون بشرفهم •

وكان عبد الكريم يعتقد أن الريفيين ، خلال سنوات حكمه الخمس ، قد أظهروا انهم قادرون على تدبير شؤونهم الخاصة ، كما هم قمينون بتقرير مصيرهم الخاص • لقد أقام الحكم الثابت في مكان الفوضى ، والثارات القديمة قدنسيت ، وما عاد اي انسان يخاف جاره ، كما انه درب شعبه على التعاون من أجل الصالح العام •

وانفرط مؤتمر أجدة في ٦ أيار (مايو) ، واستؤنفت الحرب •

« نهـــاية ثورتنـــا »

لم تمض ايام قليلة على انهيار محادثات الصلح حتى اتصل الجيشان الاسباني والفرنسي في الغرب ، بين تطوان ووزان ، وفي الشرق ، بين ميدار وتمسامان· واندفع الفرنسيون شمالا على جبهة عريضة من توناط ، بينما انطلق الاسبانيون جنوبا من الحسيمة ، وبذلك حوصر عبد الكريم بطوق من فولاذ · واستمر القتال العنيف طوال عشرة ايام ،لكن الريفيين جعلوا يتقهقرون ببطء ، وخضعت قبائل عديدة منهم للغزاة · وانسحب عبد الكريم الى الجبال قريبا من تارجيست ، يرافقه عدد من رجال القبائل المخلصين ، وأنزل اسرته في قرية كيمعان ، جالبا معه الاسرى الاسبانيين والفرنسيين ، وهم رهائنه الاخيرة · وكانت ذروة تيزيرين تنتصب شاهقة فوق معسكره ، ووديانها العميقة وممراتها الضيقة تشكل معقلا هائلا من اجل القتال الاخير حتى النهاية · وفي فجر الثالث والعشرين من ايار (مايو) احتلت الطلائع الفرنسية الهضاب المجاورة · وكان الجنرال بواشو يتقدم بحذر شديد ، خائفا ان يعمد رجال القبائل المتعصبون الى الاجهاز على الاسرى · وارسل الكولونيل كوراب لاحتلال تارجيست ، فراح يتقدم على مهلته ، وحين دخل المدينة ارسل دوريات استطلاعية في اتجاه ذروة تيزيرين ·كان عبد الكريم قد اخذ في الحلقة الضيقة من الهضاب بين تارجيست وسنادا وكيمعان ·

وفي الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة ، حسب العادة المراكشية التي تسمى **بارود الشرف** والتي تتطلب من القائد ان يقود بنفسه ، قبل استسلامه ، الهجوم الاخير ، قاد عبد الكريم محاربيه الخمسين الاخيرين الباقين في هجوم على تارجيست · فنبهت أصداء الرصاص الملعلع عند المراكز الامامية آمر الحامية ، النقيب شميدت · كان

الريفيون يشنون هجومهم في ضوء القمر الساطع ، وعبد الكريم في مقدمتهم على جواده • واما صد هجومهم الاول ، فقد اعادوا تشكيل صفوفهم وتقدموا من جديد •

وتنكر الاسرة حقيقة هذا التفسير لرواية يصفونها بأنها بدعة فرنسية ، ويقولون ان عبد الكريم اراد ، بالاقدام على القتال حتى النهاية ، ان يقنع اعداءه بأنه لايزال مرهوب الجانب ، وانه من الحكمة منحه شروطا معقولة •

وسحقت القوات الفرنسية هذه الجماعة الاخيرة التي تخوض معركة يائسة • وانطلق عبد الكريم على صهوة الجواد الى سنادا ، يرافقه اثنان وعشرون فارسا هم الباقون احياء من الجماعة المقدامة • وفي هذه القرية حيث وضع عبد الكريم ريسولي الاسير والمشرف على الموت ، طلب الحماية من شريفها ، سيدي حميدو ، الذي كان رجلا مبجلا لتقواه • لقد كان عبد الكريم ، في فناء داره المقدسة ، أمينا من التحرش من قبل أي مسلم كان • وطلب من مضيفه أن يؤمن له ٣٥٠ بغلا ينقل بواسطتها اسرته واملاكه ومخزونه من الاسلحة الى منطقة نائية ومنيعة من الريف الغربي ، حيث يستطيع مع عدد قليل من الرجال ان يقاوم لعدة أشهر •

لكن الشريف حذره بأن القافلة قد تتعرض للهجوم والسلب من قبل بعض العصابات اللصوصية من رجال القبائل الحانقين الذين يمكن ان يسلموا عبد الكريم واسرته الى الاسبانيين ، ونصح بأن الاستسلام الى الفرنسيين اعظم نصيبا من الحكمة •

ويسبر ولتر هاريس نوايا عبد الكريم في ذلك الحين • ففي اعتقاد مراسل **التايمس** ان عبد الكريم كان قد وضع خطة بعيدة الاحتمال • « كان يقصد الحصول على موافقة القبائل على شروط الصلح بالتشديد على وجود العدو في وسطهم • لقد اوقف الاسبانيين في تقدمهم من الشاطيء ، أما الفرنسيون فسوف يعودون الى محميتهم عند احلال السلام • ولسوف يظل سعيدا في منزله الخاص • » تلك كانت لعبة جريئة ، على حد تعبير هاريس ، وقد لعبها عبد الكريم بمهارة • لكنها اخفقت ، اذ تحققت القبائل ان الريف قد ضاع ، فاستداروا ضد الرجل الذين حسبوا انه خدعهم • ويبدو ان هاريس يعتمد في رأيه بخصوص نوايا عبد الكريم على الحقيقة التالية ، ألا وهي انه ارسل من سنادا كتابا الى السيد ستيغ يطالب فيه باعادة فتح المفاوضات • ويعتقد هاريس ان عبد الكريم كان يحسب حتى اللحظة الاخيرة انه يستطيع أن يثير الفرنسيين والاسبانيين ضد بعضهم البعض ، وكان يأمل بعد في التدخل البريطاني •

وبينما كان عبد الكريم ، من دون ادنى ريب ، يفكر بكل وسيلة ممكنة ليدرأ الهزيمة النهائية ، فاني أفضل ان اعتقد انه ادرك ، وهو الرجل الواقعي ، ان اللعبة انتهت • ولقد تردد بشأن مايجب عليه فعله ، لان ذهنه كان في حالة من الاضطراب الشديد، وكـــان يتعلق بالآمال الواهية • وكان يعرف في صميم قلبه انه يواجه احتمالين : القتال حتى الموت او الاستسلام للفرنسيين • وقد كان لسلامة اسرته تأثير كبير على قراره الاخير•

وقبل عبد الكريم ، نزولا عند الحاج سيدي حميدو ، ان يذهب الشريف الـــى تارجيست للبحث في شروط استسلامه • وتوجه حميدو الى مقر القيادة الفرنسية ،حاملا رسالة من عبد الكريم ، وقابل الكولونيل كوراب ، الضابط الذي يأمر القوات الفرنسية (وقد اشتهر فيما بعد كآمر الجيش الفرنسي التاسع التي هزمه الالمان في سيدان عام ١٩٤٠) • واعاده كوراب الى سنادا يحمل رسالة تخبر عبد الكريم بأنه ليس مايخشاه على نفسه أو اسرته اذا استسلم ، لكنه يجب على عبد الكريم ، دلالة على حسن نيتــه ، أن يطلق سراح الاسرى في الحال • وارسل كوراب ضابطين مع حميدو ، النقيب سوفران والملازم البحري مونتان ، كي يتصلا شخصيا بالقائد الريفي ، ومدنيـــين فرنسيين ، السيد باران والدكتور غود ، كي يعنيا بالاسرى • ووصلت الجماعة الى سنادا في ٢٤ أيار (مايو) في الساعة الرابعة بعد الظهر •

واستقبل عبد الكريم الفرنسيين في الساعة السابعة مساء • ويصف الكولونيل دوماس اللقاء في عبارات عضو غير مختص من الجانب الفرنسي ، فيقول : « كانت تلك مقابلة رسمية ، كما كان الامر في أجدير حين كان الامير في أوج قوته • جلس عبد الكريم في غرفة مفروشة بالسجاد والوسائد ، ومزينة بالسجف ، يحيط به عشرة من مشاوريه العاديين • ونهض لدى وصولنا وقدم الينا وزراءه • كان وجهه خاليا من كل اثـــــر للاضطراب ، بل كان يبتسم • كان من الواضح انه يوشك ان يلعب ورقته الاخيرة » • وصرف عبد الكريم جماعته • وأدرك الفرنسيون انه لايريد ان يشاهد أي انسان اذلاله ؛ كان الوضع يائسا ، وكان يريد ان ينهيه جيدا • وكان الانطباع الذي حصل لديهم أن عبد الكريم لن يتردد مطلقا في تسليم نفسه اليهم لو ان مستقبله وحده كان في الميزان • وقال عبد الكريم ، متحدثا بلهجة سريعة :« أنا لست وحيدا • ان استسلامي سيهدم كل مابنيته • وان رجالي ليثقون بي • وهناك قبائل كاملة ترغب في مواصلة القتال ،

وواجبي هو أن أبقى معهم حتى النهاية • اذا ذهبت ، ماعساه يحل بهم ؟ من يقودهم ويدافع عنهم ، وعلى الاخص ضد الاسبانيين ؟ »

وحاول كل ضابط بدوره ، وقد فهم صدق عبد الكريم ، أن يقنعه بأن واجبه هو ان يمنع الاستمرار في سفك الدماء • ان الافلات مستحيل • وأشاروا الى ان عبد الكريم لايملك حاليا سوى عدد قليل من الجنود النظاميين يحمي عائلته واملاكه بهم • ولقد اصبح عدد كبيرمن رجال القبائل معادين له • وجادل الفرنسيون طوال ساعتين ، وطلب عبد الكريم مهلة من الوقت ليفكر في الامر ، وانسحب الى غرفة اخرى •

وعاد عبد الكريم الى غرفة الاجتماع عند منتصف الليل ، وأعلن للضباط : « لقد قررت ان استسلم »• ولسوف يأمر باطلاق سراح الاسرى • وحين استوضح الفرنسيون ما اذا كان جميع الاسرى ، بما فيهم الاسبانيون ، سيطلق سراحهم ، تردد عبد الكريم ، وبعد فترة قصيرة من الصمت قال انه سيطلق سراحهم جميعا • وكتب عبد الكريم ، بايعاز من الضباط ، رسالة موجهة الى الكولونيل كوراب ، يعرض استسلامه ويطلب ارسال قوات الى كيمعان لحماية اسرته • واخذت الرسالة الى تارجيست ، بينما انطلق عبد الكريم على صهوة جواده ليخطر اسرته • ورجع الى سنادا عند الظهيرة • ولاحظ الضباط تبدلا ملحوظا في موقفه ، فقد كان القلق باديا عليه • وهمس بوجيبار ،الذي كان في رفقته ، أن عبد الكريم يرتاب في حيلة ، فهو يخاف ان يضايق الجنود اسرته ويسرقوا اشياءه • ولقد قصفت طائرة اسبانية منزله وقتلت ثلاثة ريفيين • وخاف الفرنسيون ان يحنث عبد الكريم بكلمته ، وبدا ان الاشياء جميعا قد ذهبت سدى حين صرح : « أنا لا ابرح حرا ، واذا شئت ، فاني استطيع ان ادافع عن نفسي »• وخاطب الفرنسيين قائلا : « انتم تحت رحمتي ، ويمكنني ان احتفظ بكم كرهائن • انتم موجوداتي الوحيدة منذ اطلقت سراح الاسرى » • فتكلم النقيب سوفران وقال : « نحن ضيوف الشريف مثلك • وهو وحده الآمر هنا • ألحق بنا اذى فتعتدي على حرمات الضيافة »• واستمر النزاع ، لكنه تم التوصل الى اتفاق اخيرا • وكتب الضباط ، باسم عبد الكريم ، رسالة الى الكولونيل كوراب يطلبون ضمانة اخرى بأن اسرته ستكون موضع الحماية • وأجاب كوراب في الحال ، مقررا انه لاضرورة لاية ضمانة جديدة • انه يعتقد انه حان الاوان لانهاء المشكلة • وأنذر عبد الكريم بأنه اذا اخفق وأخوه في القدوم الى

تارجيست في الغداة ، فانه سيأتي الى سنادا بحثا عنه • يجب على عبد الكريم ان يستسلم أو يستأنف القتال • ووصل انذار الكولونيل كوراب الى سنادا في ٢٦ أيار (مايو) •

ويقول مونتان : « كان عبد الكريم يبدو ، خلال هذه الساعات المؤثرة في نظـــر اولئك الذين حاولوا اقناعه بعدم جدوى الاستمرار في الصراع ، كرجل دولـــة بربري حقيقي ، مدرك لمسؤولياته وواجباته » •

ويقول الكولونيل لور ، الذي كان احد ضباط اركان الماريشال بيتان، ان الاسرى وصلوا الى تارجيست في ٢٦ أيار (مايو) ، ويشير الى انهم كانوا يضمون ستة ضبــاط فرنسيين ، وثمانية ضباط صف ، و ٢٧ جنديا ، و١٩ مدنيا ، و١١٢ جزائرياوسنغاليا، و ١٠٥ جنود اسبان ، وامرأتين ، و ٤ اولاد • وتذكر بعض المصادر الاخرى ان المجموع كان يبلغ ٣٨٠ اسيرا • ولم تعط اية ملاحظة مخصوصة عن حالة هؤلاء الاسرى ، لكـن مونتان يلمح الى أن عبد الكريم أمر ، قبل اطلاق سراحهم ، باعدام ٢٢ضابطا اسبانيـــا انتقاما للمذبحة الوحشية التي كان النساء والاطفال ضحايا لها قرب أجدير ، ويزعـم الاسبانيون ، دون ان يعترفوا بهذه المذبحة ، ان أيا من الضباط لم يبق على قيد الحياة، وكان هذا الزعم احد الاتهامات العديدة التي بنوا عليها مطالبهم المقدمة الى الفرنسيين والداعية الى القضاء على عبد الكريم • ولم يتردد مونتان مطلقا في التلميح بأن عبـــد الكريم ، اذ سلم نفسه الى الفرنسيين ، قد انقذ نفسه من موت مذل ، ويقول ان الاسبانيين ادركوا ان ثمرة نصرهم الاخيرة قد سرقت منهم •

وتنكر الاسرة تهمة مونتان • انهم يوافقون على أن الاسبانيين قتلوا عددا كبـــيرا من الناس في أجدير ويقولون ان عبد الكريم لم ينتقم ، لان ذلك يكون غريبـــا عـلى طبيعتـــه •

وتلاشت شكوكه اخيرا ، فأرسل عبد الكريم رسالة الى الكولونيل كوراب يعلـن فيها انه سيصل تارجيست في اليوم التالي في حوالي الساعة الثامنة صباحا • وأرسـل كوراب مفرزة من الجنود الى كيمعان • وفي الساعة الواحدة من صباح ٢٧ أيار (مايو) دخل عبد الكريم الغرفة حيث كان الضباط مجتمعين ، وقال : « حان الوقت لأذهب » ، ثم أضاف : « سأكون مستعدا خلال ساعة واحدة » • ثم أصدر اوامره الاخيرة • وتركت عظمته وكرامته انطباعا عميقا في الفرنسيين • لقد جمع آخر اتباعه المخلصين وأمرهـــم

أن يذهبوا الى كيمعان • ما كان يريد ان يكون ثمة شهود على رحيله ، وهذا ما فهمه الفرنسيون •

وغادر الضباط المنزل • كانت جبال الريف في الخارج غارقة في ضوء القمر •وكانت اصداء الحركة تقعقع داخل المنزل ، ثم خرج عبد الكريم وامتطى صهوة جواده • لم تقل كلمة واحدة ، واتخذ مكانه على رأس العشرين صافيا الذين يشكلون الحامية • وكان أخوه يركب خلفه •

وحاول جندي ريفي في اللحظة الاخيرة ان يلحق بالركب، لكن الضباط ردوه على أعقابه • ونهضت بعض الاشباح من بين الادغال • وانطلق اتباع عبد الكريم صوبه ، وراحوا يقبلون ركابه ، وثيابه ، ويرمون بأنفسهم في طريقه • واستحث عبد الكريم حصانه قدما وعيناه مرفوعتان الى العالي •

وصلت الجماعة الى تارجيسمت عند الفجر البارد ، وكان الجنرال ايبوس قد قدم لاستقبال امير الريف ، يركب الى جانبه الكولونيل كوراب ، ووراءهما جمهرة من جنود الفرقة الاجنبية وكتيبة مراكشية • وكان العلم المثلث الالوان يخفق في نسيم الصباح • ولم يكن الجنود جميعا منجذبين الى استقبال عدو فرنسا المغلوب ، بل كان بعضهم يستحمون في ساقية على مقربة من الطريق • وحين مر عبد الكريم بهم اتخذوا وضعية الاستعداد وحيوه بأيديهم ، فرد التحية بكل مهابة •

وتقدم الجنرال ايبوس والكولونيل كوراب لتحية عبد الكريم ، وقدمه كوراب الى الجنرال • ونقل مترجم كلمات عبد الكريم : « اني اسلم شخصي واملاكي الى فرنسا ، واني على ثقة من كرمها » • فرد ايبوس قائلا : « أشكر لتضحيتك بنفسك في سبيل السلام بين شعبينا • ولسوف تكون فرنسا شاكرة لك »• وصحب كوراب عبد الكريم واخاه الى خيمة ، وقال لهم مطمئنا : « سوف تصل اسرتكما الى هنا غدا » • لقد انتهت الحرب ، ويلاحظ عبد الكريم في كتابه **قصة حربنا** : « **كانت تلك هي نهاية ثورتنا** »• وبعد ساعة تحدث الجنرال ايبوس من اذاعة بالراديو من تارجيسمت معلنا : « لقد استسلم عبد الكريم ووضع نفسه تحت رحمة فرنسا • ان الانتفاضة الريفية قد انتهت »•

وأعلنت فرنسا ان عدوها المغلوب لن يتعرض للانتقام ، فهي ليست راغبة في أن

تجعل منه شهيدا • وأعلن تيودور ستيغ ان الزعيم الريفي لن يبجل ولن يذل ، بل « سينسى مع الزمن » • أما الحكومة الاسبانية التي أنكرت طريدتها عليها، فقد اكتفت بالقول : « لقد ظفرنا » •

وفي اليوم التالي لاستسلام عبد الكريم ، جيء بأسرته وأسر اقربائه ، ومجموعهم ستون امرأة وطفلا ، الى تارجيست حيث استقبلهم الكولونيل جيرو ، الذي اشتهر خلال الحرب العالمية الثانية ، وهو برتبة جنرال ، لفراره من الاسر الالماني وللدور المعقد الذي لعبه في الانزال في افريقيا الشمالية في ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ • ونقل عبد الكريم واخوه ووزراؤه السابقون وأسرهم الى تازه حيث اسكنوا لعدة ايام قبل نقلهم الى فاس •

وانهارت المقاومة في الريف حتى درجة كبيرة في اعقاب استسلام عبد الكريم • وأحرق خمسة عشر الفا من رجال قبيلة بني ورياغل منازلهم ومشوا الى تارجيست ، معلنين انهم يريدون ان يستسلموا للفرنسيين • واستسلم غيرهم للاسبانيين الذين كانوا يواصلون تقدمهم ، لكن هريرو لم يستسلم ، بل جمع قوة من رجال الجبالا ، وانسحب الى جبال غماره حيث خاض من هناك حربا انصارية حتى تشرين الثاني (نوفمبر) حين سقط قتيلا في احدى الاشتباكات مع العدو • وحمل رجاله جثته الى جبال بني أروس حيث قبروا زعيمهم الشاب قريبا من قبر مولاي عبد السلام بن ماشيش ، جد ريسولي •

وعند اواخر العام توقفت المقاومة نهائيا • ولابد لنا ، بخصوص قصة اعادة تنظيم الريف مباشرة ، من الاعتماد على ولتر هاريس ، المراقب الحيادي الوحيد للمشهد • وهو يقول ان « القبائل تشتتت بعد اختفاء زعيمها الذي أثار استسلامه وفراره نقمة جماعية ، وراحت تراقب في غم الاسبانيين وهم يحتلون اراضيها • ولم تحدث المذابح التي كانوا يخافونها ، اذ ان الجيش الغازي ، بدلا من أن يكون مشربا بشعور الحقد والانتقام ، قد قام بعمله آخذا بعين الاعتبار مصلحة السكان » • ويقول هاريس ان الفا وخمسمائة من افراد قبيلة بني ورياغل تطوعوا في الجيش الاسباني ، « وليس ثمة برهان افضل على أن تحقيق السلام في الريف لم يعد مشكلة عسيرة لايمكن التغلب عليها » • وأقام الفرنسيون في الجنوب معسكرات يستقبلون فيها اللاجئين الذين كانوا يتدفقون على محميتهم طلبا لضيافة عدوهم السابق • ويقول هاريس ان هذه الضيافة كانت تمنح بدون حدود •

ووقع جوزيف كليمس أسيرا في يد القوات الفرنسية أثناء عمليات التطهير ، وقدم الى المحكمة على اعتباره هاربا من الخدمة ، وأدين ، وحكم عليه بالاعدام • لكنه منح الرحمة وأرسل الى المستعمرة الفرنسية للاشغال الشاقة في جزيرة الشيطان حيث أطلق سراحه منها آخر الامر ، فرجع الى المانيا ومات ، فيما يروى ، في فيينا عام ١٩٦٣ •

وفي ١٤ تموز (يوليو) زار الملك ألفونسو وملكته ، وهي ابنة للملكة فكتوريا ، باريس ووقف على قوس النصر مع رئيس الجمهورية الفرنسية ، والماريشال بيتان ، والجنرال بريمو دي ريفيرا ، وسلطان مراكش ، لتلقي التحية في استعراض النصر السنوي • وفي تشرين الاول (اوكتوبر) التالي ، قام ألفونسو وملكته بجولة ظافرة في محمية اسبانيا المراكشية ، بينما سار المفوض السامي ، الجنرال سان جورجو ، في الريف على رأس جيشه • ونشبت بعض المقاومة ، وفي ٢٧ تموز (يوليو) ١٩٢٧ استطاع الكولونيل فرنكو أن يكتب اخيرا في يومياته : « لقد انتهت الحملة » • أما بالنسبة اليه ، فقد كانت القصة في أولها بعد •

وانهارت دكتاتورية بريمو دي ريفيرا عام ١٩٢٩ فهرب الى باريس حيث قضى نحبه عام ١٩٣٠ • ولحق به الملك ألفونسو في المنفى ، وتشكلت حكومة دستورية في اسبانيا استمرت حتى عام ١٩٣٩ حين قلبها فرنكو ، بعد أربع سنوات من الحرب الاهلية ، وكان جيشه يتألف حتى درجة كبيرة من القوات المراكشية التي كان في عدادها كثيرون من أهل الريف الذين تعلم فرنكو ان يحترم صفاتهم القتالية • وفي مقال نشرته **لاتريبون دي جنيف** في ١١ شباط (فبراير) عام ١٩٦٣ ، يعزو بابلو الكارتيه ، وهو أمين عام مساعد سابق في عصبة الامم ، أصل الاضطرابات التي اجتاحت اسبانيا خلال السنوات الخمس والعشرين السابقة الى مأساة أنوال •

وتقرر مصير عبد الكريم في ١٤ حزيران (يونيو) ١٩٢٦ في مؤتمر عقد في باريس، حيث تم الاتفاق ، رغما عن الاحتجاجات الاسبانية ،على نفي عبد الكريم واخيه وامهما وخالهما عبد السلام ، مع عائلاتهم ، وهم يعدون خمسا وعشرين نسمة ، الى جزيرة ريونيون في المحيط الهندي ، بينما سمح لبوجيبار وأزرقان ولاقرباء آخرين بالبقاء في مراكش الفرنسية • ونقل المنفيون في ايلول (سبتمبر) الى مارسيليا ، حيث اقاموا لمدة اسبوعين في قصر ايف ، ثم صعدوا في اليوم التالي الى المركب الذي نقلهم الى ريونيون •

وولد ابن عبد الكريم الرابع ، ادريس ، بعد نصف ساعة فقط من وصولهم • وأقامت الاسر في قصر مورانج ، قريبا من العاصمة سان‌دنيس ، لمدة ثلاث سنوات ، ومنح عبد الكريم مرتبا شهريا قدره ٨٠٠٠ فرنك • ولقد نقلوا بعد ثلاث سنوات الى منزل آخر ، قصر فلور ، على بعد خمسة اميال من العاصمة ، وزيد المرتب عام ١٩٤٧ الى ٢٥٠٠٠ فرنك شهريا • وكان الاولاد يواظبون على الكلية الفرنسية حتى بلغ كل منهم سن الثامنة عشرة •

ويقول عبد الكريم في ذكرياته انه اعلم عام ١٩٢٦ ان فترة نفيه لن تتجاوز السنتين ، ومن بعد سيسمح له أن يعود الى مراكش • لكن حاكم الجزيرة الفرنسي اخبره انه منفي مدى الحياة ، وقد ارتبط عبد الكريم مع هذا الحاكم بأواصر صداقة مرموقة • وكان الحاكم يعير عبد الكريم كتبا وصحفا تعلم عبد الكريم اللغة الفرنسية كي يطالعها • ولقد أخضع عبد الكريم ، خلال السنوات العشر الاول من منفاه ، لرقابة دائمة ، وكان دركي يقف على بابه باستمرار • وكانت تنقلاته محدودة ، ولم يسمح له أن يملك راديو أو سيارة • وأصبح صديقا مع رئيس الشرطة الذي كان يحضر يوميا للتأكد شخصيا من أن عبد الكريم « لايبرح في البيت » • وكان يستفسر عن صحة عبد الكريم وراحته ، وكان الرجلان يتبادلان بعض الفكاهات • وكانت التمثيلية نفسها تتكرر في كثير من الزيارات ، اذ يرجو عبد الكريم الضابط ان يتفضل بالبقاء لتناول طعام الغداء ، فيرد رئيس الشرطة بأنه لايريد ان يزعجهم • وكان الفصل التمثيلي ينتهي دائما بأن يتخذ الضابط كرسيه المألوف على مائدة عبد الكريم ، ويروح الرجلان يتجاذبان ، سعيدين ، أطراف الحديث في الامور التي تهمهما معا •

وأرخت الحكومة الفرنسية مع مرور الزمن يقظتها ، فسمح لعبد الكريم بالحصول على جهاز للراديو استطاع بواسطته ان يتتبع احداث الحرب في اسبانيا وأن يسمع عن مآثر الريفيين في قضية كانت معيبة في نظره • وقضت والدته عام ١٩٣٦ ، ورفض الفرنسيون طلبه باعادة جدثها لدفنه في مراكش • اما بشأن ابتياع السيارة ، فقد ظل الحاكم صلبا لايلين • وتم التغلب اخيرا على هذه الصعوبة بالحيلة ، اذ اشار عليه صديقه رئيس الشرطة انه ليس ثمة ما يمنع بستاني عبد الكريم من امتلاك سيارة •

وروى لي ابن عبد الكريم ، سعيد ، قصة اخرى نموذجية عن والده • كان الاولاد

يتجادلون مع ابيهم بخصوص الموقع الجغرافي لبعض المدن العالمية • وغادرالاولاد الغرفة، وهم على يقين من كونهم على صواب ، ليجلبوا أطلسا يثبتون به أن والدهم مخطىء • وتأخروا بعض الوقت ، وحين عادوا اخيرا لم يأتوا على ذكر الجدال ، بل جلسوا وراحوا يتحدثون في شيء من الصخب • ولاحظ سعيد ان والدهم يجلس وقلنسوة جلابيته تغطي عينيه ، فاستفسر : « ما بالك يا ابتاه ؟» فأجاب عبد الكريم : « اني خجلان من اجلكم » •

وتلقى عبد الكريم خلال الحرب العالمية الثانية زائرا غير منتظر ، وقد روى ولده ادريس القصة لي • ففي ذات يوم من عام ١٩٤٢ ، حين كان جالسا على شرفة داره ، لاحظ غريبا يقترب من البوابة ، فأخبر والده ، ومضيا معا الى البوابة لرؤية من عساه يكون • وقال الرجل بفرنسية متلعثمة : « لقد أرسلني الفوهرر لاعيدك الى مراكش » • وقال انه احد ضباط غواصة المانية ، وان هذه الغواصة موجودة على مقربة من الشاطىء وهي ستنتظر لمدة يومين • وعلى الرغم من شوق عبد الكريم العظيم للعودة الى الوطن ، فانه لم يكن راغبا في المعونة النازية • وتوجه الى الضابط قائلا : « لن اعود بمساعدة ذلك الرجل » •

ولعب عبد الكريم دورا صغيرا في استيلاء قوات فرنسا الحرة على جزيرةريونيون• فحين نزلت هذه القوات فيها عام ١٩٤٤ ، أشار على الحاكم بأن المقاومة من جانبه جنون خالص • ورفض عبد الكريم ، بعد الحرب ، عرضا لادخال ابنائه الثلاثة الكبار في الجيش الفرنسي • وقيل له ان الماضي كله سيصفح عنه وسيسمح له بالعودة الىمراكش اذا قبل ذلك العرض ، لكنه قال في رده : « ان ابنائي سيسفكون دماءهم من اجل مراكش وحدها » •

* * *

طلب عبد الكريم عام ١٩٤٧ السماح له بالاقامة في فرنسا ، مشيرا الى انه ليس لاسرته مستقبل في ريونيون ، وان ابناءه يكبرون ، أو يقتربون من البلوغ ، وان بناته يرغبن في الزواج • وعلى الرغم من الاحتجاجات الشديدة التي رفعها الجنرال فرنكو ، الذي اصبح دكتاتور اسبانيا الآن ، فان الحكومة الفرنسية وافقت على طلب عبدالكريم، فأبحر الريفيون ، الذين يعدون اثنينواربعين شخصا ،حاملينمعهمالجدث المحنط لوالدة عبد الكريم ، فيأيار (مايو) على ظهر المركب كاتومبا اليوناني • وكان خمسة عشر ضابطا من رجال الامن الفرنسي يرافقون القوم • ودار كاتومبا حول الساحل الافريقي

وزار عدن ، حيث رحب الوطنيون اليمنيون بعبدالكريم ، وقد سمح له أن ينزل الى الشاطىء ليحضر الاجتماعات • وبعدما أبحر المركب ، أبرق الوطنيون اليمنيون الى فاورق ملك مصر يخبرونه بأن عبد الكريم سيبلغ السويس في ٣٠ أيار (مايو) ، ويقترحون ان يمنح حق اللجوء السياسي في مصر •

وحين وقف **كاتومبا** على رصيف السويس ، صعد الى سطحه وفدمن وطنييافريقيا الشمالية لتحية عبد الكريم • وطلب ممثلو حزب الحرية المراكشي مساعدته ، مؤكدين ان مراكش لاتبرح في حاجة اليه • وجاء مسؤول يحمل دعوة الملك فاروق الذي عرض عليه الاقامة في مصر ، فطلب ان يسمح له بدراسة الدعوة خلال الليل ، بينما كان **كاتومبا** مبحرا في اتجاه بورسعيد •

ووصل **كاتومبا** الى بورسعيد في وقت مبكر من صباح ٣١ أيار (مايو) • وصعد حاكم المرفأ المصري ، يرافقه بورقيبة ، الرئيس المقبل لجمهورية تونس ، مع بعض الوطنيين الآخرين الى سطح المركب يدعون عبد الكريم واقرباءه « لتفقد » المدينة • وكان عبد الكريم قد حزم أمره خلال الليل على قبول عرض الملك • وفي الساعة الثامنة صباحا ، تحت ابصار ضباط الامن ، هبط عبد الكريم ، وأخوه ، وصهرهما وأسرهم ، سلم الباخرة • كانت النساء يحملن حقائبهن اليدوية فحسب ، لكن الرجال كانوا قد احتاطوا وارتدوا عدة جلابيات • وكان النهار حارا منذ الصباح الباكر ، وكان العرق يتصبب على وجوههم • وحين بلغوا الرصيف ، دخل الريفيون الاثنان والاربعون السيارات التي كانت في انتظارهم ، والتي انطلقت بهم في الحال • لقد اصبح عبد الكريم حرا من جديد ، بعد احدى وعشرين سنة من النفي•

ولعل الفرنسيين تغاضوا عن فرار عبد الكريم ، على الرغم من المضايقات التي سببها لهم ، لان الاسبانيين أثاروا ضوضاء كبيرة وسخروا من الخرافة الفرنسية • ولقد اشير الى ان الحكومة الفرنسية قررت ان تأتي بعبد الكريم الى فرنسا كيما تهدد به السلطان المراكشي محمد الخامس ، ابن مولاي يوسف ، الذي كان يظهر رغبة شديدة في الاستقلال • وكانت الحكومة تأمل في أن يضعف عبد الكريم محمدا الخامس بمعارضته لاية حركة استقلالية تحت قيادة السلطان • ولعل الفرنسيين حسبوا ان عبد الكريم يستطيع ، وهو حر في مصر ، أن يكون تهديدا اقوى للسلطان • لكن تعليل قصور الفرنسيين عن منع عبد الكريم من الفرار يمكن ان يكون أبسط من ذلك : لقد رحبوا

بفرصة التخلص من اسيرهم القديم الذي لم يعد يشكل ، في نظرهم ، اي خطر ، بل هو لايفعل سوى اثارة المتاعب بالنسبة اليهم • ولابد من الاشارة هنا الى ان عبد الكريم لم يعط قط عهدا بالبقاء في الاسر ، هذا الاسر الذي لم يكن اراديا في يوم من الايام •

وقد طرح فرار عبد الكريم مشكلتين سببت كلتاهما متاعب كبيرة للسيد غابرييلي المسكين الذي كلف ، نظرا لصلته الوثيقة بعبد الكريم ، بترتيب أمر اقامة المنفيين الريفيين في فرنسا وبملاقاة **كاتوميا** في مرسيليا • فقد وجد غابرييلي اخيرا ، بعد بحث طويل وشاق ، دارا كبيرة فارغة في فيلنوف في اكس أن بروفانس • ولقد أثث هذه الدار بكاملها ، وخزن فيها الاغذية ، آخذا بعين الاعتبار انه يوفر الطعام لمسلمين اتقياء• وكان عليه الان ان يتخلص من هذه الاشياء جميعا ، فلقي صعوبة كبرى في تهدئة غضب صاحب الدار وغضب عمدة المدينة الذي بذل جهودا كبيرة لمساعدته • ولم تنته متاعب **غابرييلي عند هذا الحد ، بل ان الحكومة الفرنسية أمرته بملاقاة كاتوميا** وترتيب انزال حمولة الاسر البالغة سبعة اطنان ونقل القبر الذي يضم رفاة والدة عبد الكريم الى مراكش • واعطيت اليه التعليمات بأن يضع هذا القبر بصورة مؤقتة في مستودع للجثث • لكن المستودع الوحيد المتوفر من هذا النوع كان كنيسة مسيحية • واضطر غابرييلي ان يبتاع مكانا مؤقتا للقبر في القسم الاسلامي من المقبرة • وبعد ثمانية عشر شهرا اخذ القبر من جديد ونقل بالطائرة الى الدار البيضاء حيث اعيد تشييده •

ورحب الملك فاروق بعبد الكريم واخيه وقدم اليهما المسكن ومرتبا قدره ٦٠٠ جنيه لمعيشتهما ، وهو مرتب استمر عبد الناصر على دفعه بعد تسلمه السلطة في مصر • وانتخب عبد الكريم رئيسا ، وأخوه نائبا للرئيس ، لعصبة الدفاع عن شمالي افريقيا التي اوجداها • وأصبح عبد الكريم ، مرة اخرى ، زعيم النضال ضد الاستعمار • واما كان يعتقد ان فرنسا واسبانيا لن تتنازلا عن مستعمراتهما عن طيبة خاطر ، فقد نادى عبد الكريم بالثورة على اعتبارها الوسيلة الوحيدة التي تستطيع الشعوب المستعبدة أن تسترد بها حريتها • ولقد نصح الامبرياليين ، في خطاباته العامة ، بالرحيل بصورة حبية ، قائلا انهم سيحافظون على مصالحهم بهذه الطريقة ، بينما هم يفقدون كل شيء اذا رحلوا كأعداء • وقال مخاطبا الحكومة الفرنسية : « لقد خضنا حربين الى جانبكم

للمحافظة على استقلالكم معرضين حياتنا الخاصة للمخاطر ، فلماذا تنكرون علينا استقلالنا ؟ » ٠

وسرعان ما اصطدم عبد الكريم بالسياسيين الدهاة في العالم العربي ٠ كان يؤمن بالعمل العنيف ، أما هم فكانوا يفضلون الحيلة ويأملون في كسب استقلال شعوبهم بالوسائط السلمية ٠ وانسحب مع اخيه من العصبة وعملا مفردين على تنظيم الوطنيين الذين كانوا يأتون الى القاهرة من مراكش والجزائر وتونس ٠ وكان كثيرون منهم من أهل الريف ، من اولئك الذين بقوا على قيد الحياة بعد معارك عبد الكريم ٠ ولقدارسلهم ليتدربوا في الكليات الحربية في القاهرة والعراق وسورية ، وكان يدفع مصاريفهم من جيبه الخاص ٠

* * *

بدأ النضال من اجل استقلال مراكش عام ١٩٥٤ ٠ كان الفرنسيون قد نفوا السلطان محمدا الخامس عام ١٩٤٧ ، حين تبنى سياسة ينادي الوطنيون بها ، وطلب من الفرنسيين ان يغادروا البلاد ٠ واعادوه من مدغشقر عام ١٩٥٣ آملين في أنه قد يعارض في استخدام العنف ٠ ومع ذلك ، فقد اشتعلت الثورة في عدة مدن مراكشية وفي الريف الذي تدفق رجال القبائل منه مرة اخرى عبر نهر ورغه ٠ وحين اندلعت الثورة في الجزائر ، أعرض الفرنسيون عن محاولة وقف المد في مراكش ٠ وعلى الرغم من انهم لم يسحبوا قواتهم العسكرية ، فقد اعترف الفرنسيون باستقلال مراكش في ٢ آذار (مارس) ١٩٥٦ ، وحذا الاسبانيون حذوهم في ٧ نيسان (ابريل) ٠

وأعادت الحكومة الجديدة الى اسرة الخطابيين الاثنتين والاربعين قطعة من الارض في الريف ، وهي الاراضي التي صودرت عام ١٩٢٦ ، وسمي عبد الكريم بطلا قوميا ومنح لقب « الامير » ٠ وفي شباط (فبراير) ١٩٦٠ زار السلطان محمد الخامس ، اثناء زيارة رسمية لمصر ، عبد الكريم في داره في ضواحي القاهرة ، ودعاه ان يعود الى مراكش ، لكن عبد الكريم رفض العودة ، قائلا انه لن يعود الى الريف حتى يغادر آخر جندي اجنبي ارض مراكش ، وهو وضع لم يتحقق الا بعد وفاته ٠ وأعلن اخلاصه للسلطان وتأييده لجهود السلطان من اجل تأمين الاستقلال التام لمراكش ٠

ويتردد ابناء عبد الكريم كثيرا على الريف حيث يعتقدون ان الشعب قد يحتاج ذات يوم الى خدماتهم ٠ ان المطامح السياسية للاسرة في مراكش هي مطامح سلمية ، وهي حقيقة

توضح القصة التالية : بعدما اجتزت شمالي افريقيا طولا وعرضا برفقة سعيد الخطابي، علمت أن الحكومة المراكشية ، التي اخبرت بأني « اكتب كتبا عن المعارك »، قد افترضت بأن اسرة الخطابيين قد دعتني لارسم خطة الاستيلاء على البلاد ·

بقي عبد الكريم واخوه في القاهرة حيث كان اصدقاء قدماء كثيرون يزورونهما ، بما فيهم فنسنت شيان وغوردون كانيخ · ولقد عاش الاخوان حتى شاهدا تحقيق مطامحهما : لقد تحرر الريفيون ، ولم يذهب قتالهما الطويل من أجل الاستقلال سدى · وقال محمد الخطابي في حديثه معي : « الشعوب المولدة تحصل دائما على حريتها في النهاية » · وحين اشرت الى ان في مقدوره مع اخيه ان يعتبرا انفسهما صاحبي الفضل في ذلك وافق على انهما قد « بينا الطريق » ·

وسقط عبد الكريم مريضا عام ١٩٥٣ · وأخبره الجراحون الالمان في القاهرة انه يشكو من سرطان المعدة واقترحوا تدخلا جراحيا فوريا · لكنه رفض ، وأرسل بدلا عن ذلك الى الريف يطلب علاجا تملكه اسرة في تطوان · وحمل العلاج السري الى القاهرة · وسواء أكان مصابا بالسرطان أم لا ، وهو أمر بعيد الاحتمال ، ويعتقد ابناؤه انه كان يشكو من حصيات في المرارة ، فقد استخدم عبد الكريم العلاج باطنيا وخارجيا ، وحين مات بعد عشر سنوات وهو في الواحدة والثمانين من العمر ، في ٦ شباط (فبراير) ١٩٦٣ ، فقد قضى وهو نائم من جراء هجمة قلبية · وشيع بصورة رسمية ، وكان في مقدمة المشيعين الرسميون في الحكومة المصرية وزعماء حركة استقلال الشمال الافريقي · ونشرت **التايمس** اللندنية موجزا لحياته ·

وكان موت عبد الكريم باعثا لدهشة عدد كبير من المغربيين الذين نسوا عبد الكريم · وما كان يجب ان ينسوه ، لانه هو من حرك النسيم الذي هب ، بعد أربعين سنة ، بقوة الاعصار فوق افريقيا ·

وختاما استشهد بكلمات الملازم مونتان الذي كان مع عبد الكريم في أحلك ساعات حياته ، في أيار (مايو) ١٩٢٦ · ويقول مونتان : « لقد هاجم بعنفوان حضارة الغرب الحديدية الرهيبة التي تجعل منه انسانا همجيا لمجرد كونه ضعيفا وسيىء السلاح ·»

مصادر الكتاب

حصلت على معلوماتي من اخي عبد الكريم (الامير محمد الخطابي) وابنائه واقربائ الآخرين ومن الباقين احياء من حرب الاستقلال الريفي ، ومن المؤلفات المنشورة الوارد ادناه • واني لعظيم الامتنان للعون الذي قدمه لي هؤلاء الناس ، وأخص بالذكر الابني ادريس الخطابي (الذي كان اول من قابلت والذي قرأ مخطوطة هذا الكتاب) وسعيد الخطابي الذي كان دليلي عبر شمالي افريقيا والذي ترجم لي مع اخوته كتاب والده غير المنشور « قصة حربنا » • ولقد خيبت هذه الوثيقة أملي لانها لاتوفر الا قليـــلام المعلومات ذات القيمة وقليلا من الشواهد • ان عبد الكريم لايقدم لنا التفاصيل الدقيقة والتعليقات الحادة التي اصبحنا نتوقعها من « الجنرالات » المحدثين • واني لاشك في ان أي كاتب سيرة كان يستطيع ان يحصل على مزيد من المعلومات عن عبد الكريـــم أثناء حياته • اعتقد انه كان يتفادى الاسئلة الحساسة ، ليس بدافع التكتم ، بـــل بالاحرى بسبب من التواضع الذي هو احدى الصفات الريفية •

وليس ثمة وجود للمواد اللازمة لترجمة مفصلة لحياة عبد الكريم ، وهو أمـــر مؤسف ، لاني اعتقد انه كان رجلا فذا كان يمكن للعالم الغربي ان يتعلم الشيء الكثير منه • واذا كان ثمة عبرة نتعلمها ، فلعلها ادراك الحقيقة التالية ، ألا وهي أن الفضيلة ليست مقتصرة على المنطقة الواقعة شمالي البحر الابيض المتوسط وغربي ما يسمـــى بالستار الحديدي •



فهرس

الموضوع	الصفحة